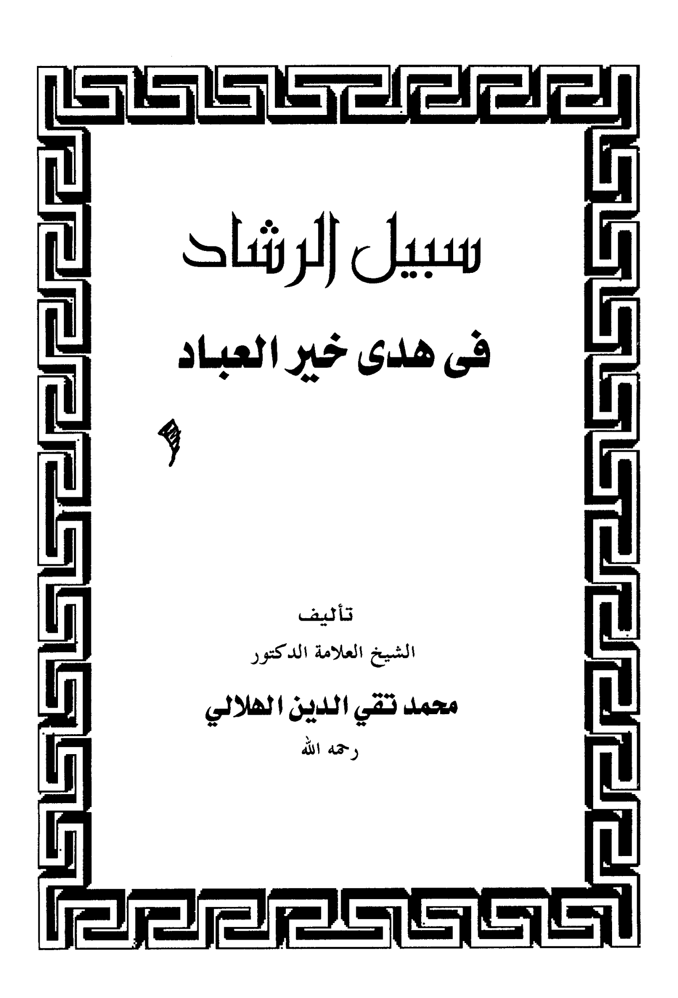


سبيل الرشاد

فى هدى خير العباد

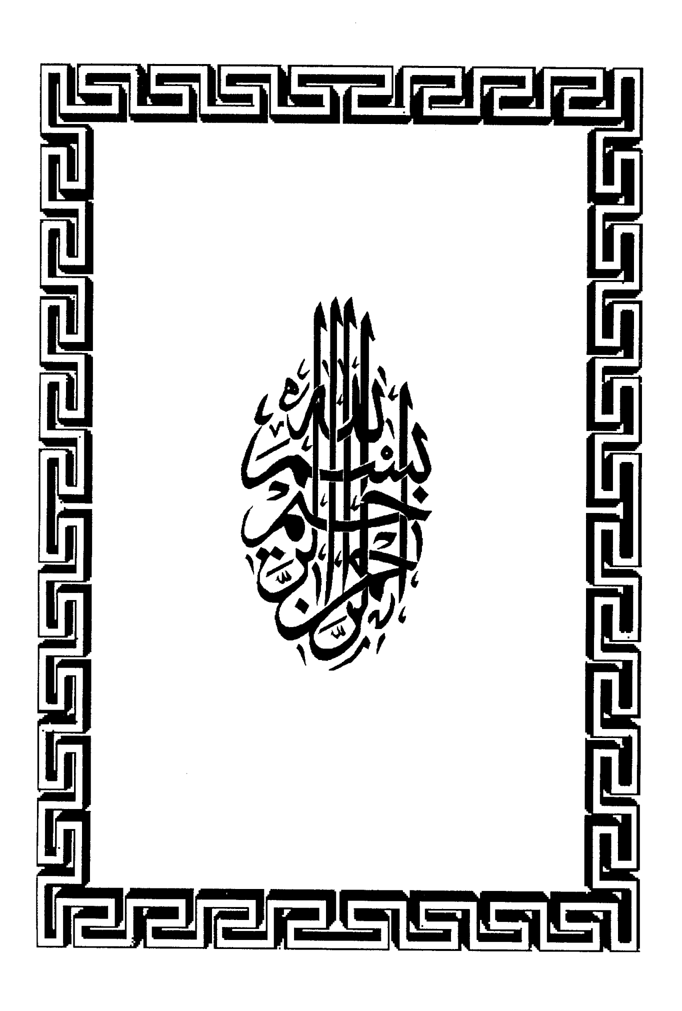
1

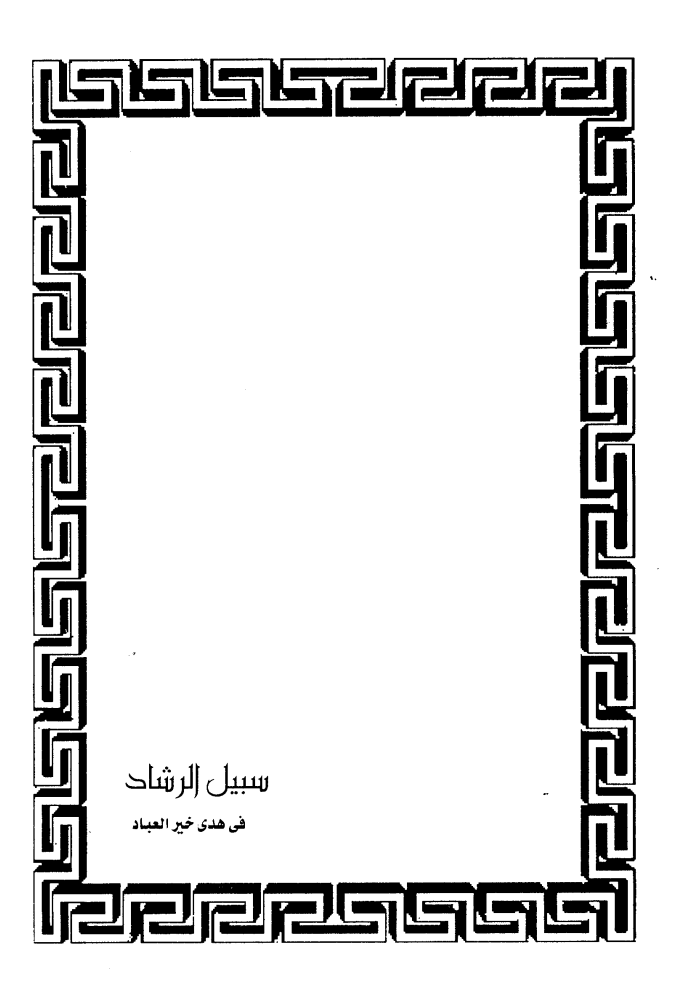
تأليف

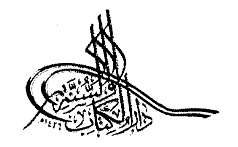
الشيخ العلامة الدكتور

محمد تقي الدين الهلالي

رحمه الله


بسم الله الرحمن الرحيم


سبيل الرشاد
فى هدى خير العباد



الطبعة الأولي 2007/2/19

لـ دار الكتاب والسنة

رقم الايداع بهيئة الكتب والوثائق القومية





المقر الرئيسي والإدارة 9 شارع احمد اسماعيل متفرع من منشية التحرير من شارع جسر السويس عين شمس الشرقية – القاهرة جمهورية مصر العربية .

جوال : **0020101021187** – 0020104671439

فاكس : **0020101021052**

موقعنا علي الإنترنت

www.dar-ketab-sunah.com

البريد الإلكتروني

Dar_alktabwalsunnah@hotmail.com

Dar_alketabwalsunnah@yahoo.com

info@dar-ketab-sunah.com

تنويه – وتقريظ

إن الحمد لله نحمده ونستهديه، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ونشهد أنه الله وحده لا شريك له ولا شبيه ولا نظير، متفرد بالسمو والكمال ومستحق للعبادة والتعظيم والإجلال، ونصلى ونسلم على سيد الأولين والآخرين، والمبعوث رحمة وهداية للعالمين، محمد بن عبد الله النبي الأمي الذي أزال الله به ظلمات الجاهلية عن العيون السادرة في الغواية، وأبطل بدعوته إلى الوحدانية المطلقة ضلال الأصنام والأوثان، وأقام من رسالته محجَّة بيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك.

أما بعد:

فلم يكن في هذه الدنيا أمر شغل الخليقة وأثار فيها الجدل، بل مزَّق – أحيانا- أمرها كل ممزق، وفرق بين القريب والحميم، وبين الأب وبنيه، والأخ وأخيه، مثل قضايا العبادة وفهم الأمم لها سلبا أو إيجابا. فالشرائع السماوية ودعوات رسل الله من نوح عليه السلام حتى خاتمهم محمد بن عبد الله تنطلق من منبع واحد لا يتبدل ولا يتغير، دعوة مطلقة لعبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ومع ذلك تقوم في وجه هذه الدعوة الصريحة المنجية دعاوى وضلالات، وأباطيل وخرافات تلبس ألف ملبس وتقعد للناس كل مقعد، حتى تنحرف بالمنخدعين وراءها إلى دروب مهلكة وإلى بُعد سحيق عن كنف الله الذي لا يرضى لعباده الكفر، ومن هنا فإن أشرف ما ترقى له الهمم وتعلو به المراتب، ويتقرب به العبد إلى خالقه هو تبصير الناس بأسس التوحيد وركائزه، وبما قد يشوب هذه الركائز والأسس من انحراف قلَّ أو كثر، لأن إفراد الله بالعبادة خالصة مطلقة، ووضع كل الحدود أمام أي زيغ أو زلل عن هذا الطريق هو بمثابة الأرض الصلبة التي يقف عليها المرء مسلما آمنا لا عوج فيه ولا اضطراب. والقرآن الكريم من أوله إلى آخره يذكر التالي له – بين آونة وأخرى – بهذا النهج الأبدي السرمدي المرتكز على: أن الله عز وجل متفرد في ملكه ومستحق وحده العبادة دون وسيط مهما كانت درجة قربه، ومهما كانت مكانته عند ربه. فالله واحد في تدبيره للكون أرضا وسماء، واحد في استحقاقه لعبادة الخلق، واحد في أسمائه وصفاته ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾

فإذا تحققنا – وهو ما يقرره كتاب الله عز وجل – من أن البشرية لم تخلق أصلا إلا من أجل هدف كبير، وغاية سامية، وهى أن تعبد الله وتخلص له القصد في القول والعمل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ ولن تستقيم أحوالها ويستتب صوابها إلا على هذه الركيزة الأساسية: الوحدانية المطلقة لله، واتباع سنن رسله عليهم السلام، إذا تحققنا ذلك أدركنا – في بساطة ويسر – مدى العناية التي أعطاها القرآن الكريم من البداية إلى النهاية لقضية التوحيد في شمولها وعمومها، وما ضرب الله من أمثال تقربها من الأفهام وتدنيها من الوعي، وما أحاط بها في نفس الوقت من شبهات وزيغ، وما نشأ بسبب الفهم المضطرب لها – بين الحق وسواه – من فرق ونحل، ومن طرائق ومسميات، وأدركنا في نفس الوقت الجهد الكبير الذي بذله العلامة السلفي الدكتور محمد تقي الدين الهلالي الحسيني وهو يكتب مؤلفه «سبيل الرشاد» في سفر يضم ستة أجزاء «في ثلاثة مجلدات» عالج فيها بمهارة العالم المتمكن كل القضايا والجزيئات المتعلقة بأنواع التوحيد الثلاثة المعروفة، والتي ارتكز في معالجتها على أمرين:

أ- الرجوع إلى المصادر الأولى – القرآن الكريم، وما ثبت عن رسول الله ﷺ من تبيان لبعض الآيات التي ينطلق منها بحثه، ثم آراء كبار المفسرين من أئمة السلف والخلف ومن نحا نحوهم وسار على خطاهم وخاصة في التوقف عن الخوض في أسماء الله وصفاته بغير علم ولا هدى، حيث يثبتونها كما أثبتها الله لنفسه من غير تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تعطيل، فهي كمال مطلق لا ندرك كنهها ولا حدود قدرتها ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

ب- ما عايشه هذا المؤلف الجليل في حياته المبكرة من ألوان المذاهب والعقائد، وما خبر بحكم تقلبه في آفاق شتى من الأرض ما لهذه وتلك من حجج ومقومات، ولعلي لا أبالغ إذا قلت أن شطرا هاما من هذا الكتاب الذي يُعنى بتتبع آيات التوحيد المبثوثة في القرآن الكريم التي تعالج هذه القضية الأساسية في التشريع، وفي تصنيف الإنسان كافرا أو مؤمنا أو زائغا، وبالصراع الطويل القائم بين الرسل ومخالفيهم – على كثرتهم واختلاف بيئاتهم – لعلي لا أبالغ إذا قلت أن شطرا هاما من هذا الكتاب قد تم إملاؤه بتأثر واضح مما عايشه من انحرافات وأباطيل، ومن دعاوى ومسميات ما أنزل الله بها من سلطان، وبتأثر كبير من

إقامته في المدينة النبوية معقل الرسول ومهاجره، والمثوى الكريم لجسده الطاهر ﷺ.

إن الفكر المسلم يتجه أول ما يتجه في تلك الأرض الطيبة المفعمة بوحي الله إلى جهاد الرسول العظيم في سبيل دعوة الحق، وإلى ما ناله من أذى قومه وهو يعلنها صريحة قوية واضحة: أن اعبدوا الله وحده ولا تتخذوا من دونه ولي من ولا نصير، لقد نادى عليه السلام أقرب الناس إليه، نادى فلذة كبده فاطمة وهو يحدد موقفه من ربه ومنها، ويزيل كل لبس قد يعْلَق بأذهان أمته عبر مسيرتها في الأرض «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئت وأنقذي نفسك من النار لا أغني عنك من الله شيئا» أيُّ تحديد أدق من هذا القول النبوي الفصل، وأي كلام أنفذ منه إلى المعنى الذي قصده، فإذا كان هذا حال محمد عليه الصلاة والسلام وهو أعظم الخلق عند الله منزلة، وأرفعهم قدرا، وقائدهم يوم الحشر العظيم، وشفيع من مات من أمته موحّدا الله خاضعا لربوبيته المطلقة، فكيف يسمح العقل لأي إنسان يدَّعى الإيمان والإسلام أن يجعل بين الله وبينه شفيعا، أو يتخذ من دونه واسطة، أو يلحد في أسمائه وصفاته، أو يصرفها عن ظاهرها ادعاء لتنزيه الله وتقديسه.

إن الخالق العظيم وقد أوجد هذا الكون على غير مثال سبق، وأودع فيه الإنسان نفحة من نفحاته ليعمره بالعمل الصالح، وبالعبادة الخالصة، وأنزل له الشرائع، وبعث له الرسل تلو الرسل، يحملون آيات بينات، ووحيا يتلقونه من السماء لإسعاد أممهم وتقويم عوجهم.

إن هذا الخالق الكبير وهو يدعو هذا الإنسان إلى الاحتماء بكنفه والالتجاء إليه في سرَّائه وضرَّائه، وفي يسره وعسره، إنما يريد أن يكرمه في هذه الأرض، ويحرره من الخوف، ومن سيطرة وهيمنة أي مخلوق مهما علا شأنه وعظم قدره، فالناس في شرعة الحق سواسية لا يتفاضلون إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

إنني أيها القارئ العزيز لا أقدم كتاب: «سبيل الرشاد» بهذه السطور المتواضعة فالكتاب يقدم نفسه، والمؤلف معروف في ساحة الجهاد العلمي وفي ميدان الدعوة إلى الله كأقوى وأصلب ما يكون الدعاة، لكنها تحية فقط لهذا النوع من الجهاد الدؤوب الذي يأبى بعد سن الخامسة والتسعين إلا أن يكد ويجد، ويكافح وينافح من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن عقيدة التوحيد الذي لا تشوبه شائبة، وهي تحية في نفس الوقت لسماحة العلامة الكبير

الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية الذى شرَّف مكتبنا بالسهر على هذا المؤلف – طباعة وتوزيعا، وهي سنة حميدة من سماحته نشهد أثرها على رقعة ممتدة من الأرض الإسلامية الفسيحة وبينها هذا البلد العزيز علينا – المغرب الأقصى – الذي حمل راية الإسلام والجهاد، وأثرى علماؤه المكتبة الإسلامية بنفائس مؤلفاتهم وكنوز معارفهم، وهي تحية تقدير للأميرة الجليلة الجوهرة بنت سعود بن عبد العزيز آل سعود الكبير التي تحملت على نفقتها الخاصة طباعة هذا المؤلف وتوزيعه مجانا ابتغاء لوجه الله، وتطلعا إلى مثوبته.

إن نشر العلم النافع، وتيسير تداوله بين الناس من أعظم ما تتوجه إليه الهمم العالية، ويسعى إليه ذوو النفوس الخّيرة لأن في ذلك إتاحة للنور أن يشرق في القلوب وإنذار للجهل أن يرحل، ولصديء ظلمته أن يتحول إلى طريق لاحب، وإلى نهج مضيء. فإذا كان الأمر بهذه الغاية من السمو فكيف بهذا العلم إذا استهدف في الأساس تصحيح عقيدة المسلم مع ربه، وتنقية توجُّهه إليه من أى شبهة أو ابتداع، ومن أى زيغ أو إلحاد أو تحريف، إنه سمُوٌّ ما بعده سمو، وغاية تتدانى دونها كل غاية، إنه الانسجام التام مع الأسس التي حث عليها ديننا الحنيف، ورغَّب في فضلها، وأشاد بها في أكثر من موضع، وجعلها من الباقيات الصالحات التي تظل للإنسان بعد رحليه من هذه الحياة.

ومن هنا يمكن لنا أن نقيِّم العمل البار الذي بادرت به الأميرة الجليلة «الجوهرة بنت سعود بنت عبد العزيز آل سعود الكبير» ابتغاءا لوجه الله وطمعا فيما عنده.

فللمؤلف الجليل – شفاه الله، ولسماحة والدنا العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ولسمو الأميرة الوقورة – التي أتجاوز إرادتها بذكر اسمها الكريم علانية، لهم مني خالص الدعاء بأن يجزيهم الله أفضل ما يجازي به عباده المؤمنين، وأن يبارك لهم فيما قدموه، ويهدينا جميعا سواء السبيل.

محمد بن براهيم بن عبد السلام
الملحق التعليمي السعودي بالمغرب
الرباط في ٧/١/١٤٠٧ هـ
الموافق ١١/٩/١٩٨٦م

نبذة من ترجمة المؤلف

نسبه

هو محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي، نسبة إلى هلال الجد الحادي عشر، بن محمد المعروف بـ: بابا، بن عبد القادر، بن الطيب، بن أحمد، بن عبد القادر، بن محمد، بن عبد النور، بن عبد القادر، بن هلال، بن محمد، بن هلال، بن إدريس، بن غالب، بن محمد المكى بن اسماعيل، بن أحمد، بن محمد، بن أبي القاسم، بن علي، بن عبد القوي، بن عبد الرحمن، بن إدريس، بن اسماعيل، بن سليمان، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، ابن محمد الباقر، بن على زين العابدين، بن الحسين، بن على وفاطمة الزهراء بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو كما ترى ينتهي نسبه رضى الله عنه إلى الحسين بن على، ذكر ذلك غير واحد من المؤرخين، وأقر هذا النسب السلطان الحسن الأول حين قدم سجلماسة سنة ١٣١١هـ.

نشأته

ولد أطال الله بقاءه سنة ١٣١١ هـ بالفيضة القديمة وتسمى «الفرخ» على بضعة أميال من الريصاني، والأصل قرية أولاد عبد القادر في «الغرفة» من أرض سجلماسة المعروفة بتافيلالت من المملكة المغربية.

دراسته

قرأ القرآن على جده ووالده فحفظه وهو بن اثنتى عشرة سنة، وكان والده ينوى أن يبعثه إلى مقرئ ذلك العصر، الشيخ أحمد بن صالح ليقرأ عليه ختمة التجويد، كما كان عازما على السفر به إلى القرويين بفاس لطلب العلم هناك، فعاجلته المنية وهو في نحو الثالثة عشرة من عمره فقامت بذلك أمه، فقرأ على الشيخ المذكور القرآن من أوله إلى آخره بالتجويد، ثم بقى فترة بدون تعليم. ولما بلغ سن الرشد سافر إلى زاوية أيت اسحاق بقبيلة أيت أخلف وبقى هناك سنتين، ثم عاد إلى تافيلالت، ثم سافر إلى الجزائر وأقام بقبيلة

أحميان، ولم يكن يخطر له التعلم ببال إلى أن رأى النبى[1] ﷺ في المنام، وقال له: اقرأ العلم، فصار عنده عزم شديد على طلب العلم، فتوجه إلى الرجل الصالح «الشيخ محمد سيدى بن حبيب الله الشنقيطي، فقص عليه رؤياه، فأعطاه نسخة من مختصر الشيخ خليل، وقال له ابدأ فى حفظ هذا الكتاب، وكلما اجتمعنا شرحت لك بعضه، فاستمر يحفظ، وبعد مدة ذهب إليه وأقام عنده يتعلم الفقه والنحو حتى فتح الله عليه في علم النحو وصار الشيخ ينيبه عنه في غيابه، وإلى أن مات الشيخ الشنقيطي سنة ١٣٣٨هـ. ثم توجه إلى مدينة وجدة فبقى مدة عند العالم الأديب السيد أحمد السكيرج يعلم ابنه الأستاذ عبد الكريم وابن أخيه عبد السلام ثم توجه إلى فاس وحضر في القرويين دروس بعض الأساتذة وعلى رأسهم العالم المحقق المصلح السيد الفاطمى الشرادي رحمة الله عليه ومن أجل من لقى من علماء فاس وأكثرهم تأثيرا في أحواله واتجاهه في طلب علم الكتاب والسنة، العالم المحقق الشيخ محمد بن العربي العلوي رحمه الله عليه وجرت بينه وبينه مناظرة[2]، فحصل على إجازة من جامع القرويين عادلتها جامعة «بون» الألمانية بالشهادة الثانوية «الباكلورية»

وفى آخر سنة ١٣٤٠ هـ سافر إلى القاهرة وحضر دروس القسم العالى بالأزهر، ومن خلال ذلك اجتمع بعدد كبير من العلماء الأجلاء، وعلى رأسهم الإمام المصلح، السلفي الطائر الصيت الأستاذ رشيد رضا صاحب «المنار».

وكانت له رغبة في طلب الحديث، فعزم على السفر إلى الهند لعلمه أنه لا تزال بقية من علماء الحديث في الهند، فسافر لأداء فريضة الحج ومنها إلى الهند، فمكث هناك يدرس الحديث ويدرس الأدب العربي إلى أن أخذ العلم والإجازة عن شيخه العلامة الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم «المباركبورى» صاحب كتاب: تحفة الأحوذى في شرح جامع الترمذي وله في هذا الكتاب قصيدة أثبتها المؤلف في آخر المجلد الرابع.

وأجازه كذلك الشيخ محمد بن حسين بن محسن الحديدي الأنصاري اليماني نزيل «بهربال» ثم رحل من الهند سنة ١٣٤٣ هـ إلى العراق وأثناء إقامته بمدينة البصرة التقى

(١) انظر كتاب الدعوة إلى الله للمؤلف.

(٢) انظر كتاب الهدية الهادية للمؤلف.

بالعالم السلفي الأديب، المحدث المحقق الشيخ محمد بن أمين الشنقيطي فزوجه ابنته وانتفع كثيرا بمجالسته ومذاكرته، وبعد ثلاث سنوات توجه إلى المملكة العربية السعودية فأقام بها في ضيافة الملك عبد العزيز ثم عين مراقبا للمدرسين مدة سنتين، ثم مدرسا في المسجد الحرام والمعهد السعودي لمدة سنة، وبعدها سافر مرة أخرى إلى الهند، فعين رئيسا لأساتذة الأدب العربي في كلية ندوة العلماء «بلكنو» مدة ثلاث سنوات تعلم خلالها اللغة الانجليزية، ثم رجع إلى البصرة وبعد ثلاث سنوات سافر إلى «جنيف» ونزل عند الزعيم المجاهد أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وكانت عنده رغبة لإتمام الدراسة الجامعية فكتب الأمير شكيب أرسلان رحمه الله إلى أحد أصدقائه بألمانيا يقول: عندى شاب مغربى أديب ما دخل ألمانيا مثله في العلم يريد أن يدرس في أحدى الجامعات ـ فعسى أن تجدوا له مكانا لتدريس الأدب العربى براتب يستعين به على الدراسة فجاء الجواب بالقبول وعين محاضرا في جامعة «بون» وفي ظرف سنة تعلم اللغة الألمانية وحصل على ديبلوم فيها، ثم صار طالبا في الجامعة.

وفي أثناء إقامته بألمانيا ترجم مع الأستاذ «باول كالى» مدير معهد العلوم الشرقية في جامعة «بون» كتابين عربيين: أحدهما كتاب «البلدان» في الجغرافية العالمية للعلامة محمد بن الفقيه البغدادي المتوفى في آخر القرن الثالث الهجري، والثاني كتاب: «طيف الخيال» للعلامة محمد بن دنيال الكحال الموصلي نزيل مصر.

وأثناء إقامته في ألمانيا عين مشرفا ومرجعا لغوياً بالقسم العربي من الإذاعة الألمانية، فوجدها فرصة سانحة لفضح جرائم المستعمرين لبلده المغرب من الفرنسيين والانجليز، فألقى من على منبر تلك الإذاعة خطبا كانت على المستعمرين خطوبا، وكان بسببها أن نفته فرنسا من المغرب نفيا رسميا مع أن كان غائباً عنه كما عملت بريطانيا على نزع جنسيته العراقية التي كان تجنس بها سنة ١٩٣٤م.

وفي سنة ١٩٤٠ قدم رسالة دكتوراه، وهي ترجمة «مقدمة كتاب "الجماهير في الجواهر" للبيروني» مع التعليق عليها وهكذا حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٩٤١م ثم بعد الحرب العالمية الثانية عين أستاذاً بجامعة بغداد وفي سنة ١٩٤٢م سافر إلى تطوان

بمساعدة الأستاذ المجاهد عبد الخالق الطريس رئيس حزب الإصلاح الوطنى إذ ذاك فبقى إلى أن كاد له الأسبان ونزعوا منه جوازه بدعوى أنه مزور، وفي سنة ١٩٥٩م عين أستاذاً بجامعة محمد الخامس بالرباط ثم بفرعها بفاس إلى سنة ١٣٦٨هـ حيث سافر مرة أخرى إلى ألمانيا ومنها إلى الأراضى القطبية.

وفي سنة ١٣٨٨هـ توجه إلى الحج وفى منى اجتمع بالعالم الورع الذى يقل نظيره في هذا العصر إلا وهو الأستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، فقال له أن الجامعة الإسلامية في حاجة إليك، فقال: وأنا مستعد لخدمتها، فكتب الشيخ عبد العزيز وطلبه من وزارة التعليم المغربية، فالتحق أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية وبقى بها إلى سنة ١٣٩٤هـ حيث طلب منه إخوانه في المغرب أن يستقر في المغرب للدعوة إلى الله تعالى والمحافظة على العقيدة السفلية، فعرض الأمر على رئيس الجامعة الإسلامية آنذاك الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز فوافق عليه، ورجع إلى المغرب، وسكن مكناس، فصار يعطى الدروس بمساجدها وينتقل بين مساجد مدن وقرى المملكة المغربية فثقل ذلك على المبتدعة واغصهم بريقهم فوشوا به وطلبوا منعه وتوقيفه، ولو آمنوا بقوله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ لكان خير لهم، وللدكتور محمد تقي الدين مواقف جليلة في الدعوة إلى التوحيد الخالص ونبذ الشرك.

فلتراجع أخى القارئ إن أردت الوقوف عليها إلى كتابه القيم «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة».

مؤلفاته:

أما مؤلفاته فهي أكثر من أن تحصى فنذكر منها على سبيل الاختصار:

١- سبيل الرشاد الذي بين يديك الجزء الأول منه.

٢- الإلهام، في تفسير سورة الأنعام.

٣- الحسام الماحق، لكل مشرك ومنافق.

٤- ديوان الشعر.

٥- الإسلام والمذاهب الاشتراكية.
٦- دواء الشاكين وقامع المشككين.
٧- من يرافقنى من الرباط إلى برلين.
٨- رسالة الدكتوراه.
٩- مدينة العرب في الأندلس: ترجمة.
١٠-كتاب الدعوة إلى الله.
١١-أحكام الخلع في الإسلام.
١٢-حكم تارك الصلاة.
١٣-الصراط المستقيم ودليله.
١٤-الفجر الصادق.
١٥-قبسة من أنوار الوحى.
١٦-الصبح السافر في حكم صلاة المسافر.
١٧-تفسير سورة الفتح.
١٨-فتح الرحمن في تفسير أم القرآن.
١٩-الزند الوارى شرح واختصار صحيح البخاري جـ١ فقط.
٢٠-من مآثر الرسول ﷺ.
٢١-تقويم اللسانين.
٢٢-الفوائد السامية، في تاريخ اللغات السامية.
٢٣-الفتاوى الهلالية ج ١ و ٢.
٢٤-الهدية الهادية.
٢٥-مختصر هدى الخليل.
٢٦-البراهين الانجيلية.
٢٧-مسرحيات طيف الخيال ترجمة.
٢٨-دليل الحاج.

٢٩-حاشية على كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب.

٣٠-حاشية على كشف الشبهات.

٣١-ترجمة القرآن باللغة الانجليزية بمشاركة الدكتور محمد محسن

٣٢-الهاديات: قصائد أربع.

إلى غير ذلك من الكتب القيمة النافعة وله أكثر من مائة مقال نشرتها مجلات عديدة في أمريكا وأوربا والهند وبلاد الإسلام.

فجزى الله شيخنا عن الإسلام والمسلمين خيراً .... **والسلام**

عمرو بن محمد محسن

إمام وخطيب جامع

الملك عبد العزيز - آنفا

الدار البيضاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، أشهد أنه الله الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الخلق العظيم، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

أما بعد، فيقول العبد الفقير إلى رحمة ربه الكبير المتعالى **محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي** عفا الله عنه ووفقه للعمل الصالح المتوالى: خطر ببالى منذ مدة أن أؤلف كتابا لنفسى ولمن شاء الله بعدى، **أشرح فيه أنواع التوحيد الأربعة**[1] التى أولها: توحيد الربوبية، وثانيها: توحيد العبادة، وثالثها: توحيد الاتباع، ورابعها: توحيد الأسماء والصفات، ثم رأيت أن آيات توحيد الربوبية في كتاب الله كثيرة لو استوعبتها مع ما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وكلام علماء السلف، لعظم حجم الكتاب جداً لكثرتها، فجعلت الأقسام ثلاثة، الأول: في توحيد العبادة ممزوجاً بما يحتاج إليه من آيات توحيد الربوبية، والقسم الثاني، يشتمل على آيات توحيد الإتباع أعنى إتباع الكتاب والسنة، والقسم الثالث، يشتمل على آيات توحيد الأسماء والصفات وهي الآيات التي وصف الله بها نفسه سبحانه وما يتعلق بها من الأحاديث النبوية وأقوال أئمة السلف، وقد أعاننى الله سبحانه على إتمام هذا الجزء الأول، فلله الحمد والمنة، وإياه أسأل، وبأسمائه وصفاته أتوسل، أن يعيننى على إتمام الجزأين الباقيين، وسميت هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة «سبيل الرشاد» أسأل الله تعالى أن يجعل النفع به كثيراً، وأن يجعله من الأعمال الباقية، وأن ينفعنا به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم. واعتمدت على تفسير الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة «٧٧٤هـ» رحمة الله عليه، لأنى ما رأيت أحداً من المفسرين يعتنى بالتوحيد مثله وقد أشير «بالكاف» إلى تفسير ابن كثير و «بالجيم» إلى تفسير ابن جرير و«بالقاف» إلى ما اتفق عليه البخاري ومسلم من الحديث و«بالخاء» إلى ما انفرد به البخاري

---

(١) أنواع التوحيد في الحقيقة ثلاثة لأن الثالث وهو الإتباع داخل في الثاني ولكننى جعلته قسما لكثرة خلاف المقلدين لما جاء به الرسول ﷺ.

و«بالميم» إلى ما انفرد به مسلم و «بالدال» إلى سنن أبى داود و «بالتاء» إلى جامع الترمذي «وبالنون» إلى سنن النسائى «وبالحاء والميم أو الألف المهموزة» إلى مسند الإمام أحمد.

القسم الأول

توحيد العبادة وتوحيد الربوبية

سورة الفاتحة

الباب الأول

قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

قال (ج) فى تفسير ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ ما نصه ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ لك اللهم نخشع ونذل ونستعين إقراراً لك يا رب بالربوبية لا لغيرك. ثم روى بسنده إلى عبد الله بن عباس قال جبريل لمحمد ﷺ: قل يا محمد ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ إياك نوحد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك، وذلك من قول ابن عباس بمعنى ما قلنا، وإنما اخترنا البيان عن تأويله بأنه بمعنى نخشع ونذل ونستعين، دون البيان عنه بأنه بمعنى: نرجو ونخاف، وإن كان الرجاء والخوف لا يكونان إلا مع ذلة لان العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وإنها تسمى الطريق المذلل الذى وطئته الأقدام وذللته السابلة معبداً، من ذلك قول طرفة بن العبد:

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مور معبد

يعنى بالمور الطريق وبالمعبد المذلل الموطوء، ومن ذلك قيل للبعير المذلل بالركوب في الحوائج معبد، ومنه سمى العبد عبدا، لذلته لمولاه.

قال محمد نقى الدين: وقوله، وذللته السابلة، المراد بالسابلة: أبناء السبيل المختلفون على الطرقات في حاجاتهم، قال صاحب اللسان: وقوله: ﴿ **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ قال أبو جعفر معنى قوله ﴿ **وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾، وإياك ربنا نستعين على عبادتنا إياك وطاعتنا لك في أمورنا كلها لا أحدا سواك، إذا كان من يكفر بك يستعين فى أموره بمعبوده الذى يعبده من الأوثان دونك فنحن بك نستعين في جميع أمورنا مخلصين لك العبادة، ثم روى بسنده إلى الضحاك عن ابن عباس قال: إياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها، **وقال (ك)** في تفسير الآية

ما نصه: والعبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبعير معبد، أي مذلل، وفي الشرع عبادة تجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أى لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك، وهذا هو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وهو كما قال بعض السلف:

الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك والثاني، تبرؤ من الحول والقوة وتفويض إلى الله عز وجل.

وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ [١] ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [٢] ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا** ﴾ [٣]. وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾، وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب فيه مناسبة لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى فلهذا قال: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ وفي هذا دليل على أن السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاته الحسنى وإرشاد لعباده بأن يثنوا عليه بذلك ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه كما جاء في الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»، وفي صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة عن أبيه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ يقول الله تعالى: «قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين، فنصفها لى ونصفها لعبدى ولعبدي ما سأل، إذا قال العبد: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾، قال الله حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ **الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾، قال الله: أثنى علي عبدي، فإذا قال ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾، قال الله مجدني عبدي، وإذا قال ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ قال هذا بينى وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ** ﴾، قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، وقال قتادة

(١) هود.

(٢) الملك.

(٣) المزمل.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، يأمركم أن تخلصوا له العبادة وأن تستعينوه على أموركم وإنما قدم ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ على ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، لأن العبادة له هى المقصودة والاستعانة وسيلة إليها والاهتمام والحزم ما هو الأهم، فالأهم ثم قال: والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد عند الله تعالى: وقد سمى الله رسوله ﷺ بعبده فى أشرف مقاماته فقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [(١)]، ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [(٢)] ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [(٣)] فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به، وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق فيها صدره من تكذيب المخالفين، حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [(٤)]، قال الشوكاني: والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل.

فى هذا الكلام فوائد

الأولى، معنى العبادة لغة وشرعا، **والثانية:** معنى الاستعانة لغة وشرعا، **والثالثة:** تقديم المعمول يفيد الحصر فى الموضوعين: إياك نعبد وإياك نستعين، **الرابعة:** الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، **الخامسة،** الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، **السادسة،** لا تصح صلاة من لم يقل: إياك نعبد وإياك نستعين وما قبلها وما بعدها من الفاتحة، **السابعة:** السر في تقديم إياك نعبد على وإياك نستعين، **الثامنة** العبادة أشرف المقامات خلافا لمن ظن العكس من الجاهلين من النصارى وأشباههم، **التاسعة:** من ضاق صدره فليبادر إلى العبادة.

قال محمد تقى الدين: قول الشوكاني والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل، إن كان يريد المعنى اللغوي فهو صحيح، قال تعالى في سورة المؤمنين حكاية عن موسى: ﴿ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ أى خاضعون متذللون خادمون، وإما أن أراد

---

(١) الكهف.

(٢) الجن.

(٣) الإسراء.

(٤) الحجر.

المعنى الشرعى فهو ناقص، إذ لا تتم العبادة بالخضوع والتذلل فقط حتى يصحبهما الحب والتعظيم والإجلال وتوحيد الله بذلك، وعليه يقال: العبادة غاية التذلل في غاية الحب مع التوحيد واتباع سنة النبى ﷺ وأداء جميع الواجبات وترك المحرمات.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ** ﴾ الخ **قال (ج)**، ومعنى قوله ﴿ **اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ** ﴾ فى هذا الموضع عندنا وفقنا للثبات عليه، قال أبو جعفر: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعا على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، ومن ذلك قول جرير بن عطية الخطفي:

أمـير المـؤمنين علـى صـراط إذا اعـوج المـوارد مسـتقيم

ثم تستعير العرب الصراط فتستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج، فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه، ومعناه عندي: وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل، لأن من وفق لما وفق له من أنعم الله عليه فقد وفق لإتباع منهاج النبي ﷺ ومنهاج أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وكل عبد صالح.

﴿ **الَّذينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ** ﴾ بطاعتك وعبادتك من ملائكتك، وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين، وذلك نظير ما قال ربنا في تنزيله في سورة النساء: ﴿ **وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا** ﴾ ثم روى بسنده مثل ذلك الذي قاله عن ابن عباس وغيره من السلف، ثم قال وفي هذه الآية دليل على أن طاعة الله لا ينالها المطيعون إلا بإنعام الله بها عليهم وتوفيقه إياهم لها.

والمراد ﴿ **بالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ** ﴾ من ذكرهم الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة بقوله: ﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللّهِ مَن لَّعَنَهُ اللّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾، ثم روى بسنده إلى عدي بن حاتم قال: قال لى النبى ﷺ: المغضوب عليهم: اليهود، ثم روى مثل ذلك عن

جماعة من الصاحبة والتابعين موقوفا عليهم.

وقوله: ﴿ **وَلاَ الضَّآلِّينَ** ﴾، **قال (ج)** فإن: قال لنا قائل ومن هؤلاء الضالون الذين أمرنا الله بالاستعاذة بالله أن يسلك بنا سبيلهم ونضل ضلالهم ؟ قيل: هم الذين وصفهم الله في تنزيله، فقال ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾ [1] ثم روى بسنده إلى عدى بن حاتم قال قال رسول الله ﷺ ﴿ **وَلاَ الضَّآلِّينَ** ﴾ قال النصارى.

قال محمد نقى الدين: ذكرت الآيتين الأخيرتين وجعلتهما من أدلة توحيد العبادة لأنهما دعاء والدعاء عبادة كما في الحديث الصحيح: «الدعاء هو العبادة». رواه أحمد والأربعة والبخاري في الأدب المفرد عن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ، وفي حديث آخر «الدعاء مخ العبادة». رواه الترمذي عن أنس مرفوعا عن النبى ﷺ، فهداية القلوب لا يقدر عليها إلا الله تعالى، فمن زعم من المتصوفة أن شيخه يتصرف في قلبه هداية وإضلالا وتنويرا وإظلاما ولينا وقسوة وإقبالا وإعراضا فقد اتخذ مع الله إلها آخر، قال النبى ﷺ: « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، فقلوب العباد بيد الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن وفق لطلب الهداية فإن الله يهديه، وقال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾

سورة البقرة

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) المائدة.

الآيتان: ٢١ – ٢٢.

قال (ك) لما فرغ سبحانه من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين، أقبل عليهم بالخطاب التفاتا للنكتة السابقة في الفاتحة، وإنما خص نعمة الخلق وأمتن عليهم، لأن جميع النعم مترتبة عليها وهى أصلها الذي لا يوجد شيء بدونه وأيضا فالكفار مقرون بأن الله هو الخالق **﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾** [1] فامتن الله عليهم بما يعترفون به ولا ينكرونه، ولعل أصلها للترجى وهو محال على الله تعالى فمعناها هنا أن الله يقول لعباده: وحدوا ربكم بعبادته ولا تشركوا به شيئاً وبذلك تصلون إلى التقوى وهى سبب سعادتكم، وتنجون من الشرك الذي هو سبب شقاء وهلاك. وقيل: أن العرب استعملت لعل مجردة من الشك بمعنى لام كى، والمعنى هنا لتتقوا:

قال الشاعر:

وقــتلم لنــا كفــوا الحــروب لعلنــا ... نكــف ووثقــتم لنــا كــل موثــق

فلما كففنـا الحـرب كانـت عهـودكم ... كشــبه ســراب فــى الفــلا متــألق

فراشا أى وطاء يستقرون عليها، لما قدم نعمة خلقهم، أتبعه بنعمة خلقه الأرض، ثم اتبع ذلك بنعمة جعل السماء كالقبة المضروبة عليهم والسقف للبيت الذي يسكنون كما قال: **﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾** [2]، ثم امتن عليهم بإنزال الماء من السماء، والثمرات جمع ثمرة، والمعنى: أخرجنا لكم ألوانا من الثمرات وأنواعا من النبات ليكون ذلك متاعا لكم إلى حين، والأنداد: جمع ند، وهو المثيل والنظير **﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾** خطاب للكفار والمنافقين وفيه دليل على وجوب استعمال الحجج وترك التقليد.

وأخرج (ج) وغيره عن ابن عباس قوله: **﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً ﴾** أى لا تشركوا به غيره من الأنداد التى لا تضر ولا تنفع وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره.

وأخرج (حم) و (خ) فى الأدب المفرد وغيرهما عن ابن عباس قال: قال رجل للنبى ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتنى لله ندا ؟ قل: ما شاء الله وحده» وأخرج ابن

---

(١) الزخرف.

(٢) الأنبياء.

سعد عن قتيلة بنت صيفي قالت: جاء حبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد نعم القول أنتم لولا أنكم تشركون ! قال: «كيف؟» قال: يقول أحدكم لا والكعبة، فقال النبي ﷺ: «من حلف فليحلف برب الكعبة»، فقال: يا محمد نعم القوم أنتم لولا أنكم تجعلون لله ندا! قال: «وكيف ذلك؟» قال: يقول أحدكم: ما شاء الله وشئت، فقال النبي ﷺ: «فمن قال منكم: ما شاء الله، فليقل: ثم شئت» وأخرج (حم) و (د) وغيرهما عن حذيفة ابن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، قولوا ما شاء الله ثم فلان» وأخرج (حم) وغيره عن الطفيل بن سخبرة أنه رأى فيما يرى النائم كأنه مر برهط من اليهود، فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تزعمون أن عزير ابن الله ! فقالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مر برهط من النصارى فقال: أنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ! قالوا: وأنتم نعم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبح أخبر النبي ﷺ، فخطب فقال: «أن طفيلا رأى رؤيا وأنكم تقولون كلمة كان يمنعني الحياء منكم، فلا تقولوها ولكن قولوا: ما شاء الله وحده لا شريك له». وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: الأنداد، الشركاء أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان، هذا كله شرك، وأخرج (خ) و (م) عن بن مسعود قال: « قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك» وروى (ج) بسنده إلى ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ قال: وحدوه.

قال محمد تقي الدين: قوله، وحدوه لأن الذين تقدم ذكرهم من أنواع الكفار كلهم يعبدون الله ولكنهم لا يوحدونه ومن صرف من عبادته لغير الله مثقال ذرة فلم يعبده، لأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا له من الشرك الأكبر والأصغر كما قال تعالى: **﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾** [1] وقال تعالى: **﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ**

---

(١) النساء.

مَا أَعْبُدُ ﴾ [١]، فنفى عنهم عبادة الله تعالى مع أنهم كانوا يعبدون الله بالحج والدعاء والصدقة والذبح إلا أنهم كانوا يشركون معه غيره، فكان قائلهم يقول: إذا أهل بالحج: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، فمن أهل هذا الزمان من يصلى صلاة كثيرة ويصوم ويتصدق ويذكر الله ولكنه مع ذلك يدعو غير الله ويستغيث بغير الله ويذبح لغير الله ويحلف بغير الله ويخاف غير الله ويرجو غير الله ويتذلل لغير الله ظاهرا وباطنا، وبعض هذه الأمور بل كلها يحبط عمله فلا يقبل الله منه شيئاً ؟ قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ** ﴾ **قال محمد تقى الدين**: فى هاتين الآيتين نوعان من التوحيد، أولهما توحيد العبادة في قوله تعالى: ﴿ **اعْبُدُوا رَبَّكُمْ** ﴾ وحدوه، والثانى توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية إذا لم يكن معه توحيد العبادة لا ينفع صاحبه شيئاً، فإن أكثر الكفار يعتقدون أن الله ربهم وخالقهم ومليكهم والمنعم عليهم فلم ينفعهم ذلك شيئاً لأنهم لم يخصوه بالعبادة والتوجه والقصد والطلب، ونعم الله على عباده كثيرة لا يحصيها إلا هو كما قال تعالى: ﴿ **وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا** ﴾ [٢]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين نعما متعددة: أولاها: أنه خالق كل شيء، ثانيها: أنه جعل للناس هذه الأرض صالحة لسكناهم وفيها أسباب الراحة، ثالثها: أنه جعل السماء سقفا حافظا لهم من الآفات التي تأتي من السموات، رابعها أنه أنزل من السماء ماء مباركا لا يستطيع إنزاله إلا هو، ولا حياة لهم بدونه، خامسها أنه أخرج لنا به من أنواع النبات والأشجار من الزروع والحبوب والفواكه والثمار ما لا يكاد يحصى.

وقال بعد ذلك: فلا تجعلوا لله أندادا، أى شركاء في العبادة تخافونهم وترجون نفعهم وتتملقون لهم وأنتم تعلمون علما لا شك فيه أن خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم واحد هو الله، هذا للذين يقرون بوجود الله، أما الذين ينكرون فهم فئة فقيرة حقيرة مكابرة مغالطة. وللكلام معهم موضوع آخر.

---

(١) الكافرون.

(٢) إبراهيم.

الباب الثانى

قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ البقرة، آية ٤٠.

قال (ك) في قوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ إسرائيل هو يعقوب وقوله تعالى ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم الله بها عليهم فيما سمي وفيما سوى ذلك أن فجر لهم البحر، وأنزل عليهم المن والسلوى، ونجاهم من عبودية آل فرعون، وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب، قلت: وهكذا يقول موسى عليه السلام لهم ﴿ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ ﴾ [1]، يعنى في زمانهم ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾، قال: بعهدى الذي أخذت فى أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التي كانت فى أعناقكم بذنوبكم التي كانت من أحداثكم. وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [2] الآية.. وقال آخرون: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بنى إسرائيل نبيا عظيما.

فصل في ذكر البشارة بنبينا ﷺ من التوراة

قال الرازي، في الجزء الثالث من تفسيره ص٢٦، وسنذكر الآن بعض ما جاء في كتب الأنبياء المتقدمين من البشارة بمقدم محمد ﷺ.

فالأول جاء في الفصل التاسع من السفر الأول من التوراة: «أن هاجر لما غضبت عليها

---

(١) المائدة.

(٢) المائدة.

سارة تراءى لها ملك من قبل الله، فقال لها يا هاجر: أين تريدين ومن أين أقبلت؟ فقالت أهرب من سيدتى سارة ! فقال لها: ارجعى إلى سيدتك واخفضى لها فإن الله سيكثر زرعك وذريتك وستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه اسماعيل من أجل أن الله سمع تبتلك وخشوعك وهو يكون عين الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع وهو يشكر على رغم جميع أخوته»، واعلم أن الاستدلال بهذا الكلام أن هذا الكلام خرج مخرج البشارة وليس يجوز أن يبشر الملك من قبل الله بالظلم والجور وبأمر لا يتم إلا بالكذب على الله تعالى، ومعلوم أن اسماعيل وولده لم يكونوا متصرفين في الكل أعنى في معظم الدنيا ومعظم الأمم، ولا كانوا مخالطين للكل على سبيل الاستيلاء إلا بالإسلام، لأنهم كانوا قبل الإسلام محصورين في البادية لا يتجاسرون على الدخول في أوائل العراق وأوائل الشام إلا على أتم خوف، فلما جاء الإسلام استولوا على الشرق والغرب بالإسلام ومازجوا الأمم ووطئوا بلادهم ومازجتهم الأمم وحجوا بيتهم ودخلوا باديتهم بسبب مجاورة الكعبة فلو لم يكن النبى ﷺ صادقا لكانت هذه المخالطة منهم للامم ومن الأمم لهم معصية لله تعالى وخروجا عن طاعته إلى طاعة الشيطان، والله يتعالى عن أن يبشر بما هذا سبيله.

والثاني: جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: «أن الرب إلهكم يقيم لكم نبيا مثلى من بينكم ومن أخوانكم » وفى هذا الفصل «أن الرب تعالى قال لموسى: إنى مقيم لهم نبيا مثلك من بين أخوانهم وأيما رجل لم يسمع كلماتى التي يؤديها عنى ذلك الرجل باسمى أنا أنتقم منه». وهذا الكلام يدل على أن النبى الذي يقيمه الله تعالى ليس من بنى إسرائيل، كما أن من قال لبنى هاشم: أنه سيكون من أخوانكم أمام أعقل منه أنه لا يكون من بنى هاشم، ثم أن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل، ولم يكن له أخ إلا عيص ولمن يكن للعيص ولد من الأنبياء سوى أيوب وأنه كان قبل موسى عليه السلام فلا يجوز أن يكون موسى عليه السلام مبشرا به، وأما إسماعيل فإنه كان أخا لإسحاق والد يعقوب ثم أن كل نبى بعث بعد موسى كان من بنى إسرائيل، فالنبى ﷺ ما كان منهم لكنه من أخوانهم لانه من ولد إسماعيل الذي هو أخ إسحاق عليه السلام.

فإن قيل قوله «من بينكم» يمنع من أن يكون المراد محمد ﷺ لأنه لم يقم من بين بنى

إسرائيل، قلنا: بل قد قام من بينهم لأنه عليه السلام ظهر بالحجاز فبعث بمكة وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره، وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر، وبنى قينقاع، والنضير وغيرهم، وأيضاً فإن الحجاز يقارب الشام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشام، فإذا قام محمد بالحجاز فقد قام بينهم، وأيضاً فإنه إذا كان من أخوانهم فقد قام من بينهم، فإنه ليس ببعيد منهم.

الثالث: قال في الفصل العشرين من هذا السفر: «أن الرب تعالى جاء من طور سيناء وطالع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصف عن يمينه القديسون، فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب ودعا لجميع قديسيه بالبركة » وجه الاستدلال أن جبال فاران هي بالحجاز لأن في التوراة أن إسماعيل تعلم الرمي في برية فاران، ومعلوم أنه إنما سكن بمكة، إذا ثبت هذا فنقول: أن قوله «فمنحهم العز» لا يجوز أن يكون المراد إسماعيل عليه السلام لأنه لن يحصل عقب سكنى إسماعيل عليه السلام هناك عز ولا اجتمع هناك القديسون، فوجب حمله على محمد ﷺ، قالت اليهود: المراد أن النار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً، ومن جبل فاران أيضاً فانتشرت في هذه المواضع.

قلنا هذا لا يصح لأن الله تعالى لو خلق نارا في موضع فإنه لا يقال جاء الله من ذلك الموضع إلا إذا تبع تلك الواقعة وحى نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك، وعندكم إن لم يتبع ظهور النار وحى ولا كلام إلا من طور سيناء، فما كان ينبغى إلا أن يقال جاء الله من طور سيناء فأما أن يقال ظهر من ساعير ومن جبل فاران فلا يجوز وروده، كما لا يقال جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتفق ذلك في أيام الربيع، وأيضاً ففى كتاب «حبقوق» بيان ما قلنا وهو تجلى الله من طور سيناء القدس من جبل فاران لو انكشفت السماء من بهاء محمد وامتلأت الأرض من حمده يكون شعاع منظره مثل النور يحفظ بلده بعزه تسير المنايا أمامه ويصحب سباع الطير أجناده قام فمسح الأرض وتأمل الأمم وبحث عنها فتضعضعت الجبال القويمة واتضعت الروابى الدهرية، وتزعزعت ستور أهل مدين ركبت الخيول وعلوت مراكب الانقياد والغوث وستنزع فى قسيك إغراقاً ونزعا وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء، وتخور الأرض بالأنهار ولقد رأتك الجبال

فارتاعت وانحرف عنك شؤبوب السيل ونفرت المهارى نفيرا ورعبا ورفعت أيديها وجلا وفرقا وتوقفت الشمس والقمر عن مجراهما وسارت العساكر في برق سهامك ولمعات بيانك تدوخ الأرض غضبا وتدوس الأمم زجرًا لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ تراب آبائك، هكذا نقل عن ابن رزين الطبري، أما النصارى فقال أبو الحسين رحمه الله في كتاب الغرر: قد رأيت في نقولهم، وظهر من جبال فاران لقد تقطعت السماء من بهاء محمد المحمود وترتوي السهام بأمرك المحمود لأنك ظهرت بخلاص أمتك وإنقاذ مسيحك، فظهر بما ذكرنا أن قوله تعالى في التوراة «ظهر الرب من جبال فاران» ليس معناه ظهور النار منه بل معناه ظهور شخص موصوف بهذه الصفات وما ذاك إلا رسولنا محمد ﷺ، فإن قالوا المراد مجيء الله ولهذا قال في آخر الكلام «وإنقاذ مسيحك» قلنا لا يجوز وصف الله تعالى بأنه يركب الخيول وبأن شعاع منظره مثل النور وبأنه جاز المشاعر القديمة، وأما قوله «وإنقاذ مسيحك» فإن محمدا ﷺ أنقذ المسيح من كذب اليهود والنصارى.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ البقرة: آية ٤١

إنه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

قال محمد تقى الدين الهلالي: والتقوى: اجتناب النواهي وامتثال الأوامر، فمن اتخذ شخصاً غير معصوم يجتنب كلما نهاه عنه ويمتثل كلما أمره به، فقد اتخذ مع الله إلها آخر، فإن كل واحد غير معصوم، وإن بلغ في العلم والصلاح ما بلغ لا يقبل قوله في الدين حتى يعرض على كتاب الله وسنة رسوله فما وافق يؤخذ وما خالف يترك، وغلاة المتصوفة يأمرون المريدين أن يطيعوا شيوخهم في كل ما يأمرون به بدون سؤال ولا مراجعة، ويقولون: «من قال لشيخه: «لم» لا يفلح أبداً » وقال شاعرهم:

وكن عنده كالميت عند مغسل ... يقلبه ما شاء وهو مطاوع

ويقولون: إذا رأيت امرأة حسناء دخلت على شيخك فقم سخن الماء، وأقوالهم في ذلك كثيرة، فهؤلاء اتخذوا شيوخهم أربابا من دون الله، ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِـدًا لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ البقرة: آية ٤٨

لما ذكرهم تعالى بنعمة أولا عطف على ذلك التحذير من طول عقابه لهم يوم القيامة فقال ﴿ وَاتَّقُواْ يَوْماً ﴾ يمعنى يوم القيامة ﴿ لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً ﴾ أى لا يغنى أحد عن احد كما قال: ﴿ وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [١] وقال: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [٢] وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ [٣] لهذا أبلغ التحذير، أن كلا من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئا وقوله تعالى ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ﴾ يعنى من الكافرين كما قال: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [٤] وكما قال فى أهل النار ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [٥] وقوله تعالى ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أى لا يقبل منها فداء كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ﴾ [٦]، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ

---

(١) الإسراء.

(٢) عبس.

(٣) لقمان.

(٤) المدثر.

(٥) الشعراء.

(٦) آل عمران.

﴿ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [(١)] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ [(٢)] وقال: ﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ ﴾ [(٣)] الآية، فأخبر تعالى أنهم إن لم يأمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبا كما قال تعالى: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ ﴾ [(٤)] قال ابن عباس: ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ قال بدل، والبدل، الفدية، وقال أبو العالية: ﴿ وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أى فداء، وروى ابن جرير في ذلك حديثا مرفوعا، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أى ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ [(٥)] أى أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ، ولا يخلص منه أحد، ولا يجير منه أحد، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [(٦)] وقال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ [(٧)] وقال: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [(٨)]، وقال: ﴿ فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴾ [(٩)] الآية، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ ﴾ ما لكم اليوم لا تمانعون منا، هيهات ليس ذلك لكم اليوم، قال ابن جرير: وتأويل قوله

---

(١) المائدة.

(٢) الأنعام.

(٣) الحشر.

(٤) البقرة.

(٥) الطارق.

(٦) المؤمنون.

(٧) الفجر.

(٨) الصافات.

(٩) الأحقاف.

﴿ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر، كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ البقرة الآيات ٨٣ – ٨٦

قال (ك): يذكر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك، وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه، فأمرهم الله تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [1] وقال

(١) الأنبياء.

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ (١) وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبدوه وحده لا شريك لـه، ثـم بعـده حـق المخلوقين وأكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعـالى بـين حقـه وحـق الوالدين كما قال تعـالى ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِـيرُ ﴾ (٢) وقـال تبـارك وتعـالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٣) إلى أن قال: ﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّـهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴾ وفى الصحيحين عن ابن مسعود: «قلت يا رسـول الله أى العمـل أفضل؟ قال: الصلاة على وقتها قلت: ثم أى؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أى؟ قال: الجهاد في سبيل الله » ولهذا جاء في الحديث الصحيح «أن رجلاً قال: يا رسول الله مـن أبـر؟ قـال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك ثم أدناك ثـم أدنـاك»، وقولـه تعـالى ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ ﴾ قال الزمخشري: خبر بمعنى الطلب وهو آكـد، وقيـل كـان أصـله «ألا تعبدوا إلا الله» كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت أن، فارتفع وحكى عـن أبـي وابـن مسعود أنهما قرآها: «لا تعبدوا إلا الله» ونقل هذا التوجيه القرطبي فى تفسيره عن سـيبويه، قال واختاره الكسائي والفراء قال: «واليتامى» وهـم الصغار الذين لا كاسب لهم مـن الآبـاء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون علـى أنفسـهم وأهلـيهم، وسـيأتى الكـلام علـى هـذه الأصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحا فى قولـه ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْـناً ﴾ أى كلمـوهم طيبـا ولينوا لهم جانبا، ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما قـال الحسـن فـى قوله تعالى ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ فالحسن من القـول: يـأمر بـالمعروف وينهـى عـن المنكـر ويحكم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: « لا تحقرن مـن المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق» وناسب أن يأمرهم بـأن يقولـوا للنـاس

---

(١) النحل.

(٢) لقمان.

(٣) الإسراء.

حسنا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك، وهو الصلاة والزكاة فقال: ﴿ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أى تركوه وراء ظهورهم، وأعرضوا عنه، على عهد بعد العلم به، إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله ﴿ وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَـؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ يقول الله تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانون من القتال مع الأوس والخزرج، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة وكان يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير حلفاء الخزرج، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ﴾ أى لا يقتل بعضكم بعضا ولا يخرجه من منزله، ولا يظاهر عليه كما قال تعالى: ﴿ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ ﴾ [(١)] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» وقوله تعالى: **﴿ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾** أى ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به **﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾** الآية، قال محمد بن اسحاق بن يسار: حدثنى محمد ابن أبى محمد عن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس **﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ ﴾** الآية، قال أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم في التوارة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها افتداء أسراهم فكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة وهم حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قننقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على اخوانه، حتى تسافكوا دمائهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلال ولا حراما، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما في التوراة وأخذا به يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس ويفتدى النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم، يقول الله تعالى ذكره حيث أنبأهم ذلك **﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾** أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم، وفي حكم التوراة، أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه إلا من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دون الله ابتغاء عرض الدنيا، ففى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة، وقال أسباط عن السدى عن عبد خير قال غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بخير فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر بعراس الجالوت نزل به فقال له عبد الله يا رأس الجالوت هل فى عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها منى قال نعم:

---

(١) البقرة.

قال أخذتها بسبعمائة درهم، قال فإني أربحك سبعمائة أخرى قال فإني حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف، قال لا حاجة لي فيها قال والله لتشترينها أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه، قال أدن مني فدنا منه فقرأ في أذنه مما في التوراة «إنك لا تجد مملوكا من بني إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته» ﴿ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال نعم، قال فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين، وهذا السياق ذم اليهودى في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالحجة، فلهذا لا يؤمنون على ما فيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي لسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ﴾ جزاء على مخالفتهم الكتاب الذي بأيديهم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ ﴾ واختاروها ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه.

قال محمد تقي الدين: كل من ترك أمراً أمره الله به وهو قادر على فعله يعتبر كافراً بذلك الأمر، فإن الله سبحانه وتعالى أمر اليهود بأمور، أولها أن لا يقتل بعضهم بعضا، وثانيها: أن لا يخرج أحد أحداً منهم من داره، وثالثها: أن يفديه إذا وجده أسيرا، فارتكب اليهود اثنين من الممنوعات، أحدها: القتل، والثاني: الإخراج، وعملوا بواحد وهو الفداء فسماهم الله كافرين ببعض الكتاب أي بما لم يعملوا به، هذا صريح لا مفر منه للمتخاذلين، والله المستعان.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟

مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ البقرة: الآيات ١٠١ - ١٠٣

قولـه تعـالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ﴾ الآية..

المراد بالرسول هنا: نبينا محمد ﷺ، جاء اليهود بالحق وهو الإسلام والقرآن مصدقا لما معهم من التوراة، فنبذت طائفة من اليهود وهم أكثرهم في كتاب الله وهو القرآن الذي جاء به رسول الله ﷺ، وقيل المراد به التوراة.

قال محمد تقي الدين: ولا تنافي بينهما فإن من كذب محمدا ﷺ فقد نبذ التوراة والقرآن جميعا، لأن التوراة بشرت به وأخذ الله الميثاق على أهلها أن يؤمنوا به كما قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾، وقال تعالى في آل عمران أيضاً: ﴿ وَإِذَ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾، والنبذ هو الطرح وجعل الشيء وراء الظهر لإهماله والإعراض عنه، وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ لما لم ينفعهم علمهم صاروا كمن لا يعلم، أي

كالجاهلين، بل العالم الذي لا ينفعه علمه شر من الجاهل كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ الخطاب هنا أيضا لليهود، وقوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾ يعني أن اليهود نبذوا ما جاء في التوراة والقرآن من وجوب الإيمان بجميع رسل الله تعالى، وإتباع ما جاؤوا به من توحيد الله وطاعته، واتبعوا ما علمتهم الشياطين من السحر الذي نسبته إلى سليمان كذبا وزروا ! وسليمان رسول أمين برئ من السحر وما زعمته الشياطين لأتباعهم أن سليمان عليه السلام ما بلغ ذلك الملك العظيم والحكم على الجن والإنس إلا بالسحر، فجاء محمد رسول الله خاتم النبيين وإمامهم فبرأ أخاه سليمان مما نسبت له الشياطين واليهود من السحر الذي هو كفر، فإن اليهود بنسبتهم السحر إلى نبى الله سليمان لزمهم نسبة الكفر إليه، وحاشا سليمان من الكفر، بل الشياطين وأتباعهم هم الذين كفروا بسليمان وبمحمد رسول الله صلى الله عليهما وسلم، وكفروا بتعليمهم الناس السحر وحثهم على العمل به، والسحر هو ما يفعله الساحر من الحيل والتخييلات التي تحصل بسببها للمسحور ما يحصل من الخواطر الفاسدة الشبيهة بما يقع لمن يرى السراب فيظنه ماء، وما يظنه راكب السفينة أو الدابة مِن أن الجبال تسير، وذهب من عداهم إلى أن له حقيقة مؤثرة، قوله تعالى ﴿ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾.

قال محمد تقى الدين: لا أعلم آية في كتاب الله تعالى تحيرت في تفسيرها كما تحيرت في تفسير هذه الآية، لأن الناس من زمان الصحابة إلى يومنا هذا اختلفوا في تفسيرها، وأنا أستعين بالله وأختار القول الذي أراه صحيحاً مطابقاً للأصول، وما أبرئ نفسى من الخطأ، فأقول وبالله التوفيق: أكثر المفسرين على أن ما، موصولة، فمعناها أن الشياطين كانوا يعلمون الناس السحر ويعلمونهم ما أنزل على الملكين اللذين أنزلهما الله في بابل بأرض العراق يعلمان الناس السحر فتنة لهم، للتمييز بين من يؤمن بالله ويطيع الله ويلتزم حدوده، وبين من اتبع هواه وكفر بالله وعصى أمره، وكانا لا يعلمان أحداً حتى ينصحاه ويخبراه بالعاقبة الوخيمة لمن يتعلم السحر المشتمل على الكفر، فإذا أبى إلا التعلم والعمل به علماه، قالوا: ولا مانع أن يبتلى الله عباده بمثل هذا.

وقال آخرون منهم ابن جرير الطبري سيد المفسرين في زمانه: أن، ما، نافية أى لم ينزل الله السحر على الملكين وهما جبريل وميكائيل أو هما[1] ملكان آخران لأن الله حرم السحر وجعله كفرا وشرا وفسادا، فكيف ينزله الله على الملكين ليعلماه الناس، وقد أخبر أن الشياطين هم الذين كفروا، وهم الذين يعلمون الناس السحر، فكيف يفعل الملكان ما تفعله الشياطين، والله لطيف بعباده، وهذا القول هو الذي انشرحت له نفسى، واطمأن إليه قلبي، أما هاروت وماروت، فعلى القول الأول، هما اسمان للملكين، وعلى القول الذي اخترته وتبعت فيه ابن جرير، هما اسمان لرجلين من أهل بابل كانا يفعلان ذلك وكانا مع ذلك ينصحان الناس بعدم التعلم، فمن أبى علماه وأدليا حبله على غاربه وحملاه إثم ذلك، ومن هذا السحر ما يفرقون به بين الرجل وامرأته بإيقاع البغض بينهما، وهو فساد وشر لا يستطيع شياطين الإنس والجن أن يفرقوا أحدا بسحر إلا أن يشاء الله ذلك، وأخبرنا سبحانه وتعالى أن تعلم السحر يضر ولا ينفع، واختلف العلماء في حكم تعلمه، فقال الجمهور: أنه حرام أو كفر، وقال طائفة منهم الإمام الشافعي رحمه الله: من تعلمه بقصد تحذير الناس منه ومعرفة حقيقته نصحا لله ولعباده، فلا إثم عليه، ثم قال تعالى ﴿ **وَلَقَد عَلِمُوا** ﴾ أي: علم المتعلمون له، لمن اشتراه، أي استبدله بالتورع عنه واختاره معصية لله تعالى، ما له في الآخرة من خلاق، أي ما له نصيب في رحمة الله تعالى.

ثم اعلم أن هناك حكاية حكاها أكثر المفسرين تقشعر منها الجلود وقد رواها كثير منهم عن النبى ﷺ، وصحح الحافظ ابن كثير أنها ليست مرفوعة إلى النبى ﷺ، وإنما رواها عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار، وهو أخذها من الإسرائيليات، وملخصها أن الملائكة قالوا يا رب تصبر على بنى آدم فى انهماكهم في المعاصي وتمردهم وتؤخر عقابهم وتمهلهم، فقال الله تعالى: أنهم يؤمنون بى غيبا وأنتم تؤمنون بى مشاهدة، قد ركبت فيهم الشهوة وسلطت عليهم الشياطين، فلو أنكم ابتليتم بما ابتلوا به لوقعتم في المعصية، فأنكروا ذلك

---

(١) وقرئ على الملكين بكسر اللام، وهي قراءة شاذة ولكنها صحيحة السند، ولا إشكال في القول بالنفى على هذه القراءة، أما على قراءة الفتح فقد قيل أنهما كانا رجلين يشبهان الملائكة في صلاحهما (انظر حاشية الجمل على الجلالين) .

فقال الله تعالى اختاروا ملكين منكم من أفضلكم لأركب فيهما الشهوة وأسلط عليهما الشياطين، فاختاروا هاروت وماروت، فأوصاهما الله تعالى إذا نزلا إلى الأرض أن يحكما بين الناس بالعدل، وأن يتجنبا الشرك به سبحانه والمعاصي، فنزلا إلى الأرض وأخذا يحكمان بين الناس بالعدل حتى جاءتهما امرأة جميلة جداً تختصم من زوجها، قيل أنها فارسية اسمها بالفارسية، أناهيد، وبالنبطية، بيدخت ففتنتهما بجمالها، فحكما على زوجها جوراً وراوداها عن نفسها فامتنعت منهما إلا بشرط أن يقتلا ابن جارها، ويشربا خمرا، ويسجدا لصنمها، فلما رضيا بذلك مكنتهما من نفسها فزنيا بها، وشرطت عليهما شرطًا آخر وهو أن يعلماها الاسم الأعظم الذى به يصعدان إلى السماء فعلماها إياه فصعدت إلى السماء بعد ما تلته، فمسخت كوكبا وهو الزهرة أحد الكواكب السيارة.

وأعظم دليل على بطلان هذه الحكاية ما جاء في كتاب الله العزيز من عصمة الملائكة قال تعالى في سورة التحريم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وقال تعالى فى سورة الأنبياء رقم ١٩ وما بعده ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾، وقال تعالى في السورة نفسها رقم ٢٦، ٢٩ ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ ﴾ الآية.. لا يطعن في عصمتهم لأنه مبنى على مستحيل، كقوله تعالى في سورة الزمر رقم ٦٦ وما بعده ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فإن النبى ﷺ معصوم من الشرك والكبائر والصغائر، كما قال تعالى في سورة النجم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ وقال تعالى في سورة الحاقة رقم ٤٥ وما بعده ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ومحمد رسول الله ﷺ لا يتقول على الله أبداً، وهذه الأمور مبنية على فرض المستحيل،

ومن العجب إني طالعت أربعة من كبار التفاسير وهى ابن كثير، وابن جرير، والدر المنثور، والرازي، ولم أر أحداً منهم احتج بالقرآن على عصمة الملائكة، ولم أحبب أن أسوق الحكاية بطولها وذيولها الكثيرة، بل حكى بعضهم عن الملكين أنهما علما بعض الناس السحر حتى بعد توبتهما وتعذيب الله لهما بتعليقهما منكوسين بين السماء والأرض، وهذه في نظرى غفلة من المفسرين، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

خاتمة هذا البحث

أحببت أن أورد هنا نبذة من شرح باب ما جاء في السحر من كتاب التوحيد لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله تعالى، والشرح من تيسير العزيز الحميد للشيخ الإمام سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب لأنهما أجادا وأفادا فجزاهما الله عن الإسلام خيراً كثيراً وسأجعل المتن ممزوجاً بالشرح، واختصر ما أرى اختصاره مفيداً، وهذا نصه:

«باب ما جاء في السحر» السحر في اللغة هو ما خفى ولطف سببه ولهذا جاء في الحديث «إن من البيان لسحرا» وقال تعالى: ﴿ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أى أخفوا عنهم علمهم[١]، ولما كان السحر من أنواع الشرك إذ لا يأتى السحر بدونه، ولهذا جاء في الحديث «ومن سحر فقد أشرك»، أدخله المصنف في كتاب التوحيد ليبين ذلك تحذيراً منه كما ذكر غيره من أنواع الشرك، قال أبو محمد المقدسي في الكافي: السحر عزائم ورقى وعقد يؤثر في القلوب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه، ويأخذ أحد الزوجين عن صاحبه، قال الله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ يعنى السواحر اللاتى يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعانة منه، وقد زعم قوم من المعتزلة وغيرهم أن السحر تخييل لا حقيقة له، وهذا ليس بصحيح على إطلاقه، بل منه ما هو تخييل ومنه ما له حقيقة مما تقدم.

---

(١) لعل الصواب: عملهم: مصححه.

قال وقول الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا السحر عن متابعة الرسل والإيمان بالله ﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين بكتاب الله ومتابعة رسله ﴿ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ ﴾ من خلاق.

قال ابن عباس: من نصيب، قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم، أن الساحر لا خلاق له في الآخرة، وقال الحسن: ليس له دين، فدلت الآية على تحريم السحر، وهو كذلك، بل هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام كما قال تعالى ﴿ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [1]، وقد نص أصحاب أحمد على أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبد الرازق عن صفوان بن سليم، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئا من السحر قليلا كان أو كثيراً، كان آخر عهده من الله» وهذا مرسل، وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر وإن سمي سحراً فعلى سبيل المجاز، كتسمية القول البليغ والنميمة سحراً، ولكنه يكون حراما لمضرته يعزر من يفعله تعزيراً بليغاً، قال عمر بن الخطاب: الجبت، السحر، والطاغوت الشيطان، هذا الأثر، رواه ابن أبى هاشم وغيره، وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات: قالوا: يا رسول الله ما هن؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»، رواه البخاري ومسلم، فالموبقات المهلكات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات وفي الآخرة من العذاب.

بيان شيء من أنواع السحر

لما ذكر المصنف جاء في السحر أراد هنا أن يبين شيئاً من أنواعه لكثرة وقوعها وخفائها على الناس، حتى اعتقد كثير من الناس أن من صدرت عنه هذه الأمور فهو من الأولياء، وعدوها من كرامات الأولياء، وآل الأمر إلى أن عبد أصحابها ورجى منهم النفع والضر والحفظ والكلاءة والنصر أحياء وأمواتا، بل اعتقد كثير في أناس من هؤلاء أن لهم التصرف

---

(١) طه

التام المطلق في الملك، ولابد من ذكر فرقان يفرق به المؤمن بين ولى الله وبين عدو الله من ساحر وكاهن وعائف وزاجر ومتطير ونحوهم ممن قد يجرى على يده شيء من الخوارق، فاعلم أنه ليس كل من جرى على يده شيء من خوارق العادة يجب أن يكون وليا لله تعالى، لأن العادة تنخرق بفعل الساحر والمشعوذ وخبر المنجم والكاهن بشيء من الغيب، مما يخبره به الشياطين المسترقون للسمع، وفعل الشياطين بأناس ينتسبون إلى دين وصلاح ورياضة مخالفة للشريعة كأناس من الصوفية وكرهبان من النصارى ونحوهم فيطيرون بهم في الهواء ويمشون بهم على الماء ويأتون بالطعام والشراب والدراهم، وقد يكون ذلك بعزائم ورقى شيطانية وأدوية كالذين يدخلون النار بحجر الطلق ودهن... وقد يكون ذلك برؤيا صادقة فيها ما يستدل به على وقوع ما يقع، وهذه مشتركة بين ولى الله وعدوه، وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر، وقد يكون ذلك بنوع طيرة يجدها الإنسان في نفسه فتوافق القدر وتقع كما أخبر، وقد يكون لعلم الرمل والضرب بالحصى، وقد يكون ذلك أشد وطأ، والأحوال الشيطانية كثيرة، وقد فرق الله بين أوليائه وأعدائه في كتابه، فاعتصم به وحده لا إله إلا هو فإنه لا يضل من اعتصم به ولا يشقى، قال تعالى ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ** ﴾ [1]، فذكر تعالى أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون هم المؤمنون المتقون، ولم يشترط أن يجرى على أيديهم شيء من خوارق العادة، تدل على أن الشخص قد يكون وليا لله وإن لم يجر على يديه شيء من الخوارق إذا كان مؤمنا تقيا، وقال تعالى ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [2] فأولياء الله المحبوبون عند الله هم المتبعون للرسول ﷺ باطنا وظاهراً، ومن كان بخلاف هذا فليس بمؤمن فضلا عن أن يكون وليا لله تعالى، وإنما أحبهم الله تعالى لأنهم والوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى وسخطوا على ما يسخط وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهي وأعطوا من يحب أن يعطى ومنعوا من يحب أن يمنع، وأصل الولاية المحبة والقرب،

---

(١) يونس.

(٢) آل عمران

وأصل العداوة البغض والبعد، وبالجملة أولياؤه أحباؤه المتقربون إليه بالفرائض والنوافل وترك المحارم، الموحدون له الذين لا يشركون بالله شيئاً، ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه فإنه أتى فيه بالحق المبين.

فصل في أنواع أخرى من هذا القبيل

روى أحمد بسند جيد عن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال:

«أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» قال عوف: العيافة، زجر الطير، والطرق: الخط بخط في الأرض، والجبت قال الحسن: رنة الشيطان، ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه قال أبو السعادات: العيافة، زجر الطير والتفاؤل بأسمائهما وأصواتها وممرها وهو من عادة العرب كثيراً وهو كثير في أشعارهم، والطرق الخط يخط في الأرض، هكذا فسره عوف وهو تفسر صحيح، قال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذى يفعله النساء، وقلت: أيا ما كان فهو الجبت.

قال محمد تقى الدين مؤلف هذا الكتاب: ومنه ما يسمى في هذا الزمان بعلم الرمل، وذلك أن الكاهن يضع رملاً أمامه وينكت في ذلك الرمل بأصبعه نكتا كل نكتة فيها كحفرة صغيرة ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئا من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم، فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين فبقى من كل عمود نقطة واحدة فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع نقط ويسمى هذا – الطريق، ثم يعيد العمل فيبقى مثلا من كل عمود نقطتان أو حفرتان فيتألف منهما عمود فيه ثمان نقط أو حفر ويسمى هذا الشكل: الجماعة ويستمر هكذا، إلى أن يخرج ستة عشر عموداً على طريقة الزوج والفرد ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعانى، فهناك الطريق والجماعة كما تقدم، وهناك النصرة الداخلة والنصرة الخارجة، والأحيان الأنكيس والأحيان الفارح وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب القاموس وكتب صورها فراجعه، فإذا فرضنا أن رجلاً أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي يسمى الرمال، وقال له عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره ؟ أو يقول عندي حاجة أخبرني بها؟ فينكت

في الرمل فيخرج له في أول مرة: الطريق مثلا فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك لأن الطريق يدل على ذلك أصحيح ذلك؟ فيقول السائل نعم، فيأخذ الكاهن من السائل علما تفصيلياً بعد أن أعطاه علماً إجمالياً ثم يخط فتخرج له الجماعة فيقول أنت حريص على الاجتماع به ؟ فيقول: أي والله يا سيدي هو ابني غاب عنى منذ أربع سنين، ولم أسمع له خبراً، فيقول أبشر ستجتمع به ثم يخط فيخرج له الأحيان الأنكيس، فيقول أن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار، وهكذا لا يزال الكاهن يعطى السائل الغبى أموراً إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان، والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ جميع التفاصيل منه، ثم يعيدها عليه يسردها سرداً، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذى أخبر الكاهن بكل شيء وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به ازداد اعتقادا فى صحة كهانته، وإن أخطأ غفل عن خطئه، فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما يسمى بخط الرمل، وأزيدك بيانا فأقول: أن رمالاً كبيرا كان يستخرج السرقات بزعمهم لقيته فقلت له: كم تأخذ من كل سائل فقال: آخذ ربع ريال فقلت له أن أجبتنى عما سألتك عنه أعطيك بل ربع ريال ريالاً كاملاً ؟ فقال قل، فخبأت له أربعة رؤوس أقلام من نحاس أحمر فأخذ يخط فقال لي: أولاً أن هذا الشيء الذي تسأل عنه أحمر لأنه ظهر لى شكل الحمرة أهو كذلك ؟ فقلت له أنا لا أخبرك بشيء فينقلب المستخبر بالكسر مستخبرا بفتح الباء، أجمع أشكالا كلها واستخرج منها الخبر وأخبرني به وخذ ريالاً، فقال لى: أنت ليس لك قصد حسن ولا نية طيبة، وهذا الأمر يتوقف على حسن النية، فقلت له: حسن النية هنا لا يؤثر شيئاً وكذلك سوء النية إن كنت صادقاً فيما تدعيه من استخراج المغيبات فأخبرني بما سألتك عنه ؟ ثم خط في الرمل وقال لي هذا شيء دخل النار وخرج منها هل هذا صحيح؟ فقلت: أنا سائل لا مخبر، واستمر معى على هذا الشكل من الحوار كلما أراد أن يستخرج منى علما تفصيليا امتنعت من ذلك لأننى أعرف سر حرفته، فافتضح وعجز وأذكر حكاية أخرى تزيد الأمر وضوحاً، كنت أنا ورفيقى وأخى الشيخ محمد عبد الرازق حمزة في ضيافة العالم السلفي النبيل الشيخ

عبد الرحمن بركات عمدة مدينة ميت غمر، في مصر، وكنا قد تعشينا وجلسنا نمص قصب السكر ونتحدث، فطرق الباب رجل ففتح له البواب وقال من أنت ؟ فقال: أنا حكيم مغربى عالم بالروحانيات أريد زيارة سعادة العمدة فأذن له في الدخول، فلما جاء سلم على العمدة وجلس فأمر له بالعشاء وتعشى ثم قال له الشيخ محمد عبد الرازق حمزة رحمة الله عليه ها هنا مغربى يشير إلى فأخبره ببلدك في المغرب، فقال عفوا أنا لست مغربيا في الحقيقة وإنما أستاذى الذي علمنى الحكمة والعلم الروحانى كان مغربياً فانتسبت إلى المغرب من هذا الوجه، فقال له تعرف خط الرمل؟ فقال طبعا أعرفه، فقال أريد أن أخبأ لك خبأ فإن أطلعت عليه وأخبرتنى به أعطيتك حلواناً كبيراً فقال أن السماء متغيمة وخط الرمل ينبغى أن يكون في الصحو، فقال أنت عالم روحانى وشيخك مغربى فلا يضرك عدم صحو السماء، فقال طيب اسأل عما بدا لك، فقال: سأكتب سؤالى واختر أنت واحدا من الحاضرين تثق به وأنا أضعه عنده، ثم اشتغل أنت بخط الرمل حتى تعرف ما خبأت لك وأخبرنا به، ثم نخرج السؤال المكتوب، فإن كان جوابك مطابقاً له ظهر صدقك وثبت لك الحلوان، وإن ظهر خلاف ذلك لم يثبت لك شيء مما تدعيه، فأخذ يخط في ورقة بيضاء يضع فيها نقطا على شكل أعمدة كما تقدم، واشتغل فيها طويلاً ثم قال في النتيجة إنك تسأل عن شخص أسمر طويل غاب عنك منذ مدة وستجتمع به فى زمان قريب، فقال له خذ السؤال المكتوب واقرأه، وكان قد اختار فضيلة الشيخ عبد الرحمن، فأخذه منه فقرأه فوجد فيه قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فضحك الحاضرون وغضب الزائر وسب الشيخ محمد حمزة رحمة الله عليه وحلف أن لا يبقى في مجلس يوجد فيه، فانصرف يجر أذيال الخيبة، وليس مقصودي بهاتين الحكايتين وما ذكرت معهما أن الكاهن الحقيقى لا يطلع على شيء أبداً من المغيبات، فقد ثبت في الصحيحين «أن النبى ﷺ خبأ لابن صياد في نفسه عليه الصلاة والسلام سورة الدخان ثم سأل النبى ﷺ ابن صياد بقوله قد خبأت لك خبأ فما هو فقال هو الدخ يعنى الدخان فقال له النبى ﷺ اخسأ فلن تعدو قدرك، يعنى إنما أنت كاهن، وقال ابن صياد للنبى ﷺ يأتينى صادق وكاذب وهذا شأن الكهنة، فإن الشياطين تخبرهم بالخبر الصحيح وتزويد معه مائة كذبة»، أما أمثال الكاهنين

بل الرمالين المتقدم ذكرهما فإنهما كان محتالين على أكل أموال المغفلين بالباطل، وما أكثر أمثالها في هذا الزمان في البلاد الإسلامية التي نكبت بأنواع الدجاجلة لما أعرض أهلها عن كتاب الله وسنة رسوله، وقال الطيبى في شرح الحديث المذكور آنفا: من، أما ابتدائية أو تبعيضية فعلى الأول يكون المعنى الطيرة ناشئة من السحر، وعلى الثاني المعنى الطيرة من جملة السحر والكهانة أو من جملة عبادة غير الله أي الشرك، يؤيده قوله في الحديث الآتي الطيرة شرك.

قال: وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». رواه أبو داود بإسناد صحيح، قال شيخ الإسلام: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقد قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾ [1] نعلم أن تأثير النجوم باطل محرم وكذا العمل بمقتضاه كالتقرب إليها بتقريب القرابين لها كفر، قاله ابن رجب وقال للنسائي من حديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه». هذا الحديث ذكره المصنف من حديث أبى هريرة وعزاه النسائي ولم يبين هل هو موقوف أو مرفوع، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وذكر المصنف عن الذهبي أنه قال لا يصح، قوله ومن تعلق شيئاً وكل إليه، أى من تعلق قلبه شيئاً بحيث يتوكل عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء، فإن تعلق العبد على ربه وإلهه وسيده ومولاه ورب كل شيء ومليكه وكله إليه فكفاه ووقاه وحفظه وتولاه، ونعم المولى ونعم النصير، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [2] ومن تعلق على السحر والشياطين وكله الله إليهم فأهلكوه في الدنيا والآخرة، وبالجملة من توكل على غير الله كائناً من كان وكل إليه، وأتاه الشر في الدنيا والآخرة من جهته مقابلة له بنقيض قصده، وهذه سنة الله في عباده التى لا تبدل، وعادته التي لا تحول أن من اطمأن إلى غيره أو وثق بسواه أو ركن إلى مخلوق يدبره أجرى الله تعالى بسببه أو من جهته خلاف ما علق به آماله وهذا أمر معلوم بالنص والعيان، ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق بعين البصيرة النافذة،

---

(١) طه.

(٢) الزمر.

رأى ذلك عياناً وفائدة هذه الجملة بعدما قبلها الإشارة إلى أن الساحر متعلق على غير الله فإنه متعلق على الشياطين.

شرح قول النبى ﷺ (إن من البيان لسحرا)

البيان: البلاغة والفصاحة قال صعصعة بن صوحان صدق نبى الله، أما قوله «إن من البيان لسحراً » فالرجل يكون عليه الحق وهو الحن بالحجج من صاحب الحق فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق، وقال ابن عبد البر تأولته طائفة على الذم لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح لأن الله تعالى مدح البيان، قال: وقد قال عمر بن عبد العزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله فقال هذا والله السحر الحلال.

قال صاحب التيسير قلت: الأول أصح، وهو أنه خرج مخرج الذم لبعض البيان لا كله وهو الذي فيه تصويب الباطل وتحسينه حتى يتوهم السامع أنه حق، ويكون فيه بلاغة زائدة عن الحد، أو قوة في الخصومة حتى يسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق، ونحو ذلك، فسماه سحراً لأنه يستميل القلوب كالسحر، ولهذا قال ﷺ لما جاءه رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً».

قال محمد تقى الدين: الجمع بين القولين ممكن فيقال إذا كان تأثير البيان يكشف حقا خفيا أو يبين ظلما قد لبسه الظالم بالحق أو يسكن غضب سلطان جائر أو يثير في الناس الرغبة لفعل الخير، أو الذم على فعل الشر فهو من السحر الحلال وهو محمود يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في شعر أحد أصحابه وهو عبد الله بن رواحة يوم فتح مكة.

خلوا بنى الكفار عن سبيله   اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله   ويذهل الخليل عن خليله

فقال بعض الصحابة للشاعر أفى حرم الله وبين يدي رسوله تقول هذا ؟ فقال النبى ﷺ «دعه فإنها أسرع فيهم من النبل» ويدل على ذلك أيضا قول عمر بن عبد العزيز المتقدم ذكره هذا والله السحر الحلال، وإن كان البيان يثير عكس ذلك في السامعين فهو مذموم وبالله التوفيق.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ البقرة: آية ١١١ و ١١٢

قال (ك): يبين الله تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿ **نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أيام معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى فى ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال ﴿ **تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ** ﴾ وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس، ثم قال تعالى ﴿ **قُلْ** ﴾ أي يا محمد ﴿ **هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ** ﴾ قال أبو العالية ومجاهد والسدي والربيع ابن أنس: حجتكم، وقال قتادة: بينتكم على ذلك ﴿ **إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ أى فيما تدعونه، قال تعالى: ﴿ **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ **فَإنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾، الآية.

وقال أبو العالية والربيع: ﴿ **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ** ﴾ يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير ﴿ **بَلَى مَنْ أَسْلَمَ** ﴾ أخلص ﴿ **وَجْهَهُ** ﴾ قال فيه: ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ أى اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون خالصا لله وحده، والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة، فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام، فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لا يتقبل منهم حتى يكونوا في ذلك متبعين للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم

قال الله تعالى ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ (٣) وروي عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها في الرهبان كما سيأتى، وأما إن كان العمل موافقا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٤)، وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٥) ولهذا قال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٦) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ وقوله ﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ فيما يستقبلونه ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير ﴿ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى في الآخرة ﴿ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أى لا يحزنون للموت.

قال تقى الدين: قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ﴾ يعنى سبحانه أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهودياً، والنصارى قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانياً، وقد أتبعهم بعض هذه الأمة كما أخبر النبي ﷺ بذلك في الصحيح بقوله «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر

(١) الفرقان.
(٢) النور.
(٣) الغاشية.
(٤) النساء.
(٥) الماعون.
(٦) الكهف.

ضب لدخلتموه، قيل من يا رسول الله اليهود والنصارى وفارس ؟ قال ومن القوم إلا أولئك ». وقد ادعى قوم من هذه الأمة في آخر الأزمنة أن شيخهم ضمن لهم الجنة بلا حساب ولا عقاب، وضمن لمن لا يصدقهم فيما نسبوا إلى شيخهم أن يموتوا على الكفر، وأن يدخلوا النار خالدين فيها أبدا، فهؤلاء أشبهوا اليهود والنصارى واتبعوا سننهم، بل قول اليهود أقل ضلالا من قولهم لأن اليهود قالوا ﴿ **لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً** ﴾ وهؤلاء يقولون لن تمسنا النار البتة، انظر كتاب – الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية لمصنف هذا الكتاب –، وقال تعالى في الرد على اليهود والنصاري ومن سلك سبيلهم وحجر رحمة الله بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير في سورة النساء ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً** ﴾ فهاتان الآيتان مشابهتان في المعنى لآيتى البقرة، والإسلام الموجه لله معناه: أن لا يتوجه الإنسان برهبة ولا رغبة إلا لله وحده لا شريك له، ولا يطلب المدد الحسى كالمعيشة، أو المعنوى كتنوير القلب وانشراح الصدر بالإسلام إلا من الله تعالى، ومن طلب شيئا من ذلك من غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر، لأن الأرزاق الحسية والمعنوية كلها بيد الله.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ البقرة: آية ١١٦ و ١١٧

اشتملت هذه الآية الكريمة التى تليها على الرد على النصارى، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم أن لله ولدا فقال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَهُ** ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا ﴿ **بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ أى ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات

والأرض، ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له، فكيف يكون له ولد منهم. والولد إنما يكون متولدا من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾. وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (١). وقال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (٢) فقرر الله تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء عنده مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية بسنده إلى ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «قال الله كذبنى ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمنى ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياى فقوله أن لى ولداً فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولدا»، تفرد به البخاري من هذا الوجه.

وفي الصحيحين عن رسوله الله ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، أنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وقوله تعالى: ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس ﴿ قَانِتُونَ ﴾ مصلون، وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾. مقرون له بالعبودية وقال مجاهد ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ مطيعون قال مجاهد طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد، وهو اختيار ابن جرير لجميع الأقوال كلها كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق.

(١) مريم.

(٢) الإخلاص.

(٣) الرعد.

قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث: بدعة، و **قال (ج)** ﴿ **بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ مبدعهما، وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم، والمسمع إلى السميع ومعنى المبدع المنشيء والمحدث ما لا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين مبتدعا لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره. **قال (ج)** فمعنى الكلام: سبحان الله إن يكن له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض يشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة وهو بارؤها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه، وهذا إعلام من الله لعباده، أن من يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوته، وأخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ يبين ذلك كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن، أى مرة واحدة فيكون، أى فيوجد على وفق ما أراد، كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ** ﴾ [1] ونبه بذلك أيضا على أنه خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾

قال محمد تقى الدين: لم يبق لى ما أقوله بعدما حقق الإمامان **(ك)** و **(ج)** تفسير هاتين الآيتين، إلا أنه كان ينبغى أن تدرج في القسم الثاني من هذا الكتاب، وهو توحيد الربوبية، لأنهما عليه أدل، وإليه أدنى ولكن هذين النوعين من التوحيد متلازمان لتحقيق الإيمان بالله، فإن توحيد العبادة يستلزم توحيد الربوبية، لأن من وحد الله في عبادته، قد علم وأيقن وآمن أنه لا رب له ولا خالق ولا رازق ولا محي ولا مميت ولا حافظ لوجوده ولا متصرف فيه إلا واحد، وهو الله تعالى، أما توحيد الربوبية فإنه فلا ينفع إلا إذا كان معه توحيد العبادة، ولكن لما كان النصارى قد اتخذوا إدعاء بنوة عيسى لله تعالى ذريعة لعبادته واشراكه مع الله تعالى، كانت هناك مناسبة لإدخال الآيتين في قسم توحيد العبادة، وهكذا جميع

(١) القمر.

المشركين حين يعبدون غير الله تعالى يزعمون أنهم ما عبدوا ذلك المعبود إلا لقربه من الله تعالى وعلو مكانته عنده، كما قال تعالى في أول سورة الزمر: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ فجعلهم الله تعالى كاذبين وكافرين أشد الكفر بقولهم ذلك.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ البقرة: آية ١٢٤

قال (ك) يقول تعالى منبها على شرف إبراهيم خليله عليه السلام، وأن الله جعل إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي، ولهذا قال ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ﴾ أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم، وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم، فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهى ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ أي قام بهن كلهن كما قال تعالى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [1] أي وفي جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه، وقال تعالى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [2]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [3].

---

(١) النجم

(٢) النحل.

(٣) آل عمران.

قال محمد تقى الدين: والكلمات العشر التى امتحن الله بها إبراهيم، فرائض فرضها عليه فوفى بها وعمل بها وأتمها، وقد اختلف المفسرون في تعيينها اختلافاً كثيراً، ولم يثبت عن النبى ﷺ في تعيينها شيء كما قاله (ج) فنفوض أمرها إلى الله تعالى، إذ لا سبيل إلى معرفة أعيانها إلا بالرواية عن النبى ﷺ كأمره ببناء البيت مع ابنه إسماعيل وأمره بتطهيره، وأمره بذبح ابنه، وقد فعل كلما أمره ربه به على أحسن وجه، ولذلك جعله الله إماما لأهل الحنيفية يقتدى به من بعده والله أعلم، **قال (ك)** وقوله ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته، فأجيب إلى ذلك، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون، وأنه لا ينالهم عهد الله، ولا يكونوا أئمة يقتدى بهم، والدليل أنه أجيب إلى طلبه، قوله تعالى في سورة العنكبوت: الآية ٢٧ ﴿ **وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ** ﴾ فكل نبى أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم، ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه، ثم **قال (ك)** بعد كلام طويل للمفسرين في قوله تعالى ﴿ **لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ ما نصه: فهذه أقوال مفسرى السلف في هذه الآية، وإن كانت ظاهرة الخبر أنه لا ينال عهد الله بالإمامة ظالما، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره، والله أعلم. وقال ابن خويز منداد المالكى: الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتيا ولا شاهدا ولا روايا.

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ البقرة: آية ١٢٨

قال (ج) يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، لا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك.

قال محمد تقى الدين: أن إبراهيم وإسماعيل كانا مسلمين نبيين رسولين ولكنهما كما **قال (ج)** سألا الله أن يجعل قلوبهما ونفوسهما على الدوام مطيعة مخلصة موحدة له

في عبادته وفي طاعته، ودعاء الانبياء في هذا تعبد وخضوع، لأنهم معصومين، ثم عطف عليه ﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ** ﴾. نقل (**ك**) عن السدي أن المراد بهذه الأمة: العرب، وخالفه (**ج**) فقال أن هذا الدعاء يعم العرب وبنى إسرائيل، لقوله تعالى في سورة الأعراف ١٥٩ ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ** ﴾ وأجاب (**ك**) بأن هذا لا يتنافى مع تفسير السدي ولا سيما والكلام الآن في العرب، ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾، وهذا الرسول بلا شك هو محمد ﷺ، وهو من العرب، وكلا الوجهين صحيح، فكل من اتبع ملة إبراهيم من العرب والإسرائيليين داخل في هذا الدعاء.

الباب الحادى عشر

قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ البقرة: آية ١٣٠-١٣٤

قال (ك) يقول تبارك وتعالى رادا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى، فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبرأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه، فقال ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ**

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)، وقال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنة إلى أن اتخذه الله خليلا، وهو في الآخرة من الصالحين، السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طرق الضلالة والغى، فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أى ظلم أكبر من هذا ؟ قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) قال أبو العالية وقتادة، نزلت هذه الآية في اليهود أحدثوا طريقا ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول، قول الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى أمره الله تعالى بالإخلاص له وبالاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدراً، وقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ أى وصى بهذه الملة وهى الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهى قوله: أسلمت لرب العالمين، لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبنائهم بها من بعدهم، كقوله تعالى

(١) الأنعام.

(٢) الزخرف.

(٣) التوبة.

(٤) النحل.

(٥) لقمان.

(٦) آل عمران.

﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ [١] وقوله ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أى أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالبا على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته، بأن من قصد الخير وفق له ويسير عليه، ومن نوى صالحا ثبت عليه، وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح: «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وأن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء في بعض روايات هذا الحديث: «فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس » وقد قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [٢] قوله تعالى ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

يقول تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل، وعلى الكفار من بني إسرائيل، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له فقال لهم: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ ﴾ وهذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمى العم أبا، نقله القرطبي، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أبا، وحجب به الأخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاووس وعطاء، وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: أنه يقاسم الأخوة، وحكى ذلك

---

(١) الزخرف.

(٢) الليل.

عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره صاحبا أبى حنيفة القاضى أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، وقوله ﴿ **إِلَـٰهًا وَاحِدًا** ﴾ أى نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئا غيره ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى ﴿ **وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [(١)] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة، وإن تنوعت شرائعهم، واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ [(٢)] والآيات في هذا كثيرة، والأحاديث: فمنها قوله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد». قال ابن منظور في لسان العرب: معنى أولاد العلات أنهم لأمهات مختلفة ودينهم واحد، كذا في التهذيب، وفي النهاية لابن الأثير، أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

قال تقى الدين الهلالي: شبه النبى ﷺ الشرائع بالأمهات والدين بالأب، فالدين هو توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، والإيمان به وبجميع رسله وأنبيائه من آدم إلى محمد ﷺ، وإقامة العدل والإحسان، فهذه أصول الدين لا يختلف فيها الأنبياء والرسل، أما الشرائع والأحكام، فإن الشرائع مختلفة، لأن أزمنتهم مختلفة، وأقوال أهلها مختلفة، وقد شرع الله لكل واحد منهم شريعة تناسب زمانه وقومه، ثم ختم الرسل والأنبياء والشرائع ببعثه محمد ﷺ، فنسخت شريعته كل الشرائع المتقدمة لأنها صالحة لكل زمان ومكان، ولكل قوم، وهي خالدة باقية إلى يوم القيامة.

قال المؤلف: قد نقلت في تفسير هذه الآيات ما جعلها واضحة للقراء وأزيد شيئا من البيان تنبيها للمعاصرين فأقول: إن المسلمين قد أهملوا توحيد الله في أكثر أوطانهم، وانغمسوا في الشرك الأكبر، واستوى في ذلك عالمهم وجاهلهم إلا قليلا ممن أخذ الله بيده، فلو أن عالما من علماء المسلمين نشأ في بلد إسلامى، وله أولاد علمهم القرآن، وعلمهم كتب العلوم الإسلامية على ما عليه العامة ممن يسمون بالعلماء، وعاش معهم زمنا طويلا يؤدون العبادات المفروضة ثم حضرته الوفاة، فجمع أولاده، وقال لهم: ما تعبدون من بعد

(١) آل عمران.

(٢) الانبياء.

موتى ؟ لقال الناس أنه أصيب بجنون وأنه يهذي هذيان المحموم، لأنهم يزعمون أن من صلى وصام وحج وقرأ القرآن وأحل الحلال وحرم الحرام. وأن عبد غير الله تعالى بالدعاء والاستغاثة والاستعاذة والتوكل والخوف والرجاء والحلف والذبح والنذر، وجعل الحكم لغير الله وما أشبه ذلك مما تقدم ذكره، لا يضره ذلك شيئاً وهو مسلم مؤمن كامل الإيمان، ولا يخافون عليه ضلالا ولا زيغا، وهذا إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، يوصى بنيه بتوحيد الله تعالى، وهذا يعقوب حفيده نبى الله تعالى لم يكفه إجمال الوصية بالإسلام، بل يؤكد ذلك بقوله ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي** ﴾ وذلك عندما حضره الموت، فلم يقولوا له نحن أبناؤك ولم نزل نعبد الله معك وحده لا شريك له فكيف تسألنا هذا السؤال ؟ بل أجابوه جوابا واضحا بقولهم ﴿ **نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا** ﴾ لا نشرك به شيئا ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ بقلوبنا وألسنتنا لا نتوجه لغيره أبدا، وبهذا اطمأنت نفس يعقوب عليه السلام على أولاده، وكذلك قول إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة إبراهيم ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ والجاهلون في هذا الزمان يقولون: نحن نقول لا إله إلا الله ونصلى ونصوم فكيف تخاف الشرك علينا وعلى أولادنا، وهذا هو الجهل المركب من جهلين، أحدهما: أنهم لا يعرفون حقيقة الإسلام، والثاني أنهم يجهلون أنهم لا يعلمون هذه الحقيقة فهم كما قال شاعر على لسان حمار الطبيب توما الذي يضرب به المثل في الجهل بالطب.

قال حمار الحكيم توما	**لو أنصفوني ما كنت أركب**
لأن جهلى غدا بسيطا	**وراكبي جهله مركب**

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ

ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ البقرة: آية من ١٣٥ - ١٣٩

قال محمد بن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عباس قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل الله عز وجل: ﴿ **وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ** ﴾. وقوله ﴿ **قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية، بل «نتبع ملة إبراهيم حنيفا» أي مستقيما، قاله محمد ابن كعب القرظي، وعيسى بن جارية، وقاله خصيف عن مجاهد ملخصاً.

قال محمد تقي الدين: الحنيف هو الذي يؤمن بجميع الأنبياء والرسل ويوحد الله تعالى ويتبرأ من الشرك والمشركين ويعاديهم في الله ويحاربهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا يدل على ذلك ما وصف الله به إبراهيم والذين معه في سورة الممتحنة، وفي خصامه مع أبيه في سورة مريم، وفي سورة الأنعام ﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [1] أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرق بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿ **وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**

---

(١) الأنعام.

حَقًّا ﴾ [١] الآية وقال البخاري بسنده إلى أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبونهم» ﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية، قال أبو العالية والربيع وقتادة الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا، ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط.

قال محمد تقي الدين: البسط، يلفظ به في اللغة العبرانية – شفيط – وهو غصن الشجرة، وسمى أبناء يعقوب الاثنا عشر أسباطا لأنهم أبناء أب واحد كأغصان الشجرة.

قال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط في بنى إسرائيل كالقبائل في بنى إسماعيل، ثم **قال (ك)** بعد نقول متعددة بمعنى ما تقدم، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بنى إسرائيل، وما أنزل الله من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم ﴿ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [٢] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ [٣] ثم **قال (ك)** عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة، إدريس ونوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمد ﷺ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن.

قال محمد تقي الدين: مقتضاه أن المسلمين لا يأخذون دينهم من الكتب السابقة، وإنما يأخذونه من القرآن والسنة، لأن القرآن ناسخ لما تقدم قبله من الكتب، ولأن الله تعالى جعل لهم الأسوة والقدوة في أفضل النبيين وإمام المرسلين محمد ﷺ، فلا حاجة بهم إلا غيره أ هـ.

يقول تعالى ﴿ فَإِنْ آمَنُواْ ﴾ يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ ﴾ يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله، ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فَقَدِ اهْتَدَواْ ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ﴿ وَّإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة

---

(١) النساء.

(٢) المائدة.

(٣) الأعراف.

عليهم ﴿ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى فسينصرك عليهم ويظفرك بهم، ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾. قال ابن عباس وغيره من السلف: صبغة الله: دين الله، وانتصاب صبغة الله، أما على الإغراء كقوله ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ ﴾ ألزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلا من قوله ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال (ش) وقد ذكر المفسرون ان أصل ذلك، أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم في الماء وهو الذي يسمونه المعمودية، ويجعلون ذلك تطهيرا لهم، فإذا فعلوا ذلك قالوا الآن صار نصرانياً حقا، فرد الله عليه بقوله: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾ أي الإسلام وسماه صبغة، استعارة، ومنه قول بعض شعراء همدان:

وكل أناس لهم صبغة ... وصبغة همدان خير الصبغ

صبغنا على ذاك أولادنا ... فأكرم بصبغتنا في الصبغ

قال (ك) في قوله تعالى ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ ﴾ أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره ﴿ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ المتصرف فينا وفيكم، المستحق لإخلاص الألوهية له وحده لا شريك له ﴿ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي نحن براء منكم ومما تعبدون.

الباب الثالث عشر

قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ البقرة: آية ١٥١ و ١٥٢

قال (ك) يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثه الرسول محمداً ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء سفهاء لا يعقلون، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس

علما، وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا، وأصدقهم لهجة وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ (١) الآية، وفي من لم يعرف قدر هذه النعمة قال تعالى: ﴿ ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ (٢) قال ابن عباس: يعنى بنعمة الله، محمدا ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة، ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ قال مجاهد في قوله ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ ﴾ يقول كما فعلت فاذكرونى، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: «يا رب كيف أشكرك» ؟ قال له ربه: «تذكرنى ولا تنسانى، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى». قال ابن أبى حاتم بسنده إلى مكحول الازدي قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكرون الله ؟ وقد قال تعالى: ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ قال: إذا ذكر الله هذا، ذكره الله بلعنته حتى يسكت، وفي الحديث الصحيح يقول الله تعالى: «من ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسى، ومن ذكرنى في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسى، وإن ذكرتنى في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة أو قال في ملأ خير منه، وأن دنوت منى شبراً، دنوت منك ذراعا، وأن دنوت منى ذراعا، دنوت منك باعا، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة»، صحيح الإسناد، أخرجه البخاري، وقوله ﴿ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ أمر الله بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير، فقال: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾.

قال محمد تقى الدين: محل الشاهد في إيراد الآيتين، أن من عبد غير الله تعالى من قبور الصالحين وغيرها، لم يشكر الله، لأنه بدل نعمة الله وهى القرآن والرسول كفرا، وأحل نفسه وقومه دار البوار أ هـ.

---

(١) آل عمران.

(٢) إبراهيم.

الباب الرابع عشر

قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة: آية ١٦٣ - ١٦٧

قال (ك): يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية وأنه لا شريك له ولا عديل له، بل هو الله الواحد الفرد الصمد، الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، وقد تقدم تفسير هـذين الاسمـين في أول الفاتحة، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال: اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين ﴿ **وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ** ﴾ و ﴿ **الم اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾، ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيها، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وجدانيته بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها، وهذه في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع، واختلاف الليل والنهار، هذا يجيء

ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة، كما قال تعالى: ﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [1] تارة يطول هذا ويقصر هذا، وتارة يأخذ هذا من هذا، ثم يتعارضان كما قال تعالى ﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** ﴾ أي يزيد في هذا من هذا، ومن هذا في هذا ﴿ **وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ** ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب، لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم، ونقل هذا إلى أولئك، وما عند أولئك إلى هؤلاء، ﴿ **وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ كما قال تعالى: ﴿ **وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ** ﴾ [2] إلى قوله: ﴿ **وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ** ﴾. ﴿ **وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾ أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغيرها وكبيرها، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك، كما قال تعالى ﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ [3] ﴿ **وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ** ﴾ أي فتارة تأتى بالرحمة، وتارة تأتى بالعذاب، وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب، وتارة تسوقه، وتارة تجمعه، وتارة تفرقة، وتارة تصرفه، ثم تارة تأتى من الجنوب وهي الشامية، وتارة تأتى من ناحية اليمين، وتارة صبا، وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة، وتارة دبورا وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة، وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتبا كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها، وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم، ﴿ **وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن، كما يصرفه تعالى ﴿ **لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى.

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ**

---

(١) ياسين.

(٢) ياسين.

(٣) هود.

هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) أ هـ.

قال محمد تقى الدين: قوله تعالى: ﴿ وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ حجة في توحيد العبادة على كل من يؤمن بالله ربا، فلا يعبد غيره ولا يتوجه إلى غيره بأي وجه، وقوله تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ دليل على ذلك، لأن الذى خلق السموات والأرض وما ذكر بعدها، وهو الذى يصرفه كيف يشاء، وهو الذى يستحق العبادة وحده، فتوحيد الربوبية دليل على توحيد الإلهية عند كل عاقل رشيد ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ثم قال (ك) في تفسير الآية الثانية: يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا وما لهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا له أندادا، أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إلا هو ولا ضد له ولا ند له ولا شريك معه، وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال: قلت يا رسول الله: «أي الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجؤون في جميع أمورهم إليه، ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال: ﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ﴾. قال بعضهم: تقدير الكلام: لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعا، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت غلبته وقهره وسلطانه ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴾، كما قال: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ (٢)، يقول لو يعلمون ما يعاينونه هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم، لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرئ المتبوعين من التابعين، فقال: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا فتقول الملائكة ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (٣) ويقولون ﴿ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ

(١) آل عمران.
(٢) الفجر.
(٣) القصص.

الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [(١)] والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [(٢)] وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [(٣)] وقال الخليل لقومه ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [(٤)] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلاَلَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [(٥)] وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [(٦)] وقوله ﴿ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص، ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا، وقال عطاء عن ابن عباس، وتقطعت بهم الأسباب، قال: المودة، وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح، وقوله ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا نلتفت إليهم،

---

(١) سبأ.
(٢) الأحقاف.
(٣) مريم.
(٤) العنكبوت.
(٥) سبأ.
(٦) إبراهيم.

بل نوحد الله وحده بالعبادة وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأنهم لكاذبون، كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك، ولهذا قال: ﴿ **كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى تذهب وتضمحل كما قال تعالى: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ** ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** (﴾ (٣)، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ** ﴾.

يقول مؤلفه **محمد تقى الدين** عفا الله عنه في هذا الكلام فوائد:

الأولى: أن كل معبود عبد من دون الله أو متبوع اتبع في الباطل، يتبرأ من كل من عبده أو تبعه في الباطل يوم القيامة، فلا تسأل عما يحل بالمشركين في ذلك اليوم من الندامة والحسرات.

الثانية: أن كل من عبد مخلوقا اتبعه في الباطل، يعذبه الله تعالى عذابا شديداً ولا ينفعه متبوعه شيئاً.

الثالثة: أن هذه الأسباب الواقعة في الدنيا بين المشركين وبين معبوديهم من دون الله كالذبائح والنذور والاستغاثة والاستعاذة والدعاء والتوكل والتوالى على ذلك والتحاب فيه والاجتماع عليه، كل ذلك يزول يوم القيامة حين تطلع شمس الحقيقة، ويزول ظلام الكذب.

الرابعة: أن أولئك المشركين المتبعين في الباطل لا يستطيعون أن يكتموا ما يصيبهم من الندم والجذع، بل يصرخون أمام الأشهاد، ويقولون يا ليتنا نعود إلى الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء المعبودين كما تبرأوا منا وخذلونا.

---

(١) الفرقان.

(٢) إبراهيم

(٣) النور.

الخامسة: أن كل من مات وهو يعبد مخلوقا وإن جلت مرتبته وعلا قدره يخلد في النار ولا يخرج منها أبدا ولا تنفعه صلاة ولا زكاة ولا حج ولا جهاد ولا غير ذلك من الأعمال التى كان يعملها فى الدنيا.

الباب الخامس عشر

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ البقرة: آية ١٨٦

قال (ك) عن جماعة من المفسرين الأولين بأسانيدهم إلى معاوية ابن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أن أعرابيا قال يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه، فسكت النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ أخرج أحمد والجماعة بأسانيدهم إلى أبى موسى الأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال فدنا منا، فقال: يا أيها الناس، أربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته، يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟. لا حول ولا قوة إلا بالله وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى، أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا دعانى»، وقال الإمام أحمد بسنده إلى أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى، أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » «قلت» وهذا كقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ (١)، وقوله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿ **إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى** ﴾ (٢)

والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ولا يشغله عنه شيء بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى، وروى أحمد وأبو داود والترمذي

---

(١) النحل.

(٢) طه

وابن ماجه بأسانيدهم عن سلمان الفارسي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله يستحى أن يبسط العبد إليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين».

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ قال: « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرى، وإما أن يصرف عنه السوء مثلها، قالوا: إذا نكثر، قال الله أكثر» أخرج مالك والبخاري ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لى». وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس فسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل»

قال البزار بسنده عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «يقول الله تعالى يا ابن آدم، واحدة لك، وواحدة لى، وواحدة فيما بينى وبينك، فأما التى لى فتعبدنى ولا تشرك بى شيئا، وأما التى لك، فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكه، وأما الذي بينى وبينك، فمنك الدعاء وعلى الإجابة»، وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا.

وقال ابو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: « أن للصائم عند فطره دعوة ما ترد». قال عبد الله بن أبى مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» قال عبد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر « اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شيء أن تغفر لى». وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء،

ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين».

قال محمد تقي الدين: قد تبين لك أيها القارئ والسامع معنى هذه الآية بغاية الوضوح، واستفدنا منها فوائد عظيمة نفعنا الله بها، وأزيد على ذلك فأقول: أيها المشرك الداعي غير الله، الكافر لنعمة الله، ألا تستحي من الله، ما عذرك في دعائك غير الله، وطلب الحاجات من غير الله، وخضوعك وتملقك وشكواك لأهل القبور، وابتهالك إليهم ليجلبوا لك خيرا، ويدفعوا عنك شرا، وهذا رب العالمين الغني الحميد الرؤوف الرحيم السميع المجيب، يرغبك في دعائك، ويعدك ومن أصدق من الله وعدا بإجابة دعوتك وقضاء حاجتك، بشرط أن تستجيب له بالإيمان به وبرسله وما جاؤوا به، وتفعل ما أمرك به وتجتنب ما نهاك عنه، فانظر إلى هذه السفاهة التي وقعت فيها، والخسران المبين، فوحد ربك، وتوجه إليه وحده، تر العجب العجاب من لطفه وبركاته، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الباب السادس عشر

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ البقرة: آية ٢٢١

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان، ثم إن كان عمومها مرادا وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله: ﴿ **وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ** ﴾ [1] قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ **وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ** ﴾ استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب، وهكذا قال جماعة المفسرين من السلف، وقيل بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان. ولم يرد أهل الكتاب بالكلية،

---

(١) المائدة.

والمعنى قريب من الأول، **قال (ج)** بعد حكايته: الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات، وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعانى، ثم روى (ج) بسنده عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية، فكتب إليه عمر خل سبيلها، فكتب إليه أتزعم أنها حرام، فأخلى سبيلها. فقال: لا أزعم أنها حرام، ولكننى أخاف أن تعاطوا[1] المؤمنات منهن وهذا إسناد صحيح ثم روى بسنده إلى عمر، قال: « المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة». قال: « وهذا أصح إسنادا من الأول، ثم روى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «نتزوج نساء أهل الكتاب، ولا يتزوجون نساءنا» ثم قال: وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه، كذا **قال (ج)**. وقال أبو بكر الخلال بسنده إلى صالح بن أحمد: أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله ﴿ **وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ** ﴾ قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. ﴿ **وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ** ﴾ قال السدي: نزلت في عبد الله بن رواحة، كانت له أمة سوداء، فغضب عليها فلطمها، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال له ما هى؟ قال تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال يا عبد الله هذه مؤمنة، فقال: والذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجتها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين، وقالوا نكح أمته، وكانوا يريدون أن ينكحوا بنات المشركين وينحكوهم بناتهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله ﴿ **وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشِرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ** ﴾. قال عبد الله بن حميد بسنده عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال: «لا تنكحوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن على أموالهن، فعسى أموالهن أن تطغيهن، وانكحوهن على الدين، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل»[2]. وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

---

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: أن تعافوا أ هـ مصححه.

(٢) في سنده عبد الرحمن الأفريقى، وهو ضعيف.

ولمسلم عن جابر مثله، وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ». وقوله ﴿ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ ﴾ أي تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: ﴿ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [1] ثم قال تعالى: ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ أي لرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً، خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً ﴿ أُوْلَـئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة. ﴿ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ أى بشرعه وما أمر به ونهى عنه ﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

قال محمد تقى الدين: قد تبين معنى هذه الآية من كلام الأئمة والأحاديث النبوية، وأزيد شيئا فأقول: رب فرخ لا يزال أعمى فى عشه يعترض ويقول: لماذا أباح شرعكم أن يتزوج المسلم اليهودية والنصرانية ومنعتم اليهودي والنصراني من تزوج المسلمة ؟ فقد قسمتم وفضلتم أنفسكم، ولم تنصفوا، وهذا من التعصب، فنقول: على رسلك أيها الفريخ، أن المسلم إذا تزوج يهودية أو نصرانية يؤمن برسلها، ويقدس كتبها، ويحترم دينها، لأنه لو طعن في رسلها لكفر بالإسلام، أما اليهودي والنصراني، فإنه كافر بمحمد ﷺ وبالقرآن فهو أنما يعيش معها على المداهنة والخداع لو تزوجها، ومن سيئات الاستعمار الفرنسى، بل من سيئات المغاربة وضعف دينهم، أنهم كانوا في زمان الاستعمار يزوجون اليهود والنصارى بناتهم، وهو واقع، وإن كان نادراً إلى زماننا هذا، حتى بعد الاستقلال، وهذا خزي ينفردون به من دون الشعوب الإسلامية، فنعوذ بالله من الكفر والضلال. أما الحديث الذى في سنده عبد الرحمن الأفريقي وهو ضعيف، فلا يضره ذلك لأن معناه صحيح تشهد له الأدلة والأصول، وأما قول عمر رضى الله عنه في حكايته مع حذيفة: أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن، فالمراد به أخاف أن أكثرتم من تزوج اليهوديات والنصرانيات أن تبقى المؤمنات ضائعات بلا زواج، ويدل على هذه رواية «أخاف أن تزهدوا في المسلمات».

---

(١) الممتحنة.

الباب السابع عشر

قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ سورة البقرة: آيات ٢٥٤- ٢٥٨

قال (ك) يأمر تعالى بالأنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ومليكهم، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ **مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ** ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ **لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ** ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه، ولا يفادى بماله لو بذله، ولو جاء بملء الأرض ذهبا، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته، بل ولا نسبه،

كما قال ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ ﴾ [1]، ولا شفاعة: أي لا تنفعهم شفاعة الشافعين ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ مبتدأ محصور في خبر، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء ابن دينار أنه قال: الحمد الله الذي قال: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون، **قال (ك)** هذه آية الكرسى، ولها شأن عظيم، قد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله، قال الإمام أحمد: بسنده إلى أبى ابن كعب أن النبى ﷺ سأله: «أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال: الله ورسوله أعلم، فرددها مرارا، ثم قال أبى آية الكرسى، قال: ليهنيك العلم أبا المنذر، والذي نفسى بيده، أن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش»، وأخرجه مسلم به، وليس عنده زيادة نفسى بيده، إلخ، وقال البخاري في فضائل القرآن وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من صحيحه عن أبى هريرة قال: «وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعنى، فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت فقال النبى ﷺ: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال: قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله، قال: أما أنه كذبك وسيعود فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ أنه سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعنى فإنى محتاج وعلى عيال لا أعود، فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت: يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله،، قال: أما أنه قد كذبك وسيعود، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم إنك: لا تعود ثم تعود، فقال: دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هى ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسى ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة ؟

(١) المؤمنون.

قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله، قال ما هى ؟ قال: قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾، وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبى ﷺ: أما أنه صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب ثلاث ليال يا أبا هريرة؟ قلت لا، قال ذاك شيطان» كذا رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم.

قال محمد تقى الدين: وصيغة الجزم: أن يقول البخاري قال فلان عن فلان أو ذكر فلان، وتقابلها صيغة التمريض، وهى، يذكر ويروى، وحتى هذه ليست دائمة صبغة تمريض عند البخاري، فقد حقق الحافظ صحة الحديث المعبر عنه بها في بعض المواضع أ هـ.

ثم ذكر **(ك)** أحاديث كثيرة في فضل آية الكرسى، وأن أبى بن كعب وقع له مع صبى مثل ما وقع لأبى هريرة، ثم روى حديثا للترمذي وأبى داود أن هذه الآية تشتمل على اسم الله الأعظم، ثم قال: **(ك)** روى ابن حبان في صحيحه وغيره عن أبى إمامة قال: قال رسول الله ﷺ: من قرأ آية الكرسى دبر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت. **قال (ك)** وإسناده صحيح على شرط البخاري وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزي أنه حديث موضوع والله أعلم.

وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة: فقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ **الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾ أي الحى في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وكان عمر يقرأ القيام فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غنى عنهما، ولا قوام لها بدون أمر كقوله: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ** ﴾ [1] وقوله ﴿ **لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ** ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء لا يغيب عنه شيء، ولا تخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله: ﴿ **لاَ تَأْخُذُهُ** ﴾ أي لا تغلبه سنة،

(١) الروم.

وهو الوسن، والنعاس، ولهذا قال: ﴿ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ لأنه أقوى من السنة، وفي الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات: فقال: «أن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه». وقال عبد الرازق: وقوله ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِه ﴾ كقوله ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى ﴾ [(١)] وكقوله ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [(٢)] وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة، كما في حديث «آتى تحت العرش، فأخر ساجداً، فيدعنى ما شاء أن يدعنى، ثم يقال: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفع، قال: فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة، وقوله ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها، كقوله إخباراً عن الملائكة ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [(٣)] وقوله ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه، لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم.

قال محمد تقي الدين: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ قال بعض المفسرين من السلف: كرسيه: علمه، وقال أكثر المفسرين: إن لله كرسيا هو أصغر من العرش، وجاءت الأخبار التى رواها المفسرون وأهل الحديث، أن الكرسي في عظمته لو جمعت السموات السبع وقوبلت بالكرسي لكانت كحلقة ملقاة في فلاة، ونحن نؤمن بهذا، ونترك تفسيره إلى الله تعالى، وهذه الأمور لا يطلب من مؤمن معرفة تفاصيلها إلا ما ورد عن النبي ﷺ، وإنما يطلب منه الإيمان بها.

---

(١) النجم.

(٢) الأنبياء.

(٣) مريم.

قال (ك) ﴿ **وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا** ﴾ أى لا يثقله ولا يكرثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيرة بين يديه، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه، محتاجة فقيرة وهو الغنى الحميد، الفعال لما يريد، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحسيب على كل شيء، الرقيب العلى العظيم، لا إله غيره ولا رب سواه، فقوله ﴿ **وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ** ﴾ كقوله ﴿ **وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ** ﴾ وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها، طريقة السلف الصالح، أمروها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

قال (ك): يقول تعالى ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ أي لا تكرهوا أحدا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى، دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مقصوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاما، وقال ابن جرير، عن ابن عباس قال « كانت المرأة تكون مقلاة، فتجعل على نفسها أن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم أبناء الأنصار، فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ وقد رواه أبو داود والنسائي جميعاً عن بندار به، وقال محمد بن إسحاق عن ابن عباس: قوله ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ قال نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصينى كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلا مسلما، فقال للنبى ﷺ ألا استكرههما فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل فيه ذلك، رواه ابن جرير، وروى السدي نحو ذلك، وزاد « وكانا قد تنصرا على أيدي تجار قدموا من الشام يحملون زبيباً، فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية »، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك عن أبى هلال عن أسبق، قال: كنت في دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب، فكان يعرض على الإسلام، فأبى، فيقول ﴿ **لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾

ويقول: يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين. وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل، إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون بل هى منسوخة بآية القتال، وأنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحداً منهم الدخول، ولم ينقد له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى لا إكراه في الدين، قال الله تعالى ﴿ **سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ** ﴾ [1] وقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [2] وقال تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [3]. وفي الصحيح: « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل، وتصلح أعمالهم وسرائرهم، فيكونون من أهل الجنة» فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن أنس: «أن رسول الله ﷺ قال لرجل «أسلم» قال إنى أجدنى كارها، قال وإن كنت كارهاً» فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل، فإنه لم يكرهه النبى ﷺ على الإسلام، بل دعاه إليه، فأخبره أن نفسه ليست قابلة له، بل هى كارهة، فقال له أسلم وإن كنت كارهاً، فإن الله يرزقك حسن النية والإخلاص، وقوله ﴿ **فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبدون من دون الله ووحد الله وحده، وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ** ﴾ أى فقد ثبت فى أمره، واستقام على الطريقة المثلى، والصراط المستقيم.

قال محمد تقى الدين: قال علماء التوحيد: الطاغوت: مأخوذ من الطغيان، والطغيان مجاوزة الحد في كفر والضلال والإضلال، ومنه الطاغوت، جاء في لسان العرب: قال الشعبى وعطاء ومجاهد: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، والكاهن، وكل رأس في الضلال قد يكون واحداً، قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ**

---

(١) الفتح.

(٢) التحريم.

(٣) التوبة.

أن يَكْفُرُواْ بِهِ ﴾ (١)، وقد يكون جمعا، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾.

قال محمد تقى الدين: قال علماء التوحيد: الطواغيت كثيرة، أولهم إبليس لعنة الله، ومن دعا الناس إلى عبادته أو عبادة غيره، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والكاهن، والساحر، ويجب على كل مؤمن أن يكفر بجميع الطواغيت، فإن القلب مثل الإناء، فلابد من تطهيره قبل حلول الإيمان فيه، فإن الإيمان بالطاغوت نجاسة تجب إزالتها من القلب، ليمتلئ بالإيمان بالله تعالى، وسيأتى إن شاء الله في سورة النساء زيادة على هذا، ثم **قال (ك)** وقوله ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم، هى في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد، ولهذا قال ﴿ **فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ الآية.

قال مجاهد: العروة الوثقى: يعنى الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد ابن جبير والضحاك: يعنى لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك، العروة الوثقى: القرآن، وعن سالم بن أبى الجعد، قال: هو الحب في الله، والبغض في الله، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافى بينها، وقال معاذ بن جبل في قوله ﴿ **لاَ انفِصَامَ لَهَا** ﴾ دون دخول الجنة وقال الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن قيس بن عبادة قال: « كنت في المسجد فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلى ركعتين أوجز فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثته فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد قالوا: كذا وكذا، قال سبحان الله، ما ينبغى لأحد أن يقول ما لا يعلم، وسأحدثك، إنى رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأنى في روضة خضراء، قال ابن عوف فذكر من خضرتها وسعتها، وفي وسطها عمود من حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلاه عروة، فقيل لى: أصعد عليه، فقلت: لا أستطيع.

(١) النساء.

فجاءني منصف قال ابن عوف هو الوصيف فرفع ثيابي من خلفي فقال: أصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك بالعروة، واستيقظت وأنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه، فقال: أما الروضة، فروضة الإسلام، وأما العمود فعمود الإسلام، وأما العروة فهي العروة الوثقى، أنت على الإسلام حتى تموت، قال وهو عبد الله بن سلام أخرجاه في الصحيحين، ثم **قال (ك)** يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي البين السهل المنير، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان، يزين لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم، ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ **أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾ ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال ﴿ **وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [١] **قال (ك)** هذا الذى حاج إبراهيم في ربه وهو ملك بابل نمرود بن كنعان، قال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان، وكافران، المؤمنان: سليمان ابن داود، وذو القرنين، والكافران: نمرود، وبخت نصر، ومعنى قوله ﴿ **أَلَمْ تَرَ** ﴾ أي بقلبك يا محمد ﴿ **إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ** ﴾ أي وجود ربه، وذلك أنه أنكر أن يكون إله غيره، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ [٢] وما حمله على الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة ألا تجبره وطول مدته في الملك، وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذي يدعو إليه. فقال إبراهيم: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِـي وَيُمِيتُ** ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها، وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلابد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته لا شريك له، فعند ذلك قال المحاج، وهو نمرود ﴿ **أَنَا أُحْيِـي وَأُمِيتُ** ﴾ قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك إني أوتى بالرجلين قد استحقا

---

(١) الأنعام.

(٢) القصص.

القتل، فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل، فذلك معنى الإحياء والإماتة، والظاهر والله أعلم، أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم، ولا في معناه لأنه مانع لوجود الصانع، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه فاعل لذلك، وأنه هو الذي يحيى ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي** ﴾ ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ** ﴾ أي إذا كنت كما تدعى من إنك تحي وتميت، فالذي يحي ويميت هو الذى يتصرف في الوجود، في خلق ذراته وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها كما تدعى، تحيى وتميت، فأت بها من المغرب فلما عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام، بهت أي أخرس، فلا يتكلم وقامت عليه الحجة، قال الله تعالى ﴿ **وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهانا، بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

فوائد هذا الباب

الفائدة الأولى: قال محمد تقى الدين: كل من أشرك بالله، وعبد غيره بدعاء، أو ذبح أو نذر، أو استغاثة، أو استعانة، أو استعاذة، فيما لا يقدر عليه إلا الله، يأتي يوم القيامة مفلساً يائساً لا ينفعه أحد من الذين كان يتعلق بهم في الدنيا كشيوخ الطريقة، ولا يشفع له أحد، لأن المشرك بالله لا تنفعه شفاعة الشافعين، وإن كان هذا المشرك ابنا لنبى كابن نوح، أو أبا لنبى كآزر أبى إبراهيم، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ** ﴾

الفائدة الثانية: قول عطاء بن دينار: الحمد لله الذي قال: الكافرون هم الظالمون، ولم يقل: الظالمون هم الكافرون. **قال محمد تقى الدين:** الظلم نوعان: الظلم الأكبر والظلم الأصغر، فالظلم الأكبر: أن تصرف حق الله وهو العبادة إلى غير الله، وذلك هو الشرك الأكبر، فكل من ارتكب الظلم الأكبر، فهو من الكافرين، وأما الظلم الأصغر فهو أكل أموال الناس بالباطل، والاعتداء عليهم في أنفسهم وأعراضهم، فإن صاحب هذا لا يكون من الكافرين، إلا إذا استحل ذلك، ولو قال الله تعالى والظالمون هم الكافرون لكان ظالم كافرا، ولو كان ظلمه صغيراً.

الفائدة الثالثة: قد رأيت من فضائلها ما فيه من الكفاية: وعلمت أنها أعظم آية في القرآن وهى كما قال ابن كثير: تشتمل على عشر جمل:

الجملة الأولى: الله لا إله إلا هو، أي لا معبود في الأرض ولا في السماء سواه، ومن عبد غيره صار من أعدائه، استوجب العذاب الدائم في الدنيا والآخرة، إن لم يتب من شركه.

الجملة الثانية: الحى القيوم، وحياته سبحانه هى الحياة الكاملة التى لم توهب ولم تعط ولمن تؤخذ من غيره، وليس لها بداية ولا نهاية، وليس لها حدود، والقيوم، وفي قراءة عمر رضى الله عنه القيام، هو الذي يقوم به كل ما سواه من المخلوقين وبدونه لا يقوم ولا يوجد، ولا يحفظ عليه وجوده إلا بالحى القيوم.

الجملة الثالثة: لا تأخذه سنة ولا نوم، وقد بين (ك) معنى السنة ومعنى النوم، وهما من لوازم البشر، ومن الدلائل على نقصهم، ولذلك لا يستطيع أحد منهم أن يدبر شؤون العالم، وقد علم الله سبحانه أن بعض البشر سيزعمون أنه يوجد رجل في كل زمان يسمى «القطب الفرد» ينوب عن الله تعالى في جميع مملكته ويدبر شؤونها، فلا تتحرك ذرة في العالم إلا بإذنه، انظر تفاصيل خبره في كتابى «الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية» فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿ **لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ** ﴾ فكيف يستطيع هذا «القطب» المزعوم أن يدبر شؤون العالم عند النوم، ونفى السنة والنوم، من نفى النقائص عن الحى القيوم.

الجملة الرابعة: ﴿ **مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي** ﴾، ملكا وخلقا وعبيداً متصرفا فيهم، والمملوك المخلوق العبد، لا يكون إلها معبوداً أبداً، ففيه رد على المشركين.

الجملة الخامسة: ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ** ﴾، نفى للشفاعة الشركية التي يشفع الشافع فيها لدى المشفوع عنده، لأنه قريب، وله حق عليه كالوالد عند ولده، أو بالعكس، أو لأنه صديقه، أو قائد جيشه، أو وزيره الأعظم الذى يعينه على تدبير ملكه، والمشركون الجاهلون يظنون، بل يعتقدون أن شفاعة الشفعاء عند الله من هذا القبيل، وتعالى الله أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

الجملة السادسة: ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ أى هو محيط علما بجميع أمور العباد من الأزل إلى الأبد، ولا يتصف أحد بهذه الصفة سواه.

الجملة السابعة: ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء ﴾، أي كل من سوى الله تعالى من المخلوقين لا يعلم من علم الله تعالى إلا ما علمه الله، وما سوى ذلك يخفى عليه، ويدعى كثير من المشركين في هذا الزمان، أن النبي ﷺ، يعلم كل ما يعلمه الله، وهذا كفر بإجماع المسلمين، وسيأتي إن شاء الله في سورة الأنعام بيانه، ويزعمون أن آلهتهم التي يسمونها بالأولياء تعلم الغيب، فبعدا للقوم الظالمين.

الجملة الثامنة: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾، قد تقدم بيان معناها بما لا يحتاج إلى مزيد.

الجملة التاسعة: ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾، كل من وكل إليه حفظ شئ من المخلوقين يثقل عليه، ويحتاج فيه إلى اهتمام وتعب، والله تعالى يحفظ السموات والأرض، يحفظ عليهما وجودهما، ويمدهما بكل ما تحتاجان إليه، ويحتاج إليه من فيهما دون أن يلحقه في ذلك أي مشقة أو تعب.

الجملة العاشرة: ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ وتقدم معنى العلو الثابت له تعالى، والعظيم الذي لا يماثله أحد في عظمته.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾. اعلم أن من يدين بالإكراه، لا ينتفع بذلك الدين، لأنه لم يؤمن به، ولا ينتفع أهل ذلك الدين به، بل يعيش بينهم جاسوسًا يتربص بهم الدوائر، أما حديث « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» فهم لم يقودوهم ليدخلوهم في دين الإسلام كرها، وإنما قادوهم أسارى بأمر الله تعالى، وتطبيقا لقواعد الحرب، فلما دخل أولئك الأسارى إلى بلاد الإسلام، رأوا نور الإسلام وأخلاقه وفضله، فانشرحت صدورهم، ودخلوا فيه باختيارهم، وكذلك حديث: «ثمامة بن أثال حيث قبضت عليه خيل النبي ﷺ، وربط إلى سارية من سوارى المسجد ثلاثة أيام، فأطلق النبي ﷺ سراحه، ولم يكرهه على الإسلام، ولكن ما شاهده في المسجد من نور الإسلام وأخلاق الإسلام، أخذ بمجامع قلبه، فخرج إلى حائط من حوائط المدينة، فاغتسل، ورجع إلى النبي ﷺ، وقال له: «والله لقد جئت هذا البلد وما على وجه الأرض بلد أبغض إلى منه، والآن ما على وجه الأرض بلد أحب إلى منه، وقد جئت وما على وجه أبغض إلى منك،

والآن ما على وجه الأرض أحد أحب إلي منك، فمرني بأمرك ؟» الحديث. والمسلمون في هذا الزمان هم أكبر مانع لغيرهم من الدخول في الإسلام، لعدم تمسكهم بالإسلام، وانحرافهم عن جادته، وبعدهم عن أخلاقه، حكى لى العالم السلفى عبد الكريم الصاعقة البغدادي رحمه الله: أنه كان جالساً في سطح المسجد، وهو يرى صاحب دكان من تجار الصابئة يسمع القرآن من الإذاعة، فجاءه شخص من المحسوبين على الإسلام، فقال لـه لماذا تسمع القرآن وأنت صابىء ؟ فقال له لأنى أحبه فقال: إذا كنت تحب القرآن فما يمنعك من الإسلام ؟ فقال: منعنى من الإسلام أنت وأمثالك، يعنى أنه يكره أن يدخل في دين الإسلام وينضم إلى أدعياء الإسلام، لفساد أخلاقهم، وعدم تطبيقهم لأحكام الإسلام وأخلاقه وآدابه.

الفائدة الخامسة: قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ الآية، اعلم أن الجهال وأصحاب الأغراض الفاسدة من زنادقة المتصوفة وجهلتهم حرفوا معنى ولى الله، فزعموا أن ولى الله هو الذي ينظر بعين بصيرته إلى الحقيقة، والحقيقة عندهم هى أصل الدين، والشريعة إنما هى ظواهر شرعت للعامة، أما الولى فلا يتقيد بها، فيتبع الحقيقة، قالوا وكثيرا ما تكون الحقيقة مخالفة للشريعة، كالخلوة بالأجنبية مثلا، فإنهم يحلونها للولى، وأن حرمها الشرع، ويضربون لذلك مثلا بقصة موسى والخضر، ويزعمون أن الخضر كان مطلعا على الحقيقة، لأنه كان من الأولياء، وموسى لم يكن مطلعاً على الحقيقة لأنه كان رسولا نبيا يتبع ما يوحى إليه، فخرق السفينة وقتل الغلام كان محرما في شريعة موسى من الذنوب الكبائر، ولكن الخضر كان يعرف الحقيقة، وان ذلك ليس محرما، بل فيه خير وصلاح، فلما أخبر الخضر موسى بحقيقة ذلك، سلم له أمره، ولم يعترض عليه، فكذلك ينبغى للمسلمين إذا رأوا وليا معروفا عند العامة بالولاية، أو مدعيا لها، يرتكب شيئا من المحرمات كالزنا وشرب الخمر، لا ينبغى لهم أن يعترضوا عليه، وأشاعوا ذلك بين جهال المسلمين، حتى استقر في أذهانهم وألفوه، وينشدون من أشعارهم قول بعضهم:

وكن عنده كالميت عند مغسل ... يقلبه ما شاء وهو مطاوع

ويقولون: من قال لشيخه، لم ؟ لا يفلح أبدا، ويقولون: إذا رأيت امرأة جميلة دخلت على شيخك، فقم سخن الماء ليغتسل، وإياك أن تظن به إلا خيرا، وفي كتاب الابريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ، لمؤلفه أحمد بن مبارك اللمطى المغربى هذه الحكاية: زعم أن شخيه رواها له، قال: قال رضى الله عنه: كان لأحد الشيوخ مريد مخلص، وطالت خدمته بإخلاص وتعظيم، فأراد أن يمتحنه ليعطيه الولاية إذا نجح في الإمتحان، فقال له: يا فلان: أتحبنى ؟ قال نعم أحبك بدون حد، فقال أرأيت لو أمرتك بأمر أتطيعنى؟ فقال: يا سيدى لا يمكن أن أعصى أمرك أبداً، فقال لو قلت لك أذهب الآن إلى والدك واضرب عنقه وآتنى برأسه أتفعل ذلك ؟ فقال له سوف ترى، وذهب في الحال إلى بيت أبيه فوجده يجامع أمه، فقطع رأسه وجاءه به في مخلاة، ووضعه أمامه، فقال له الشيخ ما هذا ؟ فقال المريد: هذا الذي أمرت به، فقال ما أمرتك بشيء ؟ وإنما سألتك سؤالاً ؟ فقال له: أن كلامك عندى كله حق، ليس يه تأويل ولا مجاز، وهذا رأس أبى أمامك، فغضب عليه وقال له كيف ترتكب هذا الجرم العظيم لمجرد سؤال ألقيته عليك ؟ فأعاد عليه قوله من كلامه عنده لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون، ما كنت أظنك غبياً إلى هذا الحد، هات القنديل، فلما جاء المريد بالقنديل، وأخرج الرأس من المخلاة، وجده رأس نصرانى كان يزنى بأمه، فعلم بذلك الشيخ من طريقة علم الغيب، وأراد أن يصيد عصفورين بحجر واحد، الأول: امتحان مريده هل بلغ من طاعته إلى الحد الذى يستحق أن يمنح الولاية، والثاني: أن يقتل ذلك النصراني الذي هتك حرمة والدته عقابا له، ويحكون من أمثال هذه الحكاية كثيراً ليضلوا الناس، ويعطلوا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، انظر كتابى «الهدية الهادية، إلى الطائفة التيجانية».

وهذه الحكاية الملعونة يبرأ منها الله ورسوله، وجميع المسلمين الذين يعرفون ما هو الإسلام، سواء كانوا صوفية أو فقهاء، أو أهل حديث، فقد قال الجنيد: رحمه الله وهو سيد الطائفة أمرنا هذا يعنى التصوف، مبنى على أربعة أمور، أولها: اتباع السنة، والوقوف عند حدود الشريعة، وثانيها: أكل الحلال، وثالثهما: كف الأذى،، ورابعها حمل الأذى وقال: «إذا رأيتم الرجل يطير في السماء، أو يمشى على الماء، فلا تعتبروه شيئا، حتى تنظروا إلى

تمسكه بالكتاب والسنة»، وقد الف الإمام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية كتابا سماه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، وحكى لى الثقة الصادق السيد محمد المؤذن، وكان من أعيان تطوان المتمسكين بالسنة بعدما دعوت الناس إليها من سنة إحدى وستين وثلاثمائة وألف إلى سنة ست وستين وثلاثمائة وألف، حكى: أن مجذوباً «المجذوب» عندهم هو الذي فقد عقله، وصار يمشى عريانا، ولا يتقيد بشئ من العبادة ولا من المروءة، وهذا عندهم معظم من كبار الأولياء الذين جذبهم الحق إلى حضرة محبته لهم بدون عبادة، ويقسمون الأولياء إلى مجذوب، وسألك. فالسالك: هو الذى يسلك الطريقة والشريعة، ويؤدى الواجبات والنوافل حتى يصل إلى الولاية على يد شيخ من شيوخ المتصوفة، أخبرنى، أن مجذوباً ومجذوبة كانا في مدينة تطوان يمشيان في الأسواق عريانين، ويتكلمان بكلام لا يفهم، وفي يوم من الأيام وثب المجذوب على المجذوبة فى وسط السوق، فأضجعها وزنا بها، والناس ينظرون، ولم يستطيع أحد أن ينبس ببنت شفة، بل أخذهم رعب وخوف عظيم، وتأولوا ذلك على أمرا عظيما سيحدث، وبعد ذلك بأيام، انهزم الجيش المغربى أمام الأسبانيين حتى دخل الأسبانيون تطوان واستولوا عليها، ففسر الناس ذلك الزنا الذى وقع بين المجذوب والمجذوبة باستيلاء الأسبانيين على تطوان، فهل مثل هؤلاء مسلمون حقا يرضى الله دينهم وعقيدتهم وينصرهم على أعداء الإسلام؟ إلا لا ثم لا فالله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ** ﴾ [١] وقال تعالى في سورة الصافات ﴿ **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** ﴾ ومن بلغ في الجهل بالإسلام إلى ذلك الحد فحاشا لله أن يكون من المؤمنين، وأن يستحق النصر على الكافرين، والله سبحانه وتعالى يبين لنا معنى من هم أولياؤه بيانا شافيا وافيا، وقال تعالى في سورة يونس ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ فأخبر سبحانه أن الإيمان والتقوى شرط في ولايته، وأن أولياءه لهم علامات، منها البشرى في الحياة الدنيا، بالنصر والتأييد والاستقامة، والاجتماع على كلمة الحق والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

(١) غافر.

إلى غير ذلك، ولذلك قال هنا سبحانه ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أي يتولاهم دائما ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ ﴾ في حياتهم الدنيا وفي الآخرة. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ﴾ أي الشياطين ﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

الفائدة السادسة: محاجة إبراهيم لنمرود، ملك بابل: هي من الآيات الدالة على توحيد الربوبية، وآية الكرسي نفسها، مشتملة على توحيد العبادة في قوله تعالى ﴿ اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وعلى توحيد الربوبية فيما بعد ذلك.

الباب الثامن عشر

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ البقرة، آية: ٢٧٢

قال (ك) قال أبو عبد الرحمن النسائي بسنده عن ابن عباس، قال: «كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا، فرخص لهم».

قال محمد تقي الدين: الرضخ: هو العطاء القليل، وفي هذا الزمان قلب معناه جهال الكتاب، فصاروا يقولون: رضخ له، يعني أذعن وخضع له، وهذا زمان محنة اللغة العربية وشقائها بالمتكلمين بها، وفي هذا الحديث دليل على جواز الإحسان إلى الكافر إذا كان قريبا، وكذلك إذا كان بعيدا، قال تعالى في سورة الممتحنة ﴿ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ فعلى هذا يجوز الإحسان إليه، ثم قال **(ك)** بسنده إلى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إلى آخرها، **فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك**

من كل دين.

قال محمد تقى الدين: وهذا كله في صدقة التطوع، أمنا الزكاة المفروضة فقد بين الله تعالى من تصرف لهم في سورة التوبة، فلا يعطاها الفقير الكافر إلا إذا كان من المؤلفة قلوبهم، لقول النبى ﷺ في حديث معاذ حينما بعثه إلى اليمن « ثم أخبرهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنياءهم فترد على فقراءهم، أى على فقراء المسلمين » وقوله تعالى ﴿ **وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ** ﴾ كقوله ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ** ﴾. قال عطاء الخراساني، يعنى إذا أعطيت لوجه الله، فلا عليك ما كان عمله، وهذا معنى حسن، وحاصله: أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب، البر أو الفاجر، أو مستحقا أو غيره، وهو مثاب على قصده ومستنده هذا تمام الآية ﴿ **وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ** ﴾ والحديث المخرج في الصحيحين من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ « قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها بيد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية ! فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقن الليلة بصدقة، فوضعها في يد غنى ! فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غنى، فقال: اللهم لك الحمد على غنى، لأتصدقن الليلة بصدقة، فخرج فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، وعلى غنى، وعلى سارق، فأتى فقيل له: أما صدقتك فقبلت، أما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زناها، ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته».

قال محمد تقى الدين: قد علمنا سبب نزول هذه الآية وما فيها من الأحكام والحكم، وهناك أمر آخر لم يذكر من قبل، وهو أن هداية القلوب ليست واجبة على النبى ﷺ، ولا هى مقدورة له، قال تعالى في سورة القصص: ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾. فهداية النبى ﷺ للبشر، إنما هى تبليغه إياهم ما أمر بتبليغه قولا وعملا على أحسن وجه، وقد فعل ذلك، وبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد فى الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ولكن

الضلال المتصوفة يزعمون: أن الشيخ الكامل يتصرف في قلب مريده وينقله من الضلال إلى الهدى، وبنظرة واحدة ينظرها إليه يصير وليا، وفي «جواهر المعانى» و «كتاب الرماح» زعموا: أن الشيخ التيجاني قال لهم: « قال لى سيد الوجود ﷺ، بعون ربى أكون معك يوم الاثنين ويوم الجمعة، فكل من رآك في هذين اليومين، وقال أشهد بأنى رأيتك يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب». فلم يقتصر على رؤية الشيخ للمريد، وهدايته له بالنظر، حتى جعلوا كل من رأى الشيخ يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب، ألم يعلموا أن أبا طالب عم النبى ﷺ كان يرى النبى ﷺ ويراه كل يوم لمدة طويلة، وكان النبي ﷺ حريصا على هدايته وانقاذه من النار ودعاه إلى الإسلام جهده فلم يستجب، ومات كافرا، فحزن عليه النبى ﷺ، فأنزل الله تعالى عليه ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ [1]، فقال النبى ﷺ «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله تعالى في سورة التوبة ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾.

سورة آل عمران

الباب الأول

﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ ﴾ آل عمران، آية: ١ – ٦

---

(١) القصص.

قال (ك) قد ذكرنا الحديث الوارد فى أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾، و ﴿ ألم، اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾، عند تفسير آية الكرسى وقد تقدم الكلام على قوله ﴿ أَلَمْ ﴾ فى أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته، وتقدم الكلام على قوله ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ في تفسير آية الكرسى وقوله تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ يعنى نزل عليك القرآن يا محمد بالحق، أى لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيداً، وقوله: ﴿ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله الأنبياء، فهى تصدق بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها لانه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ، وقوله ﴿ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿ وَالإِنجِيلَ ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذا القرآن ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ في زمانهما ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل والغى والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبيان والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعة، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشده إليه ينبهه عليه من ذلك، وقال قتادة والربيع بن أنس، الفرقان ههنا: القرآن واختار ابن جرير أنه مصدر ههنا لتقدم ذكر القرآن في قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ وهو القرآن. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أى جحدوا بها وأنكروها وردوها بالباطل ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴾ أى منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ ذُو انتِقَامٍ ﴾ أى ممن كذب بآياته وخالف رسله الكرام وأنبيائه العظام، ثم قال (ك) يخبر تعالى أنه يعلم غيب السموات والأرض، لا يخفى عليه شيء من ذلك ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ أى يخلقكم في الأرحام كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقى وسعيد ﴿ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى هو الذى خلق، وهو المستحق للألوهية وحده لا شريك له، وله العزة التى لا ترام والحكمة والأحكام، وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق الله سائر البشر، لأن الله صوره في الرحم، وخلقه كيف يشاء، فكيف يكون إلها كما زعمته النصارى، وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى

﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ﴾.

قال محمد تقى الدين: ابتدأ الله هذا الكلام بقوله ﴿ اللَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فنزه نفسه عن الشرك لينزه عباده عنه، وختمه بقوله ﴿ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وذكر فيها بينهما إنزال الكتب من السماء ﴿ هدى ﴾ ورحمة للمؤمنين، وأخبر أن الذين كفروا بهذه الكتب وبمن جاء بها لهم عذاب شديد، يعنى في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى في سورة الرعد ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِن وَاقٍ ﴾ أخبر سبحانه أنه العزيز الذي لا يغالب، ومن تمسك بطاعته وتوحيده ضمن له العزة الأبدية، وأخبر سبحانه أنه ذو انتقام من المرتدين والجاحدين، وأخبر سبحانه وتعالى من دلائل ربوبيته أنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه يخلق عباده ويصورهم في الأرحام كيف يشاء، فكيف تصرف الوجوه إلى غيره، وكيف يتوجه الداعي بدعائه إلى سواه، ﴿ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾.

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠ ﴾ آية عمران، آية ١٨

قال (ك) شهد تعالى، وكفى به شهيدا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين ﴿ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى المنفرد بالألوهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه وفقراء

إليه وهو الغنى عما سواه، كما قال تعالى ﴿ لَـٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ﴾ [١] الآية. ثم قرن شهادة ملائكته وأولى العلم بشهادته فقال ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ منصوب على الحال، وهو في جميع الأحوال، كذلك ﴿ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ تأكيد لما سبق ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ العزيز الذي لا يرام جناب عظمته وكبريائه، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وقال الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن العوام: قال: «سمعت النبى ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿ شهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب » وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ أخبار منه تعالى بانه لا دين عنده يقبل من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقى الله بعد بعثه النبى ﷺ يدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [٢] الآية، وقال في هذه الآية مخبرا بإنحصار الدين المتقبل منه عنده في الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ وذكر ابن جرير أن ابن عباس قرأ ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ أي شهد هو والملائكة وأولوا العلم من البشر، بأن الدين عند الله الإسلام، ثم أخبر تعالى بأن الذين أوتوا الكتاب إنما اختلفوا بعد ما قامت الحجة بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم، فقال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ أي بغى بعضهم على بعض، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم وتدابرهم، فحمل بعضهم بغض البعض الآخر على مخالفته في جميع أقواله وافعاله، وإن كانت حقا، ثم قال تعالى ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَـٰتِ اللَّـهِ ﴾ أي من جحد ما أنزل الله في كتابه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك،

---

(١) النساء.

(٢) آل عمران.

ويحاسبه على تكذيبه. ويعاقبه على مخالفته كتابه، ثم قال تعالى: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ أي فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ﴿ ومن اتبعن ﴾ أى على دينى، يقول: كمقالتى، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ثم قال تعالى: آمرا عبده ورسوله محمدا ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه، والدخول في شرعه وما بعثه الله به إلى الكتابيين من الصليبين والأميين من المشركين، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾، أى والله عليه حسابهم، وإليه مرجعهم ومآبهم، وهو الذي يهدى من يشاء ويضل من يشاء، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، ولهذا قال ﴿ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾.

قال محمد تقى الدين: فى هذا الباب فوائد: الأولى: أن الله وملائكته وأهل العلم بالله من جميع الأديان التى شرعها الله، وهى فى الحقيقة دين واحد وهو الإسلام، يشهدون أن لا معبود بحق إلا الله، وكل من عبد من دونه ولو كان نبيا ولو كان ملكا ولو كان شهيدا ولو كان صديقا فعبادته باطلة، ومن عبده فهو من أهل النار خالدا فيها أبدا إن لم يتب قبل موته.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه وتعالى كرر قوله لا إله إلا الله هو مرتين في موضع واحد للتوكيد.

الفائدة الثالثة: قوله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾ المراد بالإسلام هنا توحيد الله تعالى بالقلب والجوارح، وتوجيه الوجه له لا شريك له، والإسلام هنا يشمل الإيمان بالقلب واللسان والعمل.

الفائدة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ﴾ يعنى بالذين أوتوا الكتاب، اليهود والنصارى، وبالأميين، المشركين ﴿ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ ؟ أي وحدتم الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسماءه وصفاته، واتباع من بعث إليكم من رسله، فإن أسلموا، أي وحدوا الله تعالى على هذه الصفة، فقد اهتدوا إلى الحق، وإن أعرضوا عن هذا الإسلام،

فحسابهم وعقابهم على الله، وليس عليكم يا محمد إلا البلاغ، ﴿ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ أي عليم بأحوالهم، وسيجزيهم عليها أن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

آل عمران، آية: ٥٩ — ٦٤

قال (ك) يقول جل وعلا: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم، بل ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز إدعاء البنوة في عيسى لكونه مخلوقا من غير أب فيجوز في آدم بالطريق الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل، فدعواه في عيسى أشد بطلانا وأظهر فسادا، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حيث خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، ولهذا قال تعالى، في سورة مريم ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ وقال هنا: ﴿ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾، أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا

بعد الحق إلا الضلال، ثم قال تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان ﴿ **فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ** ﴾ « أى: نحضرهم في حال المباهلة » ﴿ **ثُمَّ نَبْتَهِلْ** ﴾ أي نلتعن ﴿ **فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ** ﴾ أي منا ومنكم. كان سبب نزول المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا، وفد نجران أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردا عليهم كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره، قال ابن إسحاق في سيرته المشهورة وغيره، وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، يؤول أمرهم إليهم، وفيهم العاقب واسمه عبد المسيح والسيد وهو الايهم، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل أ هـ.

وذكر ابن كثير بقية أسمائهم بالتفصيل، تركت ذكرها اختصاراً، ثم قال **(ك)** وكان أميرهم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم والذى لا يصدرون إلا عن رأيه، السيد وكان صاحب رحلتهم ومجتمعهم أبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم وكان رجل من العرب من بنى بكر بن وائل ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة، ولكن حمله ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيما وجاهه عند أهلها.

ذكر محاجتهم ﷺ

وقد قدموا على النبى ﷺ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جباب وأردية من رجال بنى الحارث بن كعب، قال يقول من رآهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفدا مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فصلوا إلى المشرق، قال: فكلم رسول الله ﷺ منهم أبا حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسحيح والسيد الأيهم وهم من النصرانية على دين التثليث، يقولون هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوا

كبيرا، فهم يحتجون في قولهم هو الله بأنه كان يحيى الموتى، ويبرئ الأكمة والأبرص والأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ينفخ فيه فيكون طائراً، وذلك كله بأمر الله، وليجعله الله آية للناس، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله، يقولون لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة، بقول الله تعالى، فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، فيقولون: لو كان واحدا ما قال إلا فعلت، وأمرت، وقضيت، وخلقت، ولكنه هو وعيسى ومريم، تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيراً، وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ أسلما، قالا قد أسلمنا، قال إنكما لم تسلما فأسلما، قالا بلى قد أسلمنا قبلك، قال كذبتما، يمنعكما من الإسلام إدعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالا فمن أبوه يا محمد، فصمت رسول الله ﷺ عنهما فلم يجبهما، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم من سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، ثم تكلم ابن إسحاق على تفسيرها إلى أن قال: فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله، والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم أن ردوا ذلك عليه دعاءهم إلى ذلك، فقالوا: يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما تريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ثم انصرفوا عنه، ثم خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم فقالوا يا عبد المسيح ماذا ترى فقال والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبى مرسل، ولقد جاءكم بالفعل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه مالا عن قوم نبيا قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وأنه الاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم ألا ألف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا النبى ﷺ فقالوا يا أبا القاسم قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلا من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها فى أحوالنا، فإنكم عندنا رضا، قال محمد بن جعفر، فقال رسول الله ﷺ ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجرا فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له

ليراني فلم يزل ببصره، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، قال عمر: فهذب بها أبو عبيدة ﷺ. هذه القصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما باختصار وشيء من الزيادة، وأخرج البخاري بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ثم قال (ك) بعد كلام طويل تركته اختصاراً، ثم قال الله تعالى ﴿ **إِنَّ هَـذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ** ﴾ أي هذا الذى قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى، هو الحق الذى لا معدل عنه ولا محيد، ﴿ **وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ فإن تولوا عن هذا إلى غيره ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ** ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل، فهو المفسد، والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء، وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده، ونعوذ به من حلول نقمته، ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ** ﴾ الآية هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء** ﴾ إلى عدل ونصف نستوى نحن وأنتم فيها ثم فسرها بقوله ﴿ **أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا** ﴾ لا وثنا ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له، هذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ وقال ابن جريج: يعنى يطيع بعضنا بعضا في معصية الله، وقال عكرمة، يسجد بعضنا لبعض ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف وهذه الدعوة، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذى شرعه الله لكم، ذكر (ك) حديث البخاري عن ابن عباس عن أبى سفيان بن حرب حين دخل على قيصر ملك الروم وما جرى بينه وبينه من الأسئلة والأجوبة، وذكر كتاب النبى ﷺ إلى هرقل عظيم الروم نصه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين، و ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا**

مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ انتهى كلام ابن كثير.

قال محمد تقى الدين: ينبغي أن أثبت هنا بقية حديث ابن عباس الذى رواه البخاري في كتاب بدء الوحي من صحيحه، لأن الأسئلة التى سألها هرقل أبا سفيان والأجوبة التي أجاب بها، ثم الاستدلال الذى استنبط هرقل من اجوبة أبى سفيان، في ذلك كله حجج عقلية قاطعة يسلمها كل منصف في كل زمان ومكان، على أن نبينا محمدا ﷺ صادق مصدق، قامت به الحجج على جميع أهل الأرض، قال البخاري في صحيحه بسنده إلى ابن عباس: « أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بأيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ فقال أبو سفيان، فقلت: أنا أقربهم نسبا، فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إنى سائل هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألنى عنه أنه قال: كيف نسبه فيكم ؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول فيكم أحد قط قبل ؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت: بل يزيدون، قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت: لا، قال، فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر ؟ قلت لا ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها، قال: ولم يمكننى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه، قال: ماذا يأمركم ؟ قلت: يقول: أعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة، فقال للترجمان، قل له سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا، فقلت، لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله، وسألتك هل

كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كـان مـن آبائـه مـن ملـك لقلـت: رجـل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فـذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسـألتك أشـراف النـاس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسـألتك: أيزيـدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعـد أن يـدخل فيـه، فـذكرت أن لا، وكـذلك الإيمـان حينمـا تخـالط بشاشـته القلوب، وسألتك هل يغدر ؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يـأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبـدوا الله ولا تشـركوا بـه شـيئا، وينهـاكم عـن عبـادة الأوثـان، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قـدمي هـاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم إنـى أخلـص إليـه لتجشـمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذى بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأ فإذا فيه، فذكر كتاب النبى ﷺ إلى هرقل المتقدم ذكره مع اختلاف قليل في اللفظ.

قال محمد تقى الدين: - في هذا الباب فوائد، الأولى: - المباهلة لما أقام النبى ﷺ الحجـج القاطعة على أن الله واحد لا شريك له في ألهيته ولا في ربوبيته ولا في أسمائه ولا في صـفاته في محاجته لوفد نجران وظهرت عليهم حجـج الله علـى أن عيسـى عبـد الله ولـيس ابـن الله وليس هو الله وليس ثالث ثلاثة كما يزعمون ركبوا رؤوسهم وعاندوا فـأمر الله نبيـه ﷺ أن يباهلهم ومعنى المباهلة أى يخرج كل فريق مـن الفـريقين المتخاصـمين أعـز النـاس إليـه إلى الفضاء خارج البلد فيدعو كل فريق منهما الله تعالى أن يلعن المبطل ويهلكه ولم يستطع وفـد نجران مباهلة النبى ﷺ لعلمهم أنه رسول الله حقا إلى جميع أهل الأرض فاختاروا أن يعطـوا الجزية ويدخلوا تحت حاكم مسلم مع أنهم كانت عندهم قوة عظيمـة للقتـال وقـد تقـدم أن عدد المقاتلين منهم كان مائة وعشرين ألف مقاتل ولم يكن عنـد النبـى ﷺ في ذلـك الوقـت مثل هذا العدد ولا عشرة فإن النبى ﷺ حين توجه إلى فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة كان جيشه مؤلفا من عشرة آلاف مقاتل هذه معجزة عظيمة للنبى ﷺ يقر بها كل منصف.

الفائدة الثانية: اختلف الأئمة المتقدمون في جواز دخول الكافر المسجد وفي هذا الخبر دليل على أن الراجح جواز دخوله إن أذن له أولوا الأمر من المسلمين وكذلك في حديث ثمامة بن أثال الذى أسرته خيل النبى ﷺ فإن النبى ﷺ أمر بإدخاله المسجد وربطه في إحدى سواريه وقد تقدم ذلك.

الفائدة الثالثة: من سماحة الإسلام التى جاء بها النبى ﷺ أنه سمح لهم أن يؤدوا صلاتهم في مسجده عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الرابعة: هجرهم وعدم رد النبى ﷺ عليهم، والتحدث معهم حين تكبروا ولبسوا ثياب الحرير وخواتم الذهب، فأظهر لهم بذلك أن عملهم ذلك محرم في شريعة المسيح، وفي شريعة الإسلام، وأن فاعله يجب هجره إن وجد إليه سبيل.

الفائدة الخامسة: احتجاج وفد نجران على التثليث، بأن الله تعالى يقول فعلنا، وأمرنا، وخلقنا، وقضينا، دليل على جهلهم بلغتهم العربية، أو تجاهلهم، فإن الضمير في فعلنا ونفعل لا ينحصر في المتكلم ومعه غيره، بل يستعمل كذلك في كلام المعظم نفسه، والله تعالى عظيم يعظم نفسه ويعظمه الصالحون من خلقه، إلا أنهم لا يعظمونه بخطاب الجمع مراعاة لجانب التوحيد، وهذا واضح.

الفائدة السادسة: حب عمر ﷺ أن يرسل أميراً مع وفد نجران لم يكن لغرض دنيوى، ولكن لما سمع النبى ﷺ يخبرهم أنه سيرسل معهم القوى الأمين أحب أن يكون هو الموصوف بذلك وإن فاتته هذه فله مناقب وفضائل أعظم منها، فهو أفضل الناس بعد أبى بكر الصديق باتفاق أهل السنة والجماعة.

الفائدة السابعة: - معنى الرب، هو المربى بنعمه، فكل من اعتقد فيه المشركون أنه يعطيهم الأولاد، أو يجعل الأم التى لا يعيش لها ولد يعيش أولادها، وتطول أعمارهم، أو يأتى بالنصر على الأعداء، وهو غائب أو ميت، أو يقتل بهيمته من لا يخضع بعبادته، أو يمرضهم أو يعطى المطر، أو يحفظ لمزروعات، أو يقضى الدين، أو يشفى المريض، أو ينور القلوب، ويخرجها من الضلال إلى الهدى إلى غير ذلك، فهو أحد أربابهم، فإن قال المشركون من أهل هذا الزمان: أنهم لا يسألون ذلك من المخلوقين، فإن الموحدون كلهم وغير

الموحدين من اليهود والنصارى والمشركين يكذبونهم، ودونك بعض الأدلة، قال أحد المشركين من أهل المغرب: يطلب النصر على الفرنسيين من الإمام إدريس بن عبد الله المدفون في زرهون من بلاد المغرب، لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس:

أمولاى يا ادريس يا بن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العسر واليسر

تكنفنا الأسد الضراة واننا ... على خطر إن لم تغثنا على الفور

والله تعالى يقول: ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾.

الثانى من عادة التجانيين إذا فرغوا من قراءة «الوظيفة» أن ينشدوا هذه الأبيات بلسان واحد:

يا أحمد التجاني يا نور القلوب ... أما ترى ما نحن فيه من كروب

أما ترى الضيم الذى أصابا ... وأنت غوث لم تزل مجابا

العجل العجل بالإغاثة ... يا من له كل العلا وراثة

ومن عادة الدرقاويين إذا فرغوا من قراءة «الحفيظة» أن ينشدوا بلسان واحد:

تشفع يا رسول الله فينا ... فما نرجوا الشفاعة من سواكا

أغث يا خير خلق الله قوما ... ضعافا ظلمهم أبدا لسواكا

وأسرع في إغاثتنا فإنا ... نرى المولى يسارع في رضاكا

انظر آخر كتاب: « الهدية الهادية إلى الطائفة التجانية » وكذلك كتاب « الابريز في مناقب الشيخ عبد العزيز الدباغ» وكتاب: «الطبقات الكبرى» للشعراني وسائر كتب المتصوفة المتأخرين، فإنها مشحونة بالأدلة على أن مشركى هذا الزمان اتخذوا المخلوقين أرباباً من دون الله، وهذا خلاف الإسلام الذى جاء به جميع الرسل، وخاتمهم وأفضلهم محمد رسول الله ﷺ وعليهم السلام، وهذه الآية حجة على كل مشرك من الأولين والآخرين، وقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا** ﴾ يعم جميع الأشياء من أهل السموات والأرض، لو كان المشركون يعلقون لكفتهم هذه الآية.

الفائدة الثامنة: - قوله: في المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش، معنى مادهم فيها: أى تصالح معهم على المهادنة وترك المحاربة عشر سنين في غزوة

الحديبية، فنقضت قريش هذه المعاهدة بعد مدة قليلة، فتوجه النبى ﷺ إلى فتح مكة بعشرة آلاف مقاتل، وفتحها سنة ثمان للهجرة.

الفائدة التاسعة: - قال أبو سفيان: ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها، يعنى: لقد وقعت بيننا وبينه معاهدة صلح وهدنة، لا ندرى أيحافظ على المعاهدة أم يغدر، قال أبو سفيان: كنت حريصا على أن أتنقص محمدا ﷺ، ولكنى خفت أن يكذبنى أصحابى فلم أجد فرصة أدخل فيها شيئا من التنقص والتشكيك إلا هذه الكلمة، يؤيده قوله فيما سبق: فو الله لولا الحياء من أن يأثروا عنى كذبا لكذبت عنه.

الفائدة العاشرة: - أول شيء بدأ به أبو سفيان في الجواب عما يأمر به النبى ﷺ قوله: يقول: - اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما كان يعبد آباؤكم، فبدأ بالتوحيد الذي هو أول ما دعا إليه النبى ﷺ وأعظمه، وهو الأصل العظيم الذى يبنى عليه الإسلام، فمن جاء به وبمتممه وهو شهادة أن محمدا رسول الله، ومات على ذلك، يرجى له الخير وإن قصر في بعض الأعمال، ومن لم يجئ به لا ينفعه عمل.

الفائدة الحادية عشر: - قول هرقل لأبى سفيان: إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، يعنى إن كنت صادقا فيما وصفت به هذا النبى فإنه سينتصر هو ومن اتبعه من أمته علينا نحن معشر الروم وعلى جميع أعدائه وسيخرجوننا من بلاد الشام.

قال محمد تقى الدين: - وكذلك وقع، فإن عمر ﷺ أخرجهم من بلاد الشام، وسكنها المسلمون.

الباب الرابع

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ

مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الآية: ٦٥ إلى ٦٨

قال (ك) ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم كما قال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « اجتمعت نصارى نجران، وأحبار يهود، عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيم إلا يهوديا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيا، فأنزل الله تعالى ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ** ﴾ الآية أي كيف تدعون أيها اليهود إنه كان يهوديا وكان زمنه قبل أن تنزل التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر، ولهذا قال تعالى ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ** ﴾ الآية هذا الكلام على من حاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثه محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون، فأنكر الله عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليتها، ولهذا قال تعالى ﴿ **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا** ﴾ أي متحنفا عن الشرك، قاصدا إلى الإيمان ﴿ **وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ وهذه الآية كالتي تقدمت في سورة البقرة ﴿ **وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُواْ** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ يقول تعالى: أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل، الذين اتبعوه، وهذا النبي، يعني محمد ﷺ والذين آمنوا، من أصحابه المهاجرين والأنصار، ومن تبعهم بعدهم، وروى الترمذي وسعيد بن منصور والبزار وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لكل نبي ولاية من النبيين، فإن ولي منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام» ثم قرأ ﴿ **إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ**

بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ولى جميع المؤمنين برسله.

الباب الخامس

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ الآية: ٧٩ – ٨٠

قال (ك) قال محمد بن إسحاق، بسنده عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصرانى، يقال له الرئيس، أو ذاك تريد منا يا محمد ؟ وإليه تدعونا، أو كما قال، فقال رسول الله ﷺ: معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله، ما بذلك بعثنى، ولا بذلك أمرنى، أو كما قال ﷺ، فأنزل الله في ذلك من قوله **﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾** أى ما ينبغى لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة، أن يقول للناس: اعبدونى من دون الله، أى مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبى ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى، ولهذا قال الحسن البصرى: لا ينبغى هذا لمؤمن، أن يأمر الناس بعبادته، قال: ذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضا، يعنى أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى **﴿ اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾** وفي المسند والترمذي كما سيأتى أن عدى بن حاتم قال يا رسول الله ما عبدوهم، قال بلى: أنهم أحلوا لهم الحرام، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم، فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به وبلغتهم إياه رسله الكرام، وإنما ينهون عما نهاهم الله عنه وبلغتهم

إياه رسله الكرام، فالرسل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، هـم السـفراء بـين الله وبـين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة، وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلـق، وبلغوهم الحق، وقوله ﴿ وَلَـٰكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُـونَ الْكِتَـابَ وَبِمَـا كُنـتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس: كونوا ربانيين، قال ابن عباس وأبو رزيـن وغـير واحد: أي حكماء، علماء، وحلماء، وقال الحسن وغير واحد: فقهاء، وبمثل هذا قـال أكثـر السلف.

قال محمد تقي الدين: - يروى عن ابن عباس أنه قال: « الرباني: هو الذي يربي النـاس بصغار العلم قبل كباره»، ومعنى ذلـك أنـه يعلمهـم المسـائل السـهلة قبـل الصـعبة، وقـال الضحاك في قوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُـونَ ﴾ حـق علـى مـن تعلـم القرآن أن يكون فقهيا، تعلمون، أي تفقهون معناه، وقرئ: تعلمـون بالتشـديد مـن التعليـم ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ تحفظون ألفاظه، ثم قال تعالى ﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِـذُواْ الْمَلاَئِكَـةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا ﴾ أي ولا يـأمركم بعبـادة أحـد غـير الله لا نـبي مرسـل، ولا ملـك مقـرب، ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي لا يفعل ذلك إلا مـن دعـا إلى عبـادة غـير الله، ومن دعا إلى عبادة غير الله، فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبـادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعـالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُـولاً أَنِ اعْبُـدُواْ اللَّـهَ وَاجْتَنِبُـواْ الطَّاغُوتَ ﴾ وقال تعـالى ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وقال إخبارا عن الملائكة ﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيـهِ جَهَـنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾.

قال محمد تقي الدين في هذا الكلام فوائد:

الأولى: أن سبب نزول الآيتين أن أحبار اليهود والنصارى من أهل نجـران اجتمعـوا عنـد النبي ﷺ فقال اليهود: أتريد يا محمد أن نعبدك كمـا عبـدت النصـارى عيسـى بـن مـريم ؟ فأنكر النبي ﷺ ذلك أشد الإنكار، وقال لهم معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نـأمر بعبـادة غـير الله، ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، وهذا الذي قـال النبـي ﷺ، هـو قـول جميـع النبـيين

والمرسلين، وجميع عباد الله الصالحين، من لدن آدم إلى يوم القيامة.

الثانية: أن النصارى الذين ينسبون إلى عيسى أنه أمرهم أن يتخذوه ربا، كاذبون على عيسى بشهادة نصوص القرآن والأناجيل الأربعة التى ينسبون إليها ذلك، وعلى ما فيها من التحريف والتبديل والتغيير، لا تزال فيها نصوص صريحة تشهد عليهم بأن عيسى قال لهم: إنما أنا بشر، ولا يعبد إلا الله، انظر كتاب «البراهين الإنجيلية» على أن عيسى داخل في العبودية، وبرئ من الألوهية، لمؤلف هذا الكتاب، وقد أمر بطبعه رئيسنا الجليل الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز أجزل الله ثوابه، وترجم بالانجليزية، ونشر ضمن المجلد الرابع من ترجمة صحيح البخاري للدكتور محمد محسن، فكل من نسب إلى نبى، أو عبد صالح أنه يرضى بعبادة غير الله تعالى، فقد أساء إليه وكذب عليه.

الثالثة: أن هؤلاء المشركين الذين يعبدون قبور الصالحين وأرواحهم ويزعمون أنهم بهذه العبادة ينالون رضا الله وقضاء حاجاتهم العاجلة والآجلة، ليس لهم علم ولا عقل، أما العلم فلأن نصوص القرآن والسنة في غاية الوضوح، دالة على أن من أشرك بالله في عبادته أو ربوبيته كافر يائس من رحمة الله في الدار الآخرة، خالد في جهنم أبدا وقد ذكر الحافظ ابن كثير فيما نقلت عنه هنا بعض الآيات المصرحة بذلك، ولو لم يكن في القرآن من ذلك إلا هاتين الآيتان، لكانتا كافيتين في بيان ذلك لكل من يقرأ القرآن، ويعرف اللغة العربية، ولكن من طبع الله على قلبه وأعمى بصره، لا حيلة فيه، وأما العقل، فإن كل عاقل يعلم أن المتصرف في هذا العالم بالعطاء والمنع هو خالقه سبحانه وتعالى، وأن المخلوق كيفما كانت منزلته عالية لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فكيف بغيره إلا أن العقل وحده لا يستطيع أن يحقق التوحيد بدون الاستضاءة بأنوار الوحى، ولذلك لم يجعله الله وحده حجة على الناس، فقال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾.

الباب السادس

قال تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ آل عمران: ٨٣ - ٨٥

يقول تعالى منكرا على من أراد دينا سوى دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، الذي له أسلم من في السموات والأرض، أي استسلم له من فيها طوعا وكرها الآية، وقال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ [1] فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى يخالف ولا يمانع، ثم قال تعالى: ﴿ **قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا** ﴾ يعنى القرآن ﴿ **وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ أي من الصحف والوحى ﴿ **وَالأَسْبَاطِ** ﴾ وهم بطون بنى إسرائيل من أولاد إسرائيل، وهو يعقوب الاثنى عشر ﴿ **وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى** ﴾ يعنى بذلك التوراة والأنجيل ﴿ **وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ** ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿ **لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ** ﴾ يعنى بل نؤمن بجميعهم ﴿ **وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾، فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبى أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك، بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله، ثم قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ الآية، أي من سلك طريقا سوى ما شرعه الله، فلن يقبل منه ﴿ **وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ كما قال النبى ﷺ في الحديث الصحيح « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم بسنده عن أبي هريرة إذ ذاك ونحن بالمدينة، قال: قال رسول الله ﷺ «تجيء الأعمال يوم القيامة،

(١) النحل

فتجئ الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، وتجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة فيقول: إنك على خير، ثم يجئ الصيام، فيقول: يا رب أنا الصيام، فيقول إنك على خير، ثم تجئ الأعمال، كل ذلك يقول الله إنك على خير، ثم يجئ الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله تعالى: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطى، قال الله في كتابه: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾. تفرد به أحمد

فائدة

قال محمد تقي الدين: دين الله الذي لا يقبل من أحد سواه بعد بعثه محمد ﷺ هو الإسلام، والإسلام الصحيح الذي يسعد صاحبه في الدنيا والآخرة، هو الإسلام النقى لله تعالى إيمانا وعبادة وإخلاصا، فلا يتوجه العبد إلى غيره لطلب نفع أو لدفع ضر، ولا يتحاكم إلا إلى شرعه، ولا يرضى إلا به، أما الإسلام الظاهر وهو الانقياد للإسلام ظاهراً مع إضمار الإنحراف والتكذيب، فهو دين المنافقين، وهم في الدرك الأسفل من النار، وكذلك الإسلام الذى يشرك صاحبه بالله تعالى في عبادته بالدعاء والاستغاثة، والذبح والنذر، والتوكل والخوف، والرجاء، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، فإنه لا ينفع صاحبه ولا ينجيه من الخلود في نار جهنم، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾، وقوله تعالى في سورة النساء ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ ومعنى حديث أبى هريرة، أن الأعمال كلها من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد لا يتقبل شيء منها إلا مع الإسلام الصحيح، لقوله تعالى في الحديث: بك اليوم آخذ، وبك أعطى.

الباب السابع

قال تعالى: ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾ آل عمران: آية ٩٥

قال (ك) في تفسيرها، قال تعالى ﴿ **قُلْ صَدَقَ اللَّهُ** ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما أخبر

به، وفيما شرعه في القرآن، ﴿ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى اتبعوا ملة إبراهيم التى شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، وهي الطريقة التى لم يأت نبى بأكمل منها ولا أبين ولا أوضح ولا أتم كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [١] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [٢] أ. هـ.

قال محمد تقى الدين: وكل من عبد شيوخ الصوفية بالاستمداد منهم، أو عبد قبور الصالحين أو الطالحين بالذبح والنذر والطواف والتمسح وإقامة الأعياد حولها، فلم يتبع ملة إبراهيم، ولم يكن حنيفا.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ آل عمران: آية ١٠٢

قال (ك): قال ابن أبى حاتم: وذكره سنده إلى عبد الله بن مسعود ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، ثم قال: وهذا إسناد صحيح موقوف، ورواه الحاكم في مستدركه مرفوعا، وقال صحيح على شرط الشيخين.

قال (ك) والأظهر، أنه موقوف، وقال جماعة من السلف أنها منسوخة بقوله تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ في سورة التغابن، وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ قال لم تنسخ، ولكن ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم، وقوله ﴿ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه

---

(١) الأنعام.

(٢) النحل.

فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه، أنه من عاش على شيء مات عليه ومن مات على شيء بعث عليه، فيعاذا بالله من خلاف ذلك، ثم قال: قال الإمام أحمد: وذكر سنده إلى عبد الله بن عمرو، قال، قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤتى إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه».

فائدتان:

قال محمد تقي الدين: الأولى قوله تعالى ﴿ **وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ ليس المراد به الإسلام الظاهر فقط، لأنه لا ينجي صاحبه من عذاب الله ولا يوصله إلى رضوان الله، فإن المنافقين كانوا مسلمين فيما يظهر للناس، وهم كافرون، بل المراد، الإسلام بالقلب واللسان والجوارح، مع تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك وأهله، فإذا عاش الإنسان على هذا الإسلام يرجى من فضل الله ورحمته أن يموت على ذلك كما ذكره ابن كثير.

الثانية: من المعلوم أن قوله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ من سورة التغابن وهي مكية، وقوله تعالى ﴿ **اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ** ﴾ من آل عمران، وهي مدنية، والآية المكية متقدمة على الآية المدنية، فكيف تنسخها، فالقول بالنسخ سهو، والصواب أنها محكمة كما قال ابن عباس، أ هـ.

سورة النساء

الباب الأول

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الآية: ٣٦

قال (ك) يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا

من مخلوقاته، كما قال النبى ﷺ لمعاذ بن جبل « أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قال الله ورسوله أعلم، قال أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا، ثم قال أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم» ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، فإن الله سبحانه جعلهما سببا لخروجك من العدم إلى الوجود، وكثيرا ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين، كقوله ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [1] وكقوله ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [2] ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء، كما جاء في الحديث «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة» ثم قال تعالى ﴿ الْيَتَامَى ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم، والحنو عليهم، ثم قال ﴿ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ وهم المحاويج من ذوى الحاجات، الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم، وتزول به ضرورتهم، وسيأتى الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة، وقوله ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس، والجار ذى القربى، يعنى الذى بينك وبينه قرابة، والجار الجنب الذى ليس بينك وبينه قرابة، وكذا روي عن جماعة من مفسري السلف، وقال جابر الجعفي، عن الشعبي، عن على وابن مسعود، والجار ذى القربى، يعنى المرأة، قال مجاهد: أيضا في قوله ﴿ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴾ يعنى الرفيق في السفر، وقد وردت الأحاديث بالوصايا بالجار، فلنذكر منها ما تيسر والله المستعان.

«الحديث الأول»: قال البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

«الحديث الثاني »: روى الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال «خير الأصحاب عند الله، خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره ». قال الترمذي حديث حسن غريب.

---

(١) لقمان.

(٢) الإسراء.

«الحديث الثالث »: قال الإمام أحمد بسنده عن المقداد بن الأسود يقول: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون في الزنا ؟ قالوا: حرام، حرمه الله ورسوله، وهو حرام إلى يوم القيامة، فقال رسوله الله ﷺ: لأن يزنى الرجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزنى بحليلة جاره، قال: ما تقولون في السرقة ؟ قالوا حرمها الله ورسوله، فهى حرام إلى يوم القيامة، قال: لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره» تفرد به أحمد، وله شاهد في الصحيح من حديث ابن مسعود قلت: يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت ثم أي، قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي ؟ قال: أن تزانى حليلة جارك».

الحديث الرابع: قال أبو بكر البزار بسنده عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وهو أدنى الجيران حقا، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق، وهو أفضل الجيران حقا، فأما الجار الذي له حق واحد، فجار مشرك لا رحم له، له حق الجوار، وأما الجار الذي له حقان، فجار مسلم، له حق الإسلام، وحق الجوار، وأما الذي له ثلاثة حقوق، فجار مسلم، ذو رحم، له حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم.

الحديث الخامس: روى أحمد وانبخاري عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، فقالت: أن لى جارين فإلى أيهما أهدى ؟ قال إلى أقربهما منك بابا».

وقوله تعالى ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾، وصية بالأرقاء، لأن الرقيق ضعيف الحيلة، أسير في أيد الناس، فلهذا ثبت أن رسول الله ﷺ جعل يوصى أمته في مرض الموت يقول: الصلاة الصلاة، وما ملكت إيمانكم، وجعل يرددها حتى يفيض بها لسانه، وقال الإمام أحمد بسنده عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»، ورواه النسائي من حديث بقية، واسناده صحيح، ولله الحمد، وعن عبد الله بن عمرو أنه قال لقهرمان له « هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال: لا، قال فانطلق فأعطهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «كفى المرء إثما أن يحبس عمن يملك قوتهم». رواه مسلم، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: «للمملوك طعامه وكسوته، ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق»، رواه مسلم،

وعن أبى ذر ﵁ عن النبى ﷺ، قال: «هم إخوانكم، جعلهم الله تحت إيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»، أخرجاه.

قال محمد تقى الدين: اشتمل هذا الباب أولاً، على توحيد الله في عبادته، والنهى عن الشرك به، وقوله تعالى ﴿ **وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا** ﴾ جاءت شيئا نكرة في سياق العموم، تعم كل شيء من الملائكة، والأنبياء الصالحين، وغيرهم، ويشتمل على الحقوق الواجبة على الإنسان للأقارب والاباعد، ممن لهم به علاقة، وذلك من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم فمن وفى بذلك، كان من خير خلق الله، وإذا وجدت أمة تحافظ على توحيد الله، وهذه الأخلاق، تكون أسعد الأمم في دينها ودنياها وبالله التوفيق أ. هـ.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء آية: ٤٨

قال (ك): قال عز وجل ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ** ﴾ الأية، وقال ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ** ﴾ [1].

قال محمد تقى الدين: قرئ على تفسير ابن كثير لهذه الآية، فوجدت في النسخة التى بأيدينا حديثا ذهب أوله، وأنا أحفظ هذا الحديث ولكن لم أعتمد على حفظى، فنظرت في الجامع الصغير، فوجدت الأمر كما ظننت، فقد حذف فى هذه النسخة، وهى مطبوعة فى مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٣٧٢ هـ الطبعة الثانية، وقد كتب فى أول صفحة ما نصه: قوبلت هذه الطبعة على عدة نسخ خطية بدار الكتب المصرية، وصححها نخبة من العلماء، فأقول: سبحانك هذا بهتان عظيم، كيف تتفق عدة نسخ خطية على إسقاط ثلاث وعشرين كلمة من الحديث؟ وكيف جاز على نخبة من العلماء أن لا يتفطنوا إلى هذا الخلل ؟

---

(١) المائدة.

والحقيقة: أن الكتب التى يطبعها التجار مضيعة، فلا مقابلة فيها ولا تصحيح، وبذلك يقع التغيير والتبديل والحذف، فلا تكاد تجد فى أكثر بلاد المسلمين مطبعة واحدة يوثق بها ! على حين المطابع في البلاد الأوربية يبذل أهلها أقصى العناية بكل ما يطبعونه، فكثير من المطابع في البلاد الأوربية، وبجرمانية يعلن أصحابها في كل كتاب يطبعونه، أن كل من وجد لهم خطأ في مطبوعاتهم، يعطونه خمسمائة مارك ! فشتان ما بين الفريقين – والساقط من هذا الحديث في هذه النسخة، هو من أوله، إلى قوله: «وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به » وسأثبته كلاما فأقول: قال صاحب الجامع الصغير في حرف الدال: الدواوين ثلاثة، فديوان لا يغفر الله منه شيئا، وديوان لا يعبأ الله به شيئا، وديوان لا يترك منه شيئا، فأما الديوان الذى لا يغفر الله منه شيئا، فالإشراك بالله، وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا، فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله يغفر ذلك إن شاء، ويتجاوز، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا، فمظالم العباد، بينهم القصاص لا محالة «حم ك» يعنى أخرجه الإمام أحمد والحاكم أ هـ ثم **قال (ك)** الحديث الثانى: قال البزار: وذكر سنده عن أنس ابن مالك عن النبى ﷺ قال: « الظلم ثلاثة، فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره الله، وظلم لا يترك الله منه شيئاً، فأما الظلم الذى لا يغفره الله، فالشرك، وقال: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [1] وأما الظلم الذى لا يغفره الله، فظلم العباد لأنفسهم، فيما بينهم وبين ربهم، وأما الظلم الذى لا يتركه، فظلم العباد بعضهم بعضا، حتى يدين لبعضهم من بعض».

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد في مسنده: أن أبا ذر حدثه عن رسول الله ﷺ قال: «أن الله يقول: يا عبدى ما عبدتنى وما رجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا، لقيتك بقرابها مغفرة»، تفرد به أحمد من هذا الوجه.

الحديث الرابع: أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ قال: « ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن

---

(١) لقمان.

سرق ؟ قال: وإن زنى وإن سرق، قلت. وإن زنى وإن سرق ؟ قال: وإن زنى وإن سرق، ثلاثا، ثم قال في الرابعة: على رغم أنف أبى ذر، قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو يقول: وإن رغم أنف أبى ذر » وكان أبو ذر يحدث بهذا بعد، وهو يقول: وإن رغم أنف أبى ذر، وقوله: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾، كقوله: ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [1] أ. هـ.

قال محمد تقى الدين: قول النبى ﷺ: « ما من عبد قال لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك، إلا دخل الجنة » يجب أن يقيد بما دلت عليه الأدلة الأخرى، ويفهم منها شروط ثلاثة، أولها: أن يقولها بلسانه، وإن كان قادراً، وثانيها، أن يعرف معناها، ويعتقده بقلبه، ثالثهما، أن يعمل بمقتضاها، أما قولها بدون مراعاة هذه الشروط، فلا تنفع صاحبها شيئا، لأن المنافقين كانوا يقولونها بألسنتهم وهم في الدرك الأسفل من النار، وهم شر من الكفار والمسيئين لكفرهم، ونرى في هذا الزمان كثيراً من الناس يقولون لا إله إلا الله، وهم يشركون بالله، بالدعاء والذبح، والنذر، والحلف، والخوف بالغيب، والتوكل، والرجاء، والصدقة لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والاستعاذة بغيره، والتحاكم إلى غير شرعه، وتحليل ما حرم الله، إلى غير ذلك من أعمال الكفر، وبعض هؤلاء يجهل معناها، فيظن أن الإله المنفى فيها، هو الرب الخالق الرازق المحيى المميت ! وهذا جهل عظيم، فإن هذا توحيد الربوبية، وقد كان المشركون في زمان النبى ﷺ يوحدون الله تعالى في ربوبيته، ويشركون به في عبادته، فلم ينفعهم ذلك التوحيد شيئاً، قال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ [3].

---

(١) لقمان.

(٢) لقمان.

(٣) العنكبوت.

الباب الثالث

قال الله تعالى في سورة النساء: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الآيتان: ٨٧ – ٨٨

قال (ك) قوله: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات، وتضمن قسما لقوله ﴿ **لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم، فقوله: ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ خبر وقسم، أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيجازي كل عامل بعمله، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا** ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ثم يقول تعالى منكرا على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولهم، واختلف في سبب ذلك، فقال الإمام أحمد بسنده عن زيد بن ثابت: «أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ [1] فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فأنزل الله ﴿ **فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ** ﴾ فقال رسول الله ﷺ: أنها طيبة وأنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد» أخرجاه في الصحيحين، وقد ذكر محمد بن إسحاق ابن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش، رجع بثلاثمائة، وبقي النبي ﷺ في سبعمائة.

وقوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم** ﴾ أي ردهم ودفعهم في الخطأ، وقال قتادة: أهلكهم وقوله: ﴿ **بِمَا كَسَبُواْ** ﴾ أي بسبب عصيانهم، ومخالفتهم الرسول، واتباعهم الباطل، قوله تعالى ﴿ **أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً** ﴾ أي لا طريق إلى الهدى

(١) قال المؤلف الصواب حذف كلمة (فيهم) .

ولا مخلص له إليه أ هـ.

قال محمد تقى الدين: أخبر الله تعالى وهو أصدق القائلين، أنه لا إله إلا هو، أي لا يعبد سواه، ولا يتخذ إله غيره، ومن دعا غير الله أو استغاث به أو طلب المدد منع كهداية القلوب وانشراح الصدور، أو نذر لغيره، أو ذبح له، وتمسح به، فقد اتخذه إلها من دون الله، ونقض معنى لا إله إلا الله جهلا او عناداً، فلا ينفعه قولها، وعداوة المنافقين واجبة، فمن اتخذهم أولياء فقد تعرض لسخط الله تعالى وغضبه، قال تعالى في سورة التوبة **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ النساء آية: ١٢٥

قال (ك) قال قتادة ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله، وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، ونبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب التى كانت قبله، فأنزل الله **﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾**. ثم أفلح[1] حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان، وكذا روى العوفى عن ابن عباس ﷺ قال: في هذه الآية تخاصم أهل الأديان، فقال أهل التوراة كتابنا خير الكتب، ونبينا خير الأنبياء، وقال أهل الأنجيل: مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام وكتابنا نسخ كل كتاب. ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا، فقضى الله بينهم، وقال: **﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ**

---

(١) كذا بالنسخة التى بين أيدينا وفيه نظر لأن أفلح لا يتعدى بنفسه إلى المفعول به.

سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ الآية، وخير بين الأديان، فقال: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾. ثم قال (ك) ومعنى هذه الآية، أن الدين ليس بالتحلى ولا بالتمنى، ولكن ما وقر في القلوب، وصدقته الأعمال، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه، ولا كل من قال أنه هو على الحق، سمع قوله بمجرد ذلك، حتى يكون له من الله برهان، ولهذا قال بعده ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ كقوله ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [1]. وقد روى أن هذه الآية لما نزلت، شق ذلك على كثير من الصحابة، قال الإمام أحمد: وذكر سنده عن أبى بكر، قال: «يا رسول الله، كيف الفلاح بعد هذه الآية ؟ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ فكل سوء عملناه جزينا به، فقال النبى ﷺ: غفر الله لك يا أبا بكر، ألست تمرض ؟ ألست تنصب ؟ ألست تحزن، ألست تصيبك الأدواء ؟ قال بلى، قال فهو مما تجزون به» أ هـ.

قال محمد تقى الدين: الدين إسلام الوجه لله تعالى واتباع ملة إبراهيم الحنيفية لا يجتمع أبدًا مع دعاء غير الله وعبادة القبور والاستمداد من أرواح الشيوخ بل هذا ضد الحنيفية.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا

---

(١) الزلزلة

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ النساء آيات: ١٧١ - ١٧٥

قال (ك) ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى، حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياه، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في اتباعه، واتباعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم المعصية، واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحا أو كذبا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [1]، الآية. وقال الإمام أحمد: وذكر سنده عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، قال على بن المديني: هذا حديث صحيح مسند، ورواه البخاري، ولفظه: «فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله». وقال الإمام أحمد: بسنده عن أنس بن مالك، أن رجلا قال: يا محمد، يا سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، عليكم بقولكم، ولا سيتهوينكم الشيطان، أنا محمد ابن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل». وقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾ أى لا تفتروا عليه، وتجعلوا له صاحبة وولدا، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ولهذا قال: ﴿ **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ**

---

(١) التوبة.

مِّنْهُ ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله، وخلق من خلق الله، قال له: كـن، فكـان، ورسـول مـن رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسـل بهـا جبريـل عليـه السـلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، وكانت تلك التـى نفخهـا في جيـب درعهـا، فنزلت حتى ولجت فرجها، بمنزلة لقاح الأب الأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهـذا قـال لعيسى: أنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هـو ناشـئ عـن الكلمـة التى قال له بها كن، فكان، والروح التى أرسل بها جبريل، قال الله تعـالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ (١). وقـال تعـالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ (٢) وقال تعـالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ ﴾ (٤) إلى آخره، وقد بين ابن أبي حاتم بسـنده عـن شـاذان بن يحيى يقـول في قـول الله ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْـهُ ﴾ لـيس الكلمـة صـارت عيسى، ولكن بالكلمة صار عيسى، وهذا أحسن مما ادعى ابن جرير في قولـه ﴿ أَلْقَاهَا إِلَـى مَرْيَمَ ﴾ أى أعلمها بها، كما زعمه في قوله: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ (٥) أى يعلمك بكلمة منه، ويجعل ذلك كقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْـكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ (٦) بل الصحيح، إنها الكلمة التـى جـاء بهـا جبريـل إلى مـريم فنفخ فيها بإذن الله، فكان عيسى عليه السلام، وقال البخاري، بسنده عن عبادة بن الصامت عن النبـى ﷺ قـال: «مـن شـهد أن لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك لـه، وأن محمـدا عبـده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مـريم وروح منـه، وأن الجنـة حـق،

(١) المائدة.
(٢) آل عمران.
(٣) آل عمران.
(٤) الأنبياء.
(٥) التحريم.
(٦) آل عمران.

وأن النار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، وقوله ﴿ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ كقوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (١) أي من خلقه، ومن عنده، وليست ﴿ مَن ﴾ للتبعيض كما تقول النصارى، بل هى لابتداء الغاية، كما في الآية الآخرى، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿ هَـذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ (٢) وفي قوله ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ ﴾ (٣) وقوله ﴿ فَـآمِنُواْ بِاللَّـهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٤) أى فصدقوا بأن الله واحد أحد، لا ولد له، ولا صاحبة، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وهذه الآية، والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ ﴾، كما قال في آخر السورة المذكورة: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي ﴾ الآية، وقال في أولها: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ الآية، والنصارى من جهلهم ليس لهم ضابط ولا لكفرهم حد، بل أقوالهم باطلة، وضلالهم منتشر، فمنهم من يعتقده إلها، ومنهم من يعتقده شريكاً، ومنهم من يعتقده ولدا، وهم طوائف كثيرة، لهم آراء مختلفة، وأقوال غير مؤتلفة، ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا على أحد عشر قولاً، ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم، وهو سعيد بن بطريق، في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية، أنهم اجتمعوا المجمع الكبير، الذى عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم، وإنما هى الخيانة الحقيرة الصغيرة، وذلك في أيام قسطنطين بانى المدينة المشهورة، وأنهم اختلفوا عليه، اختلافا لا ينضبط ولا ينحصر، فكانوا أزيد من ألفى أسقف فكانوا أحزابا كثيرة، كل خمسين منهم على مقالة وأزيد من ذلك وأنقص، فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفرا، قد توافقوا

---

(١) العنكبوت.

(٢) الجاثية

(٣) الأعراف

(٤) الحج

على مقالة، فأخذها الملك ونصرها وأيدها وكان فيلسوفا داهية، وترك ما عداها من الأقوال، وانتظم دستور أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتبا وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التى يلقنونها الولدان من الصغار يعتقدوها، ويعمدونهم عليها واتباع هؤلاء هم الملكية، ثم أنهم اجتمعوا مجمعا ثانيا فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعا ثالثاً فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقانيم الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحد أو ما اتحد، أو امتزاجا، أو حل فيه على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاث، ولهذا قال تعالى: ﴿ انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى تعالى وتقدس عن ذلك علوا كبيرا ﴿ وَلَّلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً ﴾ أى الجميع ملكه وخلقه، وجميع ما فيها عبيده، وهم تحت تدبيره وتصريفه ؟ وهو وكيل على كل شيء، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد، كما قال في الآية الأخرى ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [1] الآية، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [2]

قال محمد تقى الدين: في هذا الباب فوائد:

الأولى: غلو النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام، وهذا الغلو لا يقبله أى عقل سليم، ولا يتفق أبدا مع الفطرة التى فطر الله عليها عباده، فإن عيسى بشر ولدته امرأة، فتعالى الذى خلق السموات والأرض أن يكون في رحم امراة، ثم يرمى بالرضاعة والرعاية، ويجوع ويأكل، ويعطش ويشرب، ويتعب ويركب، ويمرض ويشفى، ولكن الدعاية الفاسدة تفسد فطرة بنى آدم، وتمسخ عقولهم حتى يعتقدوا مثل هذه العقيدة، انظر كتابى «البراهين الانجيلية» على أن عيسى داخل في العبودية ولا حظ في الألوهية.

---

(١) الأنعام.

(٢) مريم.

الثانية: تأمل قول النبى محمد ﷺ: «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، والحديث الذى بعده، ومع ذلك غلب الجهل على قوم فأطروه وعصوه، وقال قائلهم: لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقال:

يا أكرم الخلق مالى من الوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وقال فيما تخيله في شركه وجهله:

ومنذ ألزمت أفكارى مدائحه ... وجدته لخلاصى خير ملتزم

ومن يستطع تخليص بنى آدم من شدائدهم وكربهم وأمراضهم ومصائبهم إلا الله سبحانه لا شريك له، ومن الغريب أن هؤلاء الجهال من جهة يغلون في النبى ﷺ حتى يصفوه بصفات الله تعالى من علم الغيب، وكونه موجوداً في السموات والأرض، يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث من استغاث به، ويتصرف في ملكوت الله، بل وصفوا غيره من الصالحين وغير الصالحين بمثل ذلك، ومن جهة يخالفون سنته، ويعصون أمره، ولا يحكمون شريعته، ويعادون من اتبع سنته.

الثالثة: لماذا سمى عيسى كلمة الله وروح الله ؟ بينه الحافظ بن كثير غاية البيان، فأما كونه كلمة الله، فلإنه خلقه بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ فهو من تسمية المسبب باسم السبب، وأما كونه، روح الله، فالإضافة هنا، إضافة تشريف وتكريم، كقولنا رسول الله، وولى الله، وبيت الله وناقة الله، فإن الله تعالى جل وتقدس أن يحل في خلقه، أو يحل فيه شيء من خلقه، فهو مستو على عرش، مباين لخلقه.

سورة المائدة

الباب الأول

قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى

ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ الآيتان ١٧ و ١٨

قال (ك) يقول تعالى، مخبرا وحاكيا لكفر النصارى في اعتقادهم في المسيح ابن مريم — وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه — أنه هو الله، تعالى عن قولهم علوا كبيرا، ثم قال: مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿ **قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا** ﴾ ؟ أي لو أراد ذلك، فمن ذا الذى كان يمنعه منه؟ أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك ؟ ثم قال: ﴿ **وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء** ﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته، وهذا رد على النصاري، ثم قال تعالى: ردا على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ** ﴾ أى نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم، أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابنى بكرى، فحملوا هذا على غير تأويله، وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم، وقالوا هذا يطلق عندهم على التشريف والإكرام، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم، يعنى ربى وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم البنوة، ما ادعوه في عيسى عليه السلام، وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه، وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناؤا الله وأحباؤه.

قال الله تعالى ردا عليهم: ﴿ **قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم** ؟ ﴾ أى لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه فتلا

عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ وهذا الذى قاله، حسن، وله شاهد في مسند الإمام أحمد، وذكر سنده عن أنس قال: مر النبى ﷺ في نفر من أصحابه، وصبى في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ. فأقبلت تسعى وتقول: «أين ابنى» وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ! ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار، قال فخفضهم النبى ﷺ فقال: «لا والله ما يلقى الحبيب حبيبه في النار».

قال محمد تقى الدين: في هذا الكلام اختلال، وهو هكذا في النسخة التى بين أيدينا والمعنى: - أن الله يحب عباده الصالحين، فلا يلقيهم في النار ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ﴾ أي فعال لم يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب. ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه ﴿ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي المرجع والمآب إليه، فيحكم في عباده ما يشاء وهو العادل الذى لا يجور.

قال محمد تقى الدين: لله در الحافظ ابن كثير: ما أوسع إطلاعه فمع تبحره في علوم الكتاب والسنة والتاريخ، درس عقيدة النصارى واليهود فصار يرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقرارهم. ونص ترجمة ما جاء في الإنجيل.

إن عيسى قال لهم: إنى ذاهب إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » أ هـ. فقوله «وإلهى وإلهكم» يثبت أن الله ربه وربهم، وكلهم عبيده فلا فرق بين المسيح وبين أتباعه في العبودية.

الثانية: وجه استنباط هذا الصوفى ما استنبطه من الآية، أن اليهود والنصارى زعموا أنهم أحباء الله، فكذبهم الله تعالى وأقام البرهان على كذبهم بتعذيبه إياهم في الدنيا بالمصائب، وفي الآخرة بعذاب النار كما يعذب غيرهم، فعلم من ذلك أن الحبيب لا يعذب حبيبه.

الثالثة: حديث الإمام أحمد في قصة المرأة التى خافت على ولدها أن يطأه الجيش، اذكر أنى رأيت هذا الحديث في بعض كتب الحديث بغير هذا اللفظ ومعنى ما رأيته أن النبى ﷺ لما رأى المرأة تسعى لتأخذ ولدها قال لأصحابه أترون هذه طارحة ولدها في النار ؟ قالوا لا يا رسول الله قال فإن الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها. قال تعالى: ﴿ وَكَانَ

بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ « سورة الأحزاب»

الباب الثاني

قال تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ المائدة آيات ٥١ - ٥٧

قال (ك) ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال: **﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾** قال ابن أبي حاتم: بسنده عن عياض، أن عمر أمر أبا

موسى الأشعرى أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد، وكان له كاتب نصراني، فرفعه إليه ذلك، فعجب عمر ! وقال له: هل أنت قارئ لنا كتابا في المسجد جاء من الشام ؟ فقال أنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال لا، بل نصرانى ! قال: فانتهرنى وضرب فخذى، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء ﴾ ثم روى ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن سيرين قال: قال عبد الله بن عتبة يتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر ! قال، فظنناه يريد هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر، ﴿ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم، أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك، عند ذلك قال تعالى: ﴿ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾. قال السدي: يعنى، فتح مكة، وقال غيره: يعنى القضاء والفصل ﴿ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾. قال السدي: يعنى ضرب الجزية على اليهود والنصارى ﴿ فَيُصْبِحُواْ ﴾ يعنى الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿ عَلَى مَا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ من الموالاة ﴿ نَادِمِينَ ﴾ أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئا ولا دفع عنهم محذورا، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، بعد أن كانوا مستورين لا يدرى كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك، ويتأولون، فبان كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴾ قال ابن جريج عن مجاهد ﴿ فَعَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ تقديره، حينئذ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ ﴾، وروى ابن جرير في سبب نزول هذه الآية، أنه لما وقعت الحرب بين النبى ﷺ وبين بنى قينقاع من يهود المدينة جاء عبادة بن الصامت ﷺ وكان حليف بنو قينقاع في الجاهلية، إلى

النبى ﷺ. فقال يا رسول الله: إنى أبرأ من بنى قينقاع، وأتولى الله ورسوله، وجاء عبد الله بن أبى – رأس المنافقين – فأخبر النبى ﷺ أنه ثابت على موالاة حلفائه في الجاهلية، بنى قينقاع، ففيهما نزل قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴾، إلى ﴿ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

قال (ك) يقول تعالى: مخبرا عن قدرته العظيمة، أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لهما منه، وأشد منعة وأقوم سبيلا، كما قال تعالى ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٢) أي بممتنع ولا صعب: وقال تعالى ههنا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ﴾ أى يرجع عن الحق إلى الباطل، قال الحسن البصري: نزلت في أهل الردة أيام أبى بكر ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، رواه ابن أبى حاتم، وقال ابن عباس: في قوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ هم: أهل القادسية وقوله تعالى ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل، أن يكون أحدهم متواضعا لأخيه ووليه، متعززا على خصمه وعدوه، كما قال تعالى ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ ﴾ (٣) وقوله عز وجل: ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله، وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، قال الإمام أحمد: وذكر سنده عن أبى ذر قال: «أمرنى خليلى ﷺ بسبع: أمرنى بحب المساكين، والدنو منهم، وأمرنى أن أنظر إلى من هو دونى، ولا أنظر إلى من هو فوقى وأمرنى أن أصل الرحم، وأن أدبرت، وأمرنى أن لا أسأل أحداً شيئاً، وأمرنى أن أقول الحق وأن كان مرا، وأمرنى أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرنى أن أكثر من قول

---

(١) محمد

(٢) فاطر.

(٣) الفتح.

لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش». وقال الإمام أحمد: بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه وشهده، فإنه لا يقرب من أجل، ولا يباعد من رزق، أن يقول وأن يذكر بعظيم»، تفرد به أحمد.

وروى أحمد وابن ماجه بسندهما عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**أن الله** يسأل العبد يوم القيامة حتى أنه يسأل يقول له: أي عبدي أرأيت منكر فلم تنكره ؟ فإذا لقن الله عبدا حجته، قال: أي رب و ثقت بك وخفت الناس» وثبت في الصحيح «ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ قال: يتحمل من البلاء ما لا يطيق». ﴿ **ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء** ﴾ أى مَن اتصف بهذه الصفات، فإنما هو من فضل الله عليه، وتوفيقه له ﴿ **وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ أي واسع الفضل، عليم بمن يستحق ذلك ومن يحرمه إياه، وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ** ا ﴾ أي ليس اليهود بأوليائكم، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين، وقوله ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من أقام الصلاة التى هي أكبر أركان الإسلام، وهي له وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة التي هى حق المخلوقين، ومساعدة للمحتاجين، من الضعفاء والمساكين، وأما قوله ﴿ **وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾ فقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله ﴿ **وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ** ﴾ أي في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع، أفضل من غيره، لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء، ممن نعلمه من أئمة الفتوى، وحتى إن بعضهم ذكر في هذا أثرا عن على بن أبى طالب، أن هذه الآية نزلت فيه، وذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه فأعطاه، خاتمة أ هـ.

قال محمد تقى الدين: وذكر **(ك)** أثارا تدل على أن هذه الآية نزلت في على بن أبى طالب، حين أعطى المسكين خاتمه وهو راكع، وقال: أنه لا يصح شيء منها، وقد تقدم في الأحاديث التى أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت ﷺ، حين تبرأ من حلف اليهود ورضى بالله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله ﴿ **وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ**

وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ كما قال تعالى ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [1] فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

وقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ الآية وهذا تنفير من موالاة أعداء الإسلام وأهله، من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون، وهى شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، ويتخذونها هزوا، يستهزءون بها، ولعبا يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما قال القائل:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

وقوله تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ ﴾ ﴿ من ﴾ ههنا لبيان الجنس كقوله: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ وقرأ بعضهم: والكفار بالخفض، عطفا، وقرأ آخرون: بالنصب على أنه معمول: ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء ﴾ وقوله: ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي اتقوا الله إن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء، إن كنتم بشرع الله الذى اتخذه هؤلاء هزوا ولعبا، كما قال تعالى: ﴿ لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللّهِ الْمَصِيرُ ﴾ [2].

قال محمد تقى الدين: - قول النبى ﷺ: «فإذا لقن الله عبده حجته، قال: أى رب، وثقت بك، وخفت الناس... » وثبت في الصحيح إلى آخره.. في هذا دليل على لطف الله ورحمته

---

(١) المجادلة

(٢) آل عمران

بعباده، فمن عجز عن تغيير المنكر بيده أو بلسانه، ورأى أن ذلك يوصله إلى الهلاك، ترك التغير باليد واللسان، واكتفى بتغيير المنكر بقلبه، والله سبحانه وتعالى يعذره بعجزه وضعفه.

الباب الثالث

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ الآيات ٧٢-٧٧

يقول تعالى: حاكما بتكفير فرق النصارى من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، فمن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علوا كبيرا، هذا وقد تقدم، أن المسيح عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد، أن قال إني عبد الله، ولم يقل أني أنا الله، ولا ابن الله، بل قال: ﴿ **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا** ﴾ إلى أن

قال: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [١] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته، آمرا لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ أى فيعبد معه غيره ﴿ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ أى فقد أوجب له النار، وحرم عليه الجنة، كما قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الْمَاء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [٣] وفي الصحيحين، أن النبي ﷺ قال: «بعث مناديا ينادي في الناس، أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وفي لفظ مؤمنة» وتقدم في أول سورة النساء عند قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ حديث يزيد بن أبى موسى عن عائشة: «الدواوين ثلاثة: فذكر منهم ديوانا لا يغفره الله وهو الشرك بالله» قال الله تعالى: ﴿ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ ﴾ والحديث في مسند أحمد، ولهذا قال تعالى: أخبارا عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ أى وما لهم عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم فيه، وقوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ قال (ك) اختلفوا، أى المفسرون، فقيل: المراد بذلك، كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة، وهى أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية، واليعقوبية، والنسطورية، تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متباينا فكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة، وقال السدي وغيره: نزلت في جعلهم المسيح وأمه الهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، بهذا الاعتبار، قال السدي: وهى كقوله تعالى في أخر السورة: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ وهذا القول، هو الأظهر والله أعلم،

(١) مريم.

(٢) النساء.

(٣) الأعراف

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى ليس متعددا، بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى: متوعدا لهم ومتهددا ﴿ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ﴾ أى هذا الافتراء والكذب: ﴿ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي في الآخرة، ثم قال: ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه، مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه، وقوله تعالى: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ أى له أسوة أمثاله من سائر المرسلين االمتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وقوله: ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ أى مؤمنة به، مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية، كما زعمه ابن حزم وغيره، ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالا منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، وبقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ [1] وهذا معنى النبوة، والذى عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيا إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ وقد حكى الشيخ ﴿ أبو الحسن الأشعرى رحمه الله الإجماع على ذلك، وقوله تعالى: ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ أى يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بإلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، ثم قال تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ﴾ أى نوضحها ونظهرها ثم قال تعالى: ﴿ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ أى ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ؟ وبأى قول يتمسكون ؟ وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون؟

وقال تعالى منكرا على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبينا له أنها لا تستحق شيئا من الإلهية، فقال تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ أى يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بنى آدم، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ

---

(١) القصص.

لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا ﴾ أى لا يقدر على دفع ضر عنكم، ولا إيصال نفع إليكم: ﴿ وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى السميع لأقوال عباده، العليم بكل شىء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئا، ولا يملك ضرا ولا نفعا لغيره ولا لنفسه، ثم قال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا ما أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح، وهو نبى من الأنبياء، فجعلتموه إلها من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديما: ﴿ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ ﴾ أى وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال، إلى طريق الغواية والضلال أ هـ.

قال محمد تقى الدين: - رأيت من المفيد لمن يقرأ هذا الكتاب، أن أنقل بعض الأدلة من الأناجيل الأربعة التى يؤمن بها النصاري في هذا الزمان، وهى واضحة الدلالة على أن عيسى عبد الله ورسوله، وليس إلها ولا ابن الله:

الأول: في الباب التاسع عشر من انجيل متى رقم ١٦ و ١٧، وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية، فقال له: لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله – أ هـ - ففى قوله «لا صالح إلا واحد وهو الله» اعتراف بعبودية المسيح لله تعالى، لأنه أراد بالصالح الكامل الذي لا يعتريه النقص بحال، وليس ذلك إلا الله تعالى.

وفى الفصل ٢١ من إنجيل متى رقم ٤٦ « وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خالفوا من الجموع، لأنه كان عندهم مثل نبى» وهذا من أقوى الحجج على القائلين بألوهيته لو كانوا يعقلون.

وفي إنجيل متى الفصل ٢٣ رقم ٨:: « وأما أنتم فلا تدعو أحدا سيدكم، فإن سيدكم – حتى المسيح – واحد» يعنى، وهو الله، لأن المسيح نهى الرجل أن يسميه سيدا، وأخبر أن السيد هو الله تعالى، وكل من سواه حتى المسيح عبيد، وقد حرفت هذه الآية في الترجمة العربية، أما الترجمة الإنجليزية فليس فيها تحريف.

وفي رقم ٩ من انجيل متى، ولا تدعوا لكم أبا على الأرض، لأن أباكم واحد، وهو الذى في السماء، أ هـ.

ومن ذلك تعرف أن الأبوة والبنوة بمعنى العلاقة بين الرب والعبد ثابتة في الإنجيل لجميع الناس، لا خصوصية للمسيح في ذلك أ هـ.

وفي الفصل ٢٤ رقم ٣٦ « أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلمها أحد من الناس، ولا ملائكة السماء، ولكن أبى وحده هو يعلمها » فهذا دليل قاطع على أن تلك الساعة لا يعلمها أحد إلا الله، ففيه دليل على أن علم المسيح قاصر كسائر البشر، والله وحده هو الذى أحاط بكل شيء علما، أ هـ.

وفي الفصل ٢٠ رقم ١٦ من يوحنا، قال لها يسوع « يا مريم، فالتفتت تلك وقالت له: ربونى ومعناه، يا معلم، قال يسوع: « لا تلمسنى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ولكن اذهبى إلى أخوتى وقولى لهم: إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم، فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت السيد وانه قال لها ذلك أ هـ.

أقول: فقد شهد المسيح أن الله إله وإلههم ولا فرق بينه وبينهم في العبودية، فمن زعم أن المسيح إله فقد كذب المسيح وكذب جميع الأنبياء والمرسلين.

قال محمد تقى الدين: – ولم أنقل هنا كل البراهين التي في الأناجيل، وهي تدل دلالة قطعية على عبودية المسيح، وأن الألوهية خاصة بالله سبحانه، ولاحظ فيها للمسيح، ولكن القسيسين والرهبان يخدعون أتباعهم، ويضلونهم وهم يعلمون أنهم كاذبون خادعون.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ الآية: ١٠٣

قال (ك) قال البخاري: بسنده عن سعيد بن المسيب قال: البحيرة التى يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة: كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء، أ هـ. قال صاحب اللسان: ومنه أى البحر، بمعنى الشق، قيل للناقة التي كانوا يشقون

في أذنها شقا بحيرة، وبحرت أذن الناقة بحرا شققتها وخرقنها، ابن سيده، بحر الناقة والشاة يبحرها بحرا: شق إذنها بنصفين، وقيل بنصفين طولا، وهى البحيرة، وكانت العرب تفعل بهما ذلك إذا نتجتا عشرة أبطن، فلا ينتفع منهما بلبن ولا ظهر وتترك البحيرة ترعى وتشرب الماء، ويحرم لحمها على النساء، ويحلل للرجال فنهى الله تعالى عن ذلك فقال: ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ** ﴾ ثم قال: قال أبو إسحاق النحوي: أثبت ما رويناه عن أهل اللغة، في البحيرة، أنها الناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكرا بحروا أذنها، أى شقوها وأعفو ظهرها من الركوب والحمل والذبح، ولا تذاد عن ماء ترده، ولا تمنع من مرعى، وإذا لقيها المعيى المتقطع به لم يركبها، وجاء في الحديث: «أن أول من بحر البحائر، وحمى الحامى، وغير دين إسماعيل، عمرو بن لحى» أ هـ كلام لسان العرب.

قال محمد تقى الدين: - وفيما نقله ابن منظور صاحب اللسان عن اللغويين، هنا تناقض، فقد نقل عن بعضهم أن لحم البحيرة يحرم على النساء دون الرجال عند أهل الجاهلية، ونقل عن أبى إسحاق النحوي، أنهم لم يكونو ا يذبحونها، يعنى لم يكونوا ينحرونها، فإن الإبل لا تذبح، وإنما تنحر، وفيه تناقض آخر، وهو أن بعضهم قال: إذا نتجت عشرة ابطن، وأبو اسحاق قال: إذا نتجت خمسة أبطن، ثم **قال (ك)** قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبة في النار، كان أول من سيب السوائل» والوصيلة: الناقة تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تثنى بعد بأنثى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامى كذا رواه مسلم والنسائي، ثم **قال (ك)** فعمرو هذا هو ابن لحى بن قمعة أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلّهِ مِمِّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا** ﴾ إلى آخر الآيات، وأما السائبة

فقال محمد بن اسحاق: هى الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهن ذكر سيبت فلم تركب، ولم يجز وبرها، ولم يحلب لبنها إلا لضيف أ هـ. وهناك أقوال في تفسير السائبة ذكرها (ك) تركتها اختصارا ثم **قال (ك)** وقوله تعالى: ﴿ **وَلَـكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ أى ما شرع الله هذه الأشياء، ولا هى عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك، وجعلوه شرعا لهم، وقربة يتقربون بها، وليس ذلك بحاصل لهم، بل هو وبال عليهم.

قال محمد تقى الدين: - كل من أشرك بالله، وعبد معه غيره من المخلوقين، سواء كان ملكا مقربا، أو نبيا مرسلا، أو صالحا تقيا، يختل دينه وعقله حتى يهبط إلى عبادة الحيوان الأعجم كاهل الهند الوثنيين الذين يعبدون البقرة الأنثى ولا يعبدون الثور، ويعبدون الفروج، وعبادة الحيوان الأعجم شائعة عند المشركين في كل زمان ومكان، فقد حدثنى شيخنا الورع التقى الزاهد محمد سيدى بن حبيب الله رحمة الله عليه: أن أحد العلماء في بلاد شنقيط كان له بقر كثير، وله رعاة، وكان يتفقد هذا البقر الفينة بعد الفينة، فذهب ذات يوم ليتفقد بقرة، فرأى الرعاة يمتاحون الماء من البئر ليملؤوا الحوض الذى يرده البقر، ويمنعون البقر من الورود حتى يمتلئ الحوض، إلا بقرة واحدة فإنها تقدمت لتشرب فلم يمنعها أحد، فقال للراعى: أمنع تلك البقرة حتى ترد مع سائر البقر فقال: يا سيدى هذه البقرة فيها بركة، فقد جربنا أننا كلما زجرناها أو ضربناها تموت بقرة أخرى ! فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويلكم، بلغ بكم الجهل إلى عبادة البقر، اضربها، فضربها، فماتت بقرة أخرى فأخبروه بذلك، فقال: اضربوها كل يوم ولو فنى البقر كله، فضربوها للمرة الثانية فماتت بقرة أخرى، ثم صاروا يضربونها فلا يموت شيء من البقر.

ورأيت في مصر ثيرانا وعجولا مسيبة معظمة تفعل كل يوم جرائم في المزارع وفي داخل البيوت فلا يتعرض لها أحد بسوء، يسمى كل واحد منها « عجل السيد » الجيم ينطق بها كافًا مفقودة في الوجه البحرى، أى الشمال، وجيما عربية في الوجه القبلى، أى الجنوب، وهذا عيب في عامة القراء والخطباء والمذيعين من المصريين، قل من يهتم به منهم، يغيرون نطق هذا الحرف بحرف عجمى لا وجود له في اللغة العربية الفصحى حاشا قراء القرآن،

فإنهم ينطقون بها نطقا صحيحاً، ثم نعود إلى الكلام على عجل السيد، فقلت لهم: وما معنى عجل السيد، قالوا ينذر الواحد من الناس إن ولدت له بقرته عجلا أن يهبه للسيد، أحمد البدوى المدفون في طنطا، وله موسم سنوى تشارك فيه الحكومة باحتفال عظيم يحضره عشرات الألوف حتى يموت بعض الناس من الزحام، وتكتب رقاع الشكايات والرغبات وتلقى في مكان معلوم في التابوت الذى على قبره، ولا يكاد يغير هذا المنكر إلا القليل من علماء مصر، وتجيء البغايا لحضور هذا الموسم فيتصدقن بفروجهن ! كما أخبرنى بذلك الشيخ عبد الرحمن حسن رحمة الله عليه، أخبرنى أن أخاه زنى بامرأة عند ضريح البدوى، ثم اجتمعنا بأخيه وهو أشيب، فسأله عن ذلك ؟ فأقر به، وقد شاع عندهم أن كل من زنى فى هذا الموسم عند قبر البدوى من الرجال والنساء فذنبه مغفور، لأن السيد أحمد البدوى بحر، والبحر لا تؤثر فيه النجاسة، وهذا الأمر قديم، فقد ذكر الشعراني في الطبقات الكبرى أن فقيها كان ينكر على الفساق ما يرتكبونه من الفواحش عند ضريح البدوى فأنكر عليهم ذات يوم ثم رجع إلى بيته فقدموا له سمكا فأخذ يأكل فغص بعظم صغير من عظام السمك ووقف فه حلقه لا يصعد ولا يهبط ثم تعفن الجرح فصار الصديد يخرج من فمه ولا يستطيع أن يأكل شيئاً، وإنما يتغذى بقليل من لبن الحليب وبقى على ذلك سنتين، فخطر في باله أن سبب هذه المصيبة إنكاره على الفساق فجورهم عند قبر السيد أحمد البدوى، فتاب إليه وندم، ففى الحال سقط صبى من الدرج إلى أسفل، فصاح الرجل صيحة عظيمة، فخرج العظم وبرئ الجرح، وهذا شر من عبادة أهل الهند للبقرة، أما عجل السيد فلا يزال يعيث فسادا في البساتين والبيوت، ينطح الصغار، ويأكل كلما وجد إليه سبيلا، وهو مقدس، لا يضرب ولا يمس بسوء، الناس كلهم يقدمون له العلف فيسمن سمنا فاحشا، حتى أنهم يضربون به المثل، فيقال: «فلان سمين زى عكل السيد» يعنى مثل عجل السيد، فإذا تم نموه، ساقوه باحتفال عظيم إلى ضريح السيد أحمد البدوى وذبحوه قربانا له وهذا من أعظم الجهل والكفر، ولما هدى الله أهل الريرمون من صعيد مصر في مديرية أسيوط، بدعوتى سنة ١٣٤١ هـ كانت عندهم عجول وثيران منذورة للسيد أحمد البدوى، فسألونى: ماذا يصنعون بها، أيذبحونها لله ويوزعون لحمها على الفقراء؟ فقلت لهم: لا تذبحوها لئلا

يوسوس لكم الشيطان فتقصدوا بها المخلوق بل بيعوها وتصدقوا بثمنها على الفقراء.

ومن عبادة البهائم ما حكى له ثقة من أهل طرابلس الغرب، أنه كان هنالك شيخ صوفى منقطع هو وأصحابه للعبادة، وكان له حمار يبعثه كل يوم يدور في القرية وعليه خرج فيمر على البيوت فيضع أهل كل بيت في الخرج ما تيسر من الطعام، ثم يرجع الحمار بذلك الطعام إلى الشيخ فيأكله وهو والمريدون، فلما مات الشيخ، وتفرق تلاميذه بقى الحمار بلا عمل فأخذ أهل القرية يقدمون له العلف ويتبركون به، فلما مات دفنوه وبنوا عليه قبه، وصاروا يعبدون قبره، ومن ذلك أن رجلا فرنسيا كان في المغرب يملك أراضى واسعة في زمان الاستعمار، وكان له كلب عزيز عنده فمات ذلك الكلب فدفنه وجصص قبره وبنى عليه قبة، فلما ثار المغاربة على الفرنسيين وأخذوا يقتلونهم حيثما وجدوهم، هرب ذلك الفرنسى إلى فرنسا، فلما استقل المغرب واستقرت أحواله وعم فيه الأمن، رجع ذلك الفرنسى إلى أرضه فوجد الجهال يعبدون ضريح الكلب بالذبح والنذر والاحتفال، ويشغلون قطعة من أرضه التى حول القبة، فكلمهم برفق وطلب منهم أن يخرجوا من أرضه، فغضبوا وأرادوا أن يبطشوا به، فذهب إلى رئيس الشرطة وأخبره وقال له: إن هؤلاء القوم استولوا على قطعة من أرضى وزعموا أن هناك قبر ولى من الأولياء، فأرجوا أن تبعث معى بعض رجالك لتنبش قبره، فإن وجدنا فيه آدميا رجلا أو امرأة، فالأرض كلها لهم، وإن وجدناه كلبا يتركون أرضى ويعلمون أنهم كانوا يعبدون قبر الكلب، فبعث معه بعض رجاله، ونبشوا القبر، فوجدوا المدفون فيه كلبا، ومن ذلك أن معلمة اسمها خديجة النعيمى – المعلمة في مدينة الدار البيضاء من المملكة المغربية – كانت تسير مع نسوة جاهلات، فمررن بكوم من حجارة فأخذت النسوة يقبلن الأحجار ويقلن « انتاع الله لله يا للاحمارة » معناه أعطينا شيئا لوجه الله يا سيدتنا الحمارة، يعنين الاتان أنثى الحمير، قالت فقلت لهن: أتتخذن الأولياء حتى من الحمير ؟ قالت فغضبن وقلن لى: – أحذرى نقمتها، إنها ولية كبيرة، تقضى الحاجات فكتبت خديجة النعيمى مقالا يتضمن هذه القصة وقالت فيه: إيها العلماء اتقوا الله وعلموا الناس أمور دينهم، فقد أهملتموهم حتى صاروا يعبدون الحمير، فكتبت أنا مقالا طويلا نشرته صحيفة العلم موزعا على ثلاثة أجزاء، بينت فيه

توحيد الله تعالى ولم يستجب لدعوتها أحد غيرى.

ومن ذلك أن صخرة فاتنة خارجة عن الماء بقرب شاطئ طنجة، يسميها الجهال سيدى ميمون ويعبدونها بالذبح والنذر، وسبب معرفتى لهذا، أنى ركبت سيارة حافلة من طنجة إلى تطوان، وكان بقربى شاب وبجانبه زوجته، سلم على فلم أعرفه، فقال لى: أنا واحد من الذين يحضرون دروس وعظك في الجامع الأعظم بتطوان، وهذه زوجتى، وإذ كنا لا يعيش لنا ولد، نذرت زوجتى إن ولد لنا ولد أن تذبح لسيدى ميمون في كل سنة شاة ما دام حيا، فولد لنا ولد وقد كاد يتم السنة الأولى من عمره، وهى تطالبنى بالذبيحة، فقلت لها حسب ما سمعت منك أن هذا شرك، وأنه لا يتصرف في الخلق بالإحياء والإماتة إلا الله، فلم تقتنع فأرجو أن تكلمها لعل الله يهديها، فكلمتها مدة ساعة إلى أن وصلنا تطوان ولا أدرى هل نفعها الله بما قلت لها أم لا ؟

ومن ذلك أن بئرا في القصر الكبير في شمال المغرب يقصدها كل من يحس بوجع رأسه، ويطلب من ساكنها ميمون بن شمهورش أمير الجن الشفاء، إلى غير ذلك، فهؤلاء بلغوا في الجهل والشرك بالله أكثر مما بلغه المشركون الأولون.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ الآيات: ١١٦- ١١٨

قال (ك) هذا أيضا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: ﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ وهذا تهديد للنصارى، وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد، هكذا قاله قتادة وغيره.

واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿ **هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ** ﴾ وقال السدى: هذا الخطاب والجواب في الدنيا، قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه إلى السماء الدنيا، واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: «أحدهما » أن الكلام بلفظ المضي «والثاني» قوله: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ** ﴾ ﴿ **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ وهذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيرا من أمور القيامة ذكر بلفظ المضى ليدل على الوقوع والثبوت، ومعنى قوله: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ** ﴾ الآية التبرى منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه، كما في نظائر ذلك من الآيات، والذي قاله قتادة وغيره: هو الأظهر – والله أعلم، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

قال محمد تقى الدين: – تقدم أن النسخة التى بأيدينا من تفسير ابن كثير فيها اختلال في مواضع متعددة، وقد نظرت في نسخة أخرى مطبوعة في بيروت فوجدتها مختلة أيضا، ولذلك سأتكلم في تفسير ما بقى من هذه الآيات بما يفتح الله به، فأقول: – يسأل الله تعالى عيسى ابن مريم يوم القيامة وهو عليم بما وقع، توبيخا للنصارى وتكذيبا لهم ليفضحهم على رؤوس الأشهاد وليتبرأ عيسى مما نسبوه إليه كذبا وزورا، وقد تقدم نقل ما في أناجيلهم مما بقى من الحق ولم يشمله التحريف والحذف والتبديل ما يشهد عليهم بالكذب، وهو موافق لما جاء به القرآن، فيا حسرتهم وندامتهم حين يسمعون جواب عيسى وهو يقول: ﴿ **سُبْحَانَكَ** ﴾ أى أنزهك عن الشريك ﴿ **مَا يَكُونُ لِي** ﴾ أى لا يجوز لى ولا ينبغى لى ﴿ **أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ** ﴾ وهو اتخاذهم لى ولأمى إلهين من دون الله ﴿ **إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ** ﴾ فأنت تعلم، إنى لم أقل ذلك ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي** ﴾ لأنك بكل شيء عليم ﴿ **وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ** ﴾ وإنما أعلم ما علمتنى ﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ ولا يعلم الغيب

أحد سواك ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ وقد تقدم ما نقلناه من الإنجيل مما يطابق ما هو في القرآن من توحيد الله في ربوبيته وفي عبادته، ثم قال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ أى كنت شاهدا على بنى إسرائيل مدة بقائى معهم ﴿ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي ﴾ أى المكث والمدة التى قضيت لى أن أكون معهم ورفعتنى إليك ﴿ كُنتَ أَنتَ ﴾ وحدك ﴿ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ تعلم ما يفعلون ولم يبق لى أنا علم بأعمالهم، فإن قيل قوله: «تَوَفَّيْتَنِي ﴾ دليل على موت عيسى كما تدعى النصارى واليهود وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [1] فالجواب: أن التوفى في لغة العرب لا يدل دائما على الموت، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ فالتوفى هنا بمعنى النوم، وكذلك قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أخبر الله سبحانه أنه يقبض أرواح الناس بالموت وبالنوم. فالأرواح التى قبضها بالموت يمسكها إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ثم يردها إلى أجسادها لتجزى على أعمالها، وأما التى يقبضها بالنوم فإنه يرسلها بالاستيقاظ من النوم، فتبين أنه لا حجة لهم في الآيتين. فالتوفى في الحقيقة هو استيفاء المدة أى إتمامها. وإكمالها، ثم قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ ولا حق لى أنا فيهم ﴿ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ الغالب، القاهر، «الحكيم» الذى لا يفعل شيئا إلا لحكمة ظاهرة للناس أو خفية عنهم، قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ والصادقون هم الذين صدقوا الله ووحدوه واتبعوا رسله، فهؤلاء هم الذين يستحقون المغفرة والرحمة، أما المشركون فإنهم لا يستحقون إلا العذاب لقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ وقوله تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

---

(١) آل عمران.

سورة الأنعام

الباب الأول

قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ الأيات: ١٣– ١٩

قال (ك) ثم قال تعالى: ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ أن كل دابة في السموات والأرض، الجميع عباده وخلقه وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، لا إله إلا هو: ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾، أى السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم، ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم، وبالشرع القويم، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط الله المستقيم، ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ كقوله: ﴿ **قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ [1] والمعنى لا أتخذ وليا إلا الله وحده لا شريك له، فإنه فاطر السموات والأرض، أى خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق،

---

(١) الزمر.

﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ أى هو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [١] الآية وقرأ بعضهم ههنا: ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ أى لا يأكل، وفي حديث ابن أبى صالح عن أبى هريرة ﷺ قال: «دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى ﷺ على طعام، فانطلقنا معه، فلما طعم النبى ﷺ وغسل يديه، قال: الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب، وكسانا من العرى وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافئ ولا مكفور ولا مستغنى عنه، الحمد لله أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العرى، وهدانا من الضلال وبصرنا من العمى، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا، الحمد لله رب العالمين».

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ أى من هذه الأمة: ﴿ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ (١٤) قُلْ إِنِّيَ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ يعنى يوم القيامة: ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ ﴾ أى العذاب ﴿ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ﴾ يعنى فقد رحمه الله: ﴿ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ كقوله: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [٢] والفوز حصول الربح ونفى الخسارة، ويقول تعالى مخبرا أنه مالك الضر والنفع، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴾ [٣] وفي الصحيح: « أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» ولهذا قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ أى هو الذى خضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، وقهر كل شيء، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت قهره وحكمه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴾ أي في جميع أفعاله ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ بمواضيع الأشياء ومحالها فلا يعطى إلا من

---

(١) الذاريات.

(٢) آل عمران.

(٣) فاطر

يستحق ثم قال: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ﴾ أي من أعظم الأشياء شهادة ؟: ﴿ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بِيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ أي هو العالم بما جئتم به، وما أنتم قائلون لى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ أى وهو نذير لكل من بلغه، كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ قال ابن حاتم: وكر سنده إلى محمد بن كعب في قوله تعالى: ﴿ وَمَن بَلَغَ ﴾ ومن بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ، زاد أبو خالد: وكلمه، وقال عبد الرازق: عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ أن رسول الله ﷺ قال: «بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله» وقال الربيع بن أنس: حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ، وأن ينذر بالذى أنذر، وقوله: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ ﴾ أيها المشركون ﴿ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُل لاَّ أَشْهَدُ ﴾ كقوله: ﴿ فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ [1] ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾.

قال محمد تقى الدين: - في هذا الباب فوائد: «الأولى » أن قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ هو من السكنى، أى له ما حل في الليل والنهار، «الثانية» معنى ﴿ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾ أى أتولاه بالعبادة والطاعة والخوف والرجاء والرغبة والرهبة والتوكل والدعاء والاستعانة والاستغاثة والمحبة والذبح والنذر والصلاة وسائر أنواع العبادة، لا أجعل لغيره شيئا منها، فالمسلم المحقق للتوحيد ليس له ولى إلا الله، والمشرك المتهوك يتخذ أولياء من دون الله يستغيث بهم في الشدائد، ويرجوهم ويخافهم، وقد نهى الله عن اتخاذ الأولياء من دونه في مواضع كثيرة من القرآن، سيأتى ذكرها في مواضعها إن شاء الله، «الثالثة» قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٌ ﴾ كل من تيقن أنه لا ينفع إلا الله، ولا يضر إلا الله، ولا يعطى إلا الله، ولا يمنع إلا الله، وأن غير الله لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فكيف يملكه لغيره، كل من تيقن ذلك، فلابد أن يخلص التوحيد لله، ولا يصرف شيئا من أنواع العبادة لغيره أبدًا، ومن زعم أنه متيقن ذلك، وتعلق بالأضرحة زاعما أنه لا يطلب منهم جلب نفع ولا دفع ضر، وإنما يتبرك بزيارة تلك

---

(١) الأنعام.

الأضرحة، ويدعو الله عندها فإنه يخادع نفسه ويخادع الموحدين، ويتملق لعباد القبور، لأن الدعاء الذى يرجى قبوله، يكون في جوف الثلث الأخير من الليل، وهو ساجد في صلاته، ويكون في سجود الصلوات المفروضة في المساجد، ولا يكون عند الأضرحة، والأوثان المزخرفة المشيدة التى يرتكب عندها الشرك من ذبح ونذر وطواف وتقبيل واستغاثة واختلاط الرجال بالنساء، فهذه الأماكن لا ينال زائرها إلا سخط الله وغضبه، فمن قدر أن يغير المنكر بهدمها أو تنفير الناس منها، فليذهب إليها بهذا القصد، ومن عجز عن ذلك فليغير هذا المنكر بلسانه أو بقلبه، «الرابعة» قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ** ﴾ الخطاب للنبى ﷺ، والمراد بالإسلام هنا إسلام القلب والجوارح بالقصد والتوجه لله وحده لا شريك له في العبادة والدعاء، وكل مقومات التوحيد المضادة للشرك، وقد تقدم مثل ذلك في مواضع من كتاب الله، وسيأتي إن شاء الله، وليس المراد بالإسلام الظاهر فقط، الذى يشترك فيه المؤمن والمنافق، «الخامسة » قوله تعالى: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ حجة للحنفاء الذين يدعون إلى اتباع كتاب الله وبيانه من سنة رسوله ﷺ، وينبذون التقليد والتفرق، في الدين، فكل من بلغه القرآن وجب عليه اتباعه إلى يوم القيامة، ومثل هذا قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ** ﴾ وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ** ﴾ والمراد بالوحى: القرآن والسنة الصحيحة التى هي بيانه.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الآيات: ٢٢- ٢٤

قال (ك) يقول تعالى مخبرا عن المشركين ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا** ﴾ يوم القيامة، فيسألهم عن الأصنام والأنداد التى كانوا يعبدونها قائلاً لهم: ﴿ **أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ** ﴾

كقوله تعالى في سورة القصص: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أي حجتهم، إلا أن قالوا: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ ﴾ أى حجتهم ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال ابن جرير: والصواب لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم اعتذارا عما سلف من الشرك بالله ﴿ إِلاَّ أَن قَالُواْ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وقال ابن أبى حاتم: وذكر سنده إلى ابن عباس «أنه أتاه رجل فقال سمعت الله يقول: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ قال أما قوله: ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ فإنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، فقالوا تعالوا فلنجحد، فيجحدون، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثاً، فهل في قلبك الآن شيء ؟ لأنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه، وقوله سبحانه: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ كقوله: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾ [1]

الباب الثالث

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ الآيتان: ٤٠ - ٤١

قال (ك) يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد، المتصرف في خلقه بما يشاء، وأن لا معقب لحكمه، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه، بل هو وحده لا شريك له الذى إذا سئل يجيب لمن يشاء، ولهذا قال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ﴾ أى أتاكم هذا أو هذا ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ولهذا قال: ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي فى اتخاذكم آلهة معه، ﴿ بَلْ إِيَّاهُ

---

(١) غافر.

تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه، وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ ﴾ [1] أ هـ.

فائدة

قال محمد تقى الدين: - دلت هذه الآية وآيات أخرى في معناها على أن المشركين الذين كانوا في زمان النبى ﷺ كانوا يشركون مع الله غيره في العبادة في وقت الرخاء، أما في وقت الشدة فكانوا لا يدعون إلا الله لكشف ما نزل بهم من الضر، لأنهم يعلمون مما بقى عندهم من دين إبراهيم وإسماعيل، أن الشرك بدعة وكفر لا يرضاه الله تعالى، ويعلمون أن معبوديهم ولو كانوا ملائكة أو أنبياء أو صالحين لا يستطيعون كشف ذلك الضر فيخلصون الدعاء لله، فإذا ذهب الضر عنهم وآمنوا واطمأنوا رجعوا إلى الشرك.

أما المشركون في هذا الزمان، فإنهم يشركون بالله غيره من أوثانهم وأوليائهم الذين اتخذوهم آلهة في الرخاء وفي الشدة، بل منهم من يخص الدعاء كله في الشدائد لغير الله تعالى. ولا يذكر الله أصلا، وأنا بنفسى وقع لى مثل هذا لما كنت مشركا، وأنا قد ناهزت الاحتلام، كنت مع رفيق في السفر، وأحسست بل تيقنت أنه يأتمر مع جماعة بقتلي، وسلب مالي، انتبذت مكانا بعيدا، وجلست أستغيث بالأولياء، وكلما استغثت بواحد منهم خططت في الأرض خطا، فلما فرغت من الاستغاثة عددت الخطوط، فوجدتها أربعة وثمانين خطاً، ولم استغث بالله، ولكن الله علم أنى جاهل فرحمنى وأغاثنى، وظننت أنا في ذلك الوقت أن أولئك الأولياء هم الذين أغاثونى، وهو في الدار الآخرة لا علم لهم بما وقع لى ولا باستغاثتى بهم، ولو علموا ما قدروا أن يعملوا شيئا، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾.

---

(١) الإسراء.

ومرة كنت أطالع كتابا في مدينة وجدة وقد انتصف الليل وانقضت الشمعة التى كنت أطالع على ضوئها فخرجت مسرعا لعلى أجد دكانا مفتوحا لأشترى منه شمعة، وبعد لأي وجدت دكانا مفتوحا فاشتريت الشمعة ورجعت مسرعا متلهفا لإكمال مطالعة الكتاب، وكنت في طريقى أسمع الطوافين يسألون الصدقات متوسلين بأسماء الأولياء هذا يقول من يعطينى صدقة لوجه الشيخ عبد القادر الجيلاني، والآخر يقول لوجه فلان، والثالث يقول لوجه فلان، وبعضهم يقول لوجه الله، فلم أعبأ بهم، ولما وصلت البيت وأردت أن أفتحه سمعت طوافا من بعيد يقول: من يعطينى صدقة لوجه سيدى أحمد التجاني، فرجعت وأعطيته صدقة، ففي ذلك الوقت كانت رغبتى ورهبتى للشيخ التجانى أكثر من رغبتى ورهبتى لله، والمشركون في هذا الزمان إذا حلفت لهم ألف يمين بالله لا يصدقونك، وإذا حلفت لهم بشيخك يصدقون، وفي هذا دليل على أنهم يخافون ويرجون شيوخهم أكثر من خوفهم ورجائهم لله، ويحكى أن قوما كانوا في سفينة فاختل سير السفينة، وبدأت تغرق فأخذ ركاب السفينة يصرخون ويستغيثون بأوليائهم من دون الله، وكان معهم عالم سفلى ساكت فقالوا له: أيها الشيخ ألا ترى ما نحن فيه ألا تستغيث ؟ فقال أسأل الله أن يغرقكم وأنا معكم، فقالوا له أما تخاف الله، أتدعو علينا بهذا الدعاء ؟ فقال: أنكم تستحقون الإغراق، لأنكم أعرضتم عن الله الذى بيده ملكوت السموات والأرض، وأخذتم تستغيثون بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا.

الباب الرابع

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ (٤٧) ﴾ الآيات: ٤٦ - ٤٧

يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: «قل» لهؤلاء المكذبين المعاندين: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ أى سلبكم إياها كما أعطاكموها، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ [١] وقال: ﴿ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [٢] وقوله: ﴿ مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم ؟ لا يقدر على ذلك أحد سواه ولهذا قال: ﴿ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ﴾ أى نبينها ونوضحها ونفسرها، دالة على أنه لا إله إلا الله وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال: ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ أى ثم هم مع هذا البيان يصدفون، أى يعرضون عن الحق ويصدون الناس عن أتباعه».

فائدة

قال محمد تقى الدين: - إيجاد المخلوقين كلهم، واستمرار وجودهم، وإمدادهم بالقوى التى يحتاجون إليها من سمع وبصر وعقل وحركة وفهم وعلم، كل ذلك بيد الله، فمن علم وتيقن أن ذلك بيد الله، لم يخف مخلوقا، ولم يرغب مخلوقا، ولم يتوجه إلى مخلوق بطلب، ومن أشرك مع الله غيره، يتشتت همه، ويتوجه قلبه إلى غير الله تعالى من المعبودين، فيخسر في دنياه وفي أخراه، فمن خاف الله وحده خوف الله منه كل شيء، ومن خاف غير الله ورجا غير الله ولم يخف الله خوفه الله من كل شيء، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في أخذ السمع والأبصار وجهين أحدهما: أن تذهب أسماعهم والأبصار فيصيرون عميا وصما، والثاني: أن يحرموا الانتفاع الشرعى بالسمع والبصر، فينتفعون بأسماعهم وأبصارهم في أمور دنياهم، ولا ينتفعون بها في أمور دينهم.

أقول: لا مانع أن يراد المعنيان جميعا لأن الله تعالى يملكهما جميعا كما يملك القلوب من كل وجه.

---

(١) الملك

(٢) الأنفال.

فائدة أخرى

ذكر الله تعالى في الآية الثانية نوعين من العذاب، أحدهما يأتى بغتة، والآخر يأتى جهرة، والعذاب الذى أصاب المسلمين في هذا الزمان وجللهم خزيا وعارا في قضية فلسطين والاستعمار، وتسلط أعداء الإسلام عليهم من الداخل والخارج يسومونهم سوء العذاب من النوع الذى جاء جهرة، ومع ذلك لا يزالون معرضين عن الله، عن شرعه وتوحيده وطاعته واتباع رسوله ﷺ، فنسأل الله العافية.

الباب الخامس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۞ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۞ ﴾ الآيات: ٥٠ -٥١

قال (ك) يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ** ﴾ أى لست أملكها، ولا أتصرف فيها ﴿ **وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ** ﴾ أى ولا أقول لكم أنى أعلم الغيب، إنما ذاك من علم الله عز وجل، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه ﴿ **وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** ﴾ أى ولا أدعى أنى ملك، إنما أنا بشر من البشر يوحى إلى من الله عز وجل، شرفنى بذلك، وأنعم على به، ولهذا قال: ﴿ **إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ** ﴾ أى لست أخرج عنه قيد شبر، ولا أدنى منه: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ** ﴾ أى هل يستوى من اتبع الحق وهدى إليه، ومن ضل عنه فلم ينقد له ؟ ﴿ **أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ وهذه كقوله تعالى: ﴿ **أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ** ﴾ [1] وقوله: ﴿ **وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ** ﴾ أى وأنذر بهذا القرآن

---

(١) الرعد

يا محمد. الذين هم من خشية ربهم مشفقون، الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب: ﴿ **الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ** ﴾ أى يوم القيامة: ﴿ **لَيْسَ لَهُم** ﴾ أى يومئذ ﴿ **مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ** ﴾ أى لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه أن أراده بهم ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ أي أنذرهم هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿ **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذبه، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه.

فائدة

قال محمد تقى الدين: – أمر الله نبيه وخير خلقه محمد ﷺ أن يقول لجميع الناس الذين يدعوهم إلى الله: اعلموا أننى لا أملك من خزائن فضل الله شيئا، ولا أستطيع أن أعطى أحدا رزقا حسيا أو معنويا، ولا أعلم من الغيب إلا ما علمنى ربى، ولست ملكا له قوة خارقة للعادة، مستغن عن الطعام والشراب، لا تعتريه الأعراض البشرية، إنما أنا بشر مثلكم يجرى على ما يجرى عليكم، ولا أختلف عنكم إلا بشيء واحد، وهو الوحى والرسالة التى أكرمنى الله بها، وأوجب عليكم اتباعى وطاعتى، وسيأتى مثل هذا إن شاء الله في سورة الأعراف، وفى سورة يونس، وفي سورة هود، والعجب ممن يدعى العلم بالكتاب والسنة والشرع، ومع ذلك يعمى عن هذا البيان ويستغيث بالنبى ﷺ إذا قام يقول: يا رسول الله وإذا قعد يقول: يا رسول الله وإذا فزع يقول: يا رسول الله فهذا مكذب لهذه الآية، فكأنه يقول بل عندك خزائن الله، وأنت تعلم الغيب، وقد ألف رجل شاعر يقول الشعر، ولكنه غير شاعر بتوحيد الله، ألف كتابا سماه: شواهد الحق، في الاستغاثة بسيد الخلق وزعم أن أهل السنة هم المشركون الذين يستغيثون بالنبى ﷺ وغيره من المخلوقين، وإن من وحد الله تعالى وامتنع من الاستغاثة بغيره وهابى خارج عن مذهب أهل السنة، والحقيقة أن مذهب هذا الجاهل الذي يهرف بما لا يعرف هو مذهب أهل السنة، «بكسر السين وتخفيف النون» والغفلة والجهالة والضلالة، ولو كان عنده ذرة من عقل وإيمان، لكانت هذه الآية كافية له، وإلا فلماذا يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يعلن للناس أنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فضلا عن غيره، وأنه لا يعلم الغيب: ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي**

﴿ فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) فكم قصائد نظمت في الاستغاثة بالنبى ﷺ، وأنا بنفسى نظمت أبياتا أستغيث فيها بالنبى ﷺ، وأطلب منه أن يعطينى العلم، ولا أحب أن أذكر هذه الأبيات، فالحمد لله الذى هدانا وبصرنا من العمى ومن علينا بتوحيده لا إله إلا هو.

فائدة أخرى

قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ أى بالقرآن ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ لأنهم المنتفعون بالإنذار ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ ﴾ لا ينصرهم أحد ولا يشفع لهم أحد الشفاعة الشركية، اعلم علمت خيرا، ووقيت ضيرا، أن الشفاعة وردت في كتاب الله تعالى نوعين: أحدهما: - الشفاعة الشركية، وهى أن يشفع الشافع بدون استئذان من المشفع، ويرى أن له من المنزلة والمكانة عن المشفع بالكسر مالا يحتاج معه إلى إذن، بل ربما اعتقد أن قبول شفاعته واجب على من يشفع عنده، كشفاعة الاب عند ابنه، وشفاعة الابن عند أبيه، والزوجة عند زوجها، والصديق عند صديقه والوزير المخلص عند ملكيه ونحو ذلك، فهذا النوع هو المنفى في القرآن كما في هذه الآية وفي قوله تعالى: ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (٢) وكذلك من مات كافرا بشرك أو جحود، فنفى الشفاعة في حقه مطلق، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ (٣) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ (٤).

والنوع الثانى: - الشفاعة التى يتفضل الله بها على الشفعاء من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بعد أن يستأذنوه فيأذن لهم، كما قال تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ (٥) وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ وقال تعالى

---

(١) الحج

(٢) غافر.

(٣) النساء.

(٤) المائدة.

(٥) البقرة

في سورة طه: ﴿ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ وقد تواترت الأحاديث التى هى كالشمس في رابعة النهار عن النبى ﷺ أنه يشفع لأهل الكبائر، فيخرجون من النار بشفاعته، وقد أنكر هذه الشفاعة الخوارج والمعتزلة لقلة علمهم بالكتاب وجهلهم بالسنة، وما ذكر من الآيات، وما أشرت إليه من الأحاديث، حجة عليهم، وفي هذه الآية نفسها من الحجة عليهم مالا يخفى، لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: ﴿ أَنذِرِ ﴾ يا محمد بالقرآن المؤمنين ﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُواْ إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ غير واجدين، من دونه وليا ينصرهم ولا شفيعا يشفع لهم فإن خوفهم من الله دليل على إيمانهم، والخوارج والمعتزلة يقولون أن الشفاعة خاصة بالمؤمنين في رفع الدرجات. أما من مات كافرا أو مصرا على الكبائر فلا شفاعة له. وهذه الآية تدل على نفى الشفاعة عن المؤمنين الذين يخافون الله، فهذا النفى مطلق وعام يخصصه قوله تعالى فيما سبق ذكره إلا بإذنه، إلا لمن ارتضى، ﴿ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

الباب السادس

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ الآيات: ٥٦ – ٥٩

قال محمد تقى الدين: ذكرت فيما مضى أن النسخة التى كانت عندى من تفسير ابن كثير التى نشرتها المطبعة التى تسمى نفسها: مطبعة الاستقامة، فيها أخطاء كثيرة وبتر ونقص، وفي هذا الموضع ترك تفسير آية بأكملها، وقد فزعت إلى طبعة بيروت لعلى أجدها سالمة من ذلك الداء، فإذا بها مسروقة من المطبعة المذكورة، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ ﴾ على فساد الكنوز التى خلفها لنا السلف، فصارت بأيدى التجار الفجار يطبعونها لأجل الربح الدنيوى ولا يبالون بما يرتكبونه من الجرائم في حق طلبة العلم، وعلوم الإسلام يتيمة كعلوم اللغة العربية ـ ليس لها جماعة تشرف على طبعها ونشرها وتأذن في ذلك لمن يكون له أهلا، وتضرب على هؤلاء التجار الفجار وليس للتجار ضمائر ولا مروءة تحملهم على المحافظة على هذا التراث وعلى أن لا يصدر من مطابعهم ما يشين سمعتهم، وهذا جزء من الشقاء الذى يعانيه المسملون في هذا الزمان، فهم كما قال الله تعالى في بنى إسرائيل: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَااتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَـكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [١].

فإن قيل كيف سوغت لنفسك أن تذكر هذه الآيات التى نزلت في كفار بنى إسرائيل وتريد أن تطبقها على المسلمين، أليس هذا من الغلو ؟ **أقول:** – جاء في الحديث الصحيح في تفسير هذه الآيات من كلام النبى ﷺ: «لتضربن على يد الظالم، ولتقسرنه على الحق قسرا، ولتأطرنه على الحق أطرًا، أو ليلعننكم الله كما لعنهم» أ هـ. ما أردته من الحديث. انظر «رياض الصالحين» في باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لتطلع على الحديث بطوله، والآن أفسر هذه الآية بما يفتح الله به، إذ ليس عندى تفسير على طريقة **(ك)**، فأقول تدعون من دون الله، يا أيها المشركون، بأى نوع من أنواع العبادة التى تقدم ذكرها مراراً وأهمها الدعاء والاستغاثة سواء أكان المدعوون ملائكة أو أنبياء أو صالحين أو غيرهم،

---

(١) المائدة.

والنهى هنا للامة لأن النبى ﷺ معصوم من الشرك ومن جميع الذنوب: ﴿ **قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ** ﴾ أى لا أوافقكم على ما تشتهون من عبادة غير الله ﴿ **قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ لو وافقتكم على ذلك، لكنت من الضالين البعيدين عن الهدى، وأنا الهادى بنص القرآن، ولا يكون الهادى هاديا إلا إذا كان مهتديا. قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [(١)].

هذا ما يسره الله في معنى الآية ثم **قال (ك)** وقوله: ﴿ **قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي** ﴾ أى على بصيرة من شريعة الله التى أوحاها الله إلى: ﴿ **وَكَذَّبْتُم بِهِ** ﴾ أى بالحق الذى جاءنى من الله ﴿ **مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ** ﴾ أى من العذاب ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ** ﴾ أى إنما يرجع أمر ذلك إلى الله، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك، وإن شاء أنظركم وأجلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، ولهذا قال: ﴿ **يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ** ﴾ أى وهو خير من فصل القضايا، وخير الفاتحين في الحكم بين عباده، وقوله: ﴿ **قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ** ﴾ أى لو كان مرجع ذلك إلى، لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ **وَاللّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ فإن قيل فما الجمع بين هذه الآية وبين ما ثبت في الصحيحين من طريق ابن وهب عن يونس عن الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت: لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال، فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم استفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد ظللتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فنادانى، فقال: أن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال فنادانى ملك الجبال وسلم على، ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك إليك لتأمرنى بأمرك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا»

---

(١) الشورى.

وهذا لفظ مسلم، «فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم فاستأنى بهم، وسأل لهم التأخير، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا»، فما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ **قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ** ﴾، **فالجواب** والله أعلم، أن هذه الآية دلت على أنه لو كان إليه وقوع العذاب الذى يطلبونه حال طلبهم له، لأوقعه بهم، وأما الحديث، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم، بل عرض عليه ملك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين، وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا، فلهذا استأنى بهم، وسأل الرفق لهم، وقوله تعالى: ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ** ﴾ قال البخاري، بسنده عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس: لا يعلمهن إلا الله، إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا، وما تدرى نفس بأى أرض تموت، إن الله عليم خبير» وقوله: ﴿ **وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا** ﴾ أي يعلم الحركات حتى من الجمادات، فما ظنك بالحيوانات ولا سيما المكلفون منهم من جهنم وأنسهم، كما قال تعالى: ﴿ **يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ** ﴾

فائدة

قال محمد تقى الدين: - أجمع المسلمون على ما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله، أن مفاتح الغيب الخمسة المفصلة في آخر سورة لقمان بنص النبى ﷺ، لا يعلمها إلا الله، ومن ادعى أن أحدا من مخلوقات الله يعلمها فهو كافر، نقله القسطلانى عن الزجاجى في شرح الحديث المذكور أعلاه، وأكثر الذين يدعون الإسلام في هذا الزمان يعتقدون أن غير الله يعلم هذه الخمسة، ففى كتاب «الأبريز» لمؤلفه أحمد ابن المبارك اللمطى المغربى ما معناه: أنه قال لشيخه عبد العزيز: أن علماء الظاهر يقولون: أن هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله، فقال له: ماذا تقولون ؟ لو كنت ميتا، لعلمت هذه الخمسة، فكيف وأنا حى، وهذا الكتاب مقدس عند أكثر علماء الأزهر، وعلماء المغرب ومن ذلك تعلم أن علم الكتاب والسنة قد مات وصار أهله غرباء.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ الأنعام، آيات: ٧١ إلى ٧٣

روى «ج» عن السدى أنه قال: قال المشركون للمسلمين: اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد، فأنزل الله عز وجل: ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا** ﴾ أى في الكفر: ﴿ **بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ** ﴾ فيكون مثلنا مثل الذى استهوته الشياطين في الأرض، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج من قوم على الطريق، فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض وأصحابه على الطريق فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: ائتنا فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من تبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ، ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام، وقال قتادة: ﴿ **اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ** ﴾ أضلته في الأرض، يعنى استهوته، سيرته كقوله: ﴿ **تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾ [١] وقوله: ﴿ **وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ أى نخلص له العبادة وحده لا شريك له: ﴿ **وَأَنْ أَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ** ﴾ أى أمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ **وَهُوَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ أي يوم القيامة: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ** ﴾ أى بالعدل،

---

(١) إبراهيم.

فهو خالقهما ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما، وقوله: ﴿ **وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ يعنى يوم القيامة الذى يقول الله: كن فيكون عن أمره، كلمح البصر، أو هو أقرب، ويوم منصوب بفعل محذوف تقديره: اذكر يوم يقول كن فيكون، وقوله: ﴿ **قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ** ﴾ صفتان لرب العالمين، قوله: ﴿ **يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ ظرف لقوله تعالى: ﴿ **قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ** ﴾ كقوله: ﴿ **لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ [١] وكقوله: ﴿ **الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا** ﴾ [٢] قوله: ﴿ **يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ** ﴾ المراد به هنا القرن الذى ينفخ فيه إسرائيل: قال «ج» تظاهرت الأخبار عندنا إن إسرافيل قد التقم الصور وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ، رواه مسلم في صحيحه.

قال محمد تقى الدين: - قوله تعالى: ﴿ **أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا** ﴾ تنبيه لعباد القبور وغيرها من المخلوقات على فرط جهلهم وعمى بصائرهم، فإنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولذلك لا يعبد إلا الله، وهذه الآية تصدق على كل من خالف جماعته، سواء أكانوا أقرباء أو أصدقاء وعبد غير الله، وهم يدعونه إلى الهدى، وهو توحيد الله واتباع نبيه الكريم، وهو يأبى أن يرجع إلى الحق ويمعن في الشرك، وفيها أيضا تنبيه على أن المؤمن لا ينبغى له أن يأمن مكر الله، وينبغى له أن يدعو الله تعالى بالدعاء الذى علمنا إياه في سورة آل عمران، وهو دعاء الراسخين في العلم: ﴿ **رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ هو كما **قال (ك)** رحمة الله أن نخلص العبادة له وحده لا نشرك به شيئا، مؤمنين برسوله ﷺ، مجردين الاتباع له، وهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وبعد ذلك تجئ إقامة الصلاة، فإن الصلاة عماد الدين، فمن تركها فهو كافر لا حظ له في الإسلام كما قال عمر ﷺ عند موته، انظر كتاب الصلاة لابن القيم، وأيضا كتاب القول الفصل في حكم تارك الصلاة للمؤلف.

---

(١) غافر.

(٢) الفرقان.

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوه ﴾ أى امتثلوا ما أمركم به ظاهرا وباطنا، واجتنبوا ما نهاكم عنه ظاهرا وباطنا، لأنكم تحشرون إليه يوم القيامة، فيجزيكم بأعمالكم: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ هو خالق كل شيء، وحافظ الوجود على كل موجود، وهو الذى يحي ويميت، فما أجهل من يدعو غيره، وما أشقاه، وقوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أى فلا يعبد غيره، فنسأل الله أن يجعلنا ممن حقق التوحيد بأنواعه، ويختم لنا بالإيمان، ويجعل أسعد أيامنا يوم لقائه.

الباب الثامن

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الآيات: ٧٤- ٧٩

قال محمد تقى الدين: - اختلف المفسرون في آزر، فقال بعضهم: هو اسم صنم، لأن أبا إبراهيم اسمه تارح كما في التوراة، وقال محققون ومنهم «ج» هو اسم لأبى إبراهيم، ولا غرابة أن يكون له اسمان: أحدهما، تارح، والآخر أزر، أو أن يكون آزر لقبا له، ولا يمكن أن يسميه الله تعالى ولا يكون في الحقيقة كذلك، والقرآن أصح كتاب نزل من الله تعالى، وقد رأينا في التوراة في جميع أقسامها أشياء كثيرة لا يستطيع مؤمن أن ينسبها لله

ولا للرسل عليهم الصلاة والسلام.

قال (ك) في قوله: ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ﴾ أى أتأله صنما تعبده من دون الله ؟ ﴿ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ ﴾ أي السالكين مسلكك، ﴿ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي تائهين، لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل، وأمركم في الجهالة والضلال بين واضح لكل ذى عقل سليم، وقال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [1] فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه مدة حياته، فلما مات على الشرك، وتبين إبراهيم ذلك، رجع عن الاستغفار له، وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [2] وثبت في الصحيح « أن إبراهيم يلقى أباه آزر يوم القيامة، فيقول له آزر: يا بنى، لا أعصيك اليوم، فيقول إبراهيم: أى رب، ألم تعدنى إنك لا تخزنى يوم الدين؟ وأى خزى من أبى الأبعد ؟ فيقال: يا إبراهيم، انظر ما ورائك فإذا هو بذبح متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار».

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أن نبين له وجه الدلالة – في نظره إلى خالقهما – على وحدانية الله عز وجل في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كقوله: ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [3] وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ

(١) مريم.

(٢) التوبة.

(٣) يونس.

عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ (١).

وقوله: ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ قيل الواو زائدة تقديره: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

كقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (٢) وقيل هي على بابها، أى نريه ذلك ليكون عالما وموقنا، وقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أى تغشاه وستره: ﴿ رَأَى كَوْكَبًا ﴾ أى نجما: ﴿ قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أى غاب، قال محمد بن إسحاق بن يسار: الأفول: الذهاب، وقال «ج»: يقال: أفل النجم يأفل ويأفل، أى بكسر الفاء وضمها، أفولا، ويقال: أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا، قال: ﴿ لا أُحِبُّ الآفِلِين ﴾ قال قتادة: علم أن ربه دائم لا يزول: ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا ﴾ أى طالعا: ﴿ قَالَ هَـذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـذَا رَبِّي ﴾ أى هذا المنير الطالع ربى: ﴿ هَـذَا أَكْبَر ﴾ أى جرما من النجم، ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ أى غابت: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى أخلصت دينى وأفردت عبادتى ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حَنِيفًا ﴾ أى في حال كونى حنيفا، أى مائلا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وقد اختلف المفسرون في هذا المقام، هل هو مقام نظر أو مناظرة ؟ فروى ابن جرير عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس مايقتضى أنه مقام نظر، واختاره ابن جرير مستدلا بقوله: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في هذا المقام مناظرا لقومه مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنان، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية التى هى على صور الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه، وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة

(١) سبأ.

(٢) الأنعام.

الهياكل وهى الكواكب السيارة السبعة المنيرة وهى القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرفهن عندهم، الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة، فبين أولا صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا، ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هى جرم من الأجرام خلقها الله منيرة لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهى تطلع من المشرق ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر فبين فيه مثل ما بين في النجم، ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التى هى أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى أنا برئ من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة فكيدونى بها جميعا، ثم لا تنظرون ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذى بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم ناظرا في هذا المقام ؟. وهو الذى قال الله في حقه: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [2] وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

---

(١) الأعراف.

(٢) الأنبياء.

(٣) النحل.

مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) وقد ثبت في الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة».

قال محمد تقى الدين: – قد رأينا أن اختيار (ك) أن إبراهيم عليه السلام كان مناظرا لا ناظراً، قد أقام عليه براهين قاطعة، ومعنى مناظرا لا ناظرا، أنه لم يكن في أول أمره يعتقد أن النجم ربه ثم انتقل إلى اعتقاد أن القمر ربه، ثم انتقل إلى اعتقاد أن الشمس ربه، ثم انتقل من ذلك إلى توحيد الله تعالى والبراءة من معبودات قومه، لأن الله حفظ أولياءه ورسله من الشرك والمعاصى قبل النبوة، وهيأهم لها فقوله: لما رأى النجم قال: ﴿ **هَـٰذَا رَبِّي** ﴾ أى بزعمكم أيها المشركون، فإن كان ما تدعون حقا فإنه سيثبت ولا يزول، فلما غاب انتقل إلى طالع آخر أقوى منه ليستدرجهم إلى توحيد الله تعالى، فقال لما رأى القمر: هذا ربى، أى بزعمكم، فلما غاب القمر، ظهر لهم أنه لا يستحق أن يكون ربا، وقال مثل ذلك في الشمس، فلما غابت واحتجبت ظهرت حجته عليهم، وقال: ﴿ **يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ أى مما تعبدون من المخلوقين والمخلوقات: ﴿ **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ** ﴾ وقلبى ﴿ **لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا** ﴾ أى نابذا لجميع الأديان والمعتقدات إلا دين التوحيد.

الباب التاسع

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم

(١) الأنعام.

مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ الآيات: ٨٠ –٨٣

قال (ك) يقول تعالى مخبرا عن خليله إبراهيم حين جاد له قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال: ﴿ **أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ** ﴾ أى تجادلوننى في أمر الله، وأنه لا إله إلا هو وقد بصرنى وهدانى إلى الحق، وأنا على بينه منه، فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة، وشبهكم الباطلة ؟ وقوله: ﴿ **وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا** ﴾ أي: ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه، أن هذه الآلهة التى تعبدونها، لا تؤثر شيئا، وأنا لا أخافها ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدونى بها ولا تنظرون، بل عاجلونى بذلك، وقوله تعالى: ﴿ **إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا** ﴾ استثناء منقطع، أى لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل: ﴿ **وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** ﴾ أي: أحاط علمه بجميع الأشياء، فلا يخفى عليه خافية، ﴿ **أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ** ﴾ أى فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها ؟ وهذه الحجة نظير ما احتج به نبى الله هود عليه السلام على قومه عاد، فيما قص الله عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿ **قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا** ﴾ [(١)] وقوله: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ** ﴾ أى كيف أخاف من هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله ؟ ﴿ **وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا** ﴾ وقوله: ﴿ **فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ أى، فأى الطائفتين أصوب، الذى عبد من بيده الضر والنفع، أو الذى عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل ؟ أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة ؟ قال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ أى هؤلاء الذين

---

(١) هود.

أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً، هم الآمنون، يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة.

قال البخاري بسنده عن علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت: ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه ؟ قال أنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] إنما هو الشرك، وروى أحمد وابن مردويه بأسناديهما عن ثابت عن زاذان عن جرير بن عبد الله قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنا من المدينة، إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول ﷺ: كأن هذا الراكب إياكم يريد، فانتهى إلينا الرجل، فسلم فرددنا عليه فقال: له النبى ﷺ من أين أقبلت ؟ قال: من أهلى وولدى وعشيرتى، قال: فأين تريد ؟. قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: فقد أصبته، قال: يا رسول الله ! علمنى ما الإيمان ؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، قال: قد أقررت، قال: ثم أن بعيره دخلت يده في بيت جرذان، فهوى بعيره، وهوى الرجل، فوقع على هامته فمات ! فقال رسول الله ﷺ: على بالرجل ! فوثب إليه عمار ابن ياسر وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا يا رسول الله ! قبض الرجل فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ، أما رأيتما اعراضى عن الرجل، فإنى رأيت ملكين يدسان في فمه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً، ثم قال رسول الله ﷺ: هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ ﴾ ثم قال: دونكم أخاكم، فاحتملناه إلى الماء، فغسلناه، وحنطناه، وكفناه، وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر، فقال: « الحدوا ولا تشقوا، فإن اللحد لنا والشق لغيرنا» وروى ابن مردويه بسنده عن عبد الله بن سخبرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من أعطى فشكر، ومنع فصبر، وظلم فغفر وسكت، فقالوا: يا رسول الله، ماله ؟ قال: ﴿ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ أى وجهنا حجته عليهم قال مجاهد وغيره: يعنى بذلك قوله: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

---

(١) لقمان.

سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ ﴾ وقد صدق الله، وحكم له بالأمن والهداية، فقال: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ ثم قال بعد ذلك كله: ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء** ﴾ قرئ بالإضافة، وبلا إضافة، كما في سورة يوسف، وكلاهما قريب في المعنى، وقوله: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ أى حكيم في أقواله وأفعاله، عليم بمن يهديه ومن يضله، وإن قامت عليه الحجج والبراهين كما قال: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ** ﴾ [(١)] ولهذا قال ههنا: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾

فائدة

قال محمد تقى الدين: - المشركون في كل زمان ومكان طبيعتهم واحدة لا تختلف إذا نهاهم ناه عن الشرك بالله، حاولوا أن يلتمسوا عذرا لأنفسهم، فيقولون مثلا، أن هذا الضريح، أو هذا التمثال، أو هذه الشجرة، أو هذا الحجر، أو هذا المكان، كل ذلك، منسوب إلى ملك مقرب أو نبي كريم، أو صالح من أولياء الله، فتعظيمنا له تعظيم للمنسوب إليه، ومنزلته عند الله عالية، ونحن مذنبون خاطئون، إذا دعونا الله لا يستجيب لنا، وإذا تشفعنا إليه بهذه الآثار المنسوبة إلى أوليائه يقضى حاجتنا، قال تعالى في سورة يونس: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ فأنت ترى أن الله لم يقبل عذرهم، وسمى عبادتهم لتلك الآثار، وللمنسوبة إليهم شركا.

فائدة ثانية

إذا رأى المشركون أن الذى ينهاهم عن الشرك لا يقبل عذرهم، انتقلوا إلى حجة أخرى، وهى تخويفه من شركائهم، كما حكى الله عن قوم إبراهيم، وقوم هود، فقال لهم إبراهيم: «أنا لا أخاف ما تشركون به من الآثار، ولا الذين تنسبونها إليهم، لأنى أعلم أنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ولما كنت في تطوان أدعو إلى توحيد الله، أصابنى مرض الربو، فقال

---

(١) يونس.

المشركون، أن السيد السعيدى هو الذى أصابنى بذلك المرض، لأنى أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة وطلب قضاء الحاجات، حتى المطر يطلبونه منه، فقلت لهم، على كرسى الوعظ في المسجد الجامع: أن قوما زعموا: أن السيد السعيدى هو الذى أصابنى بهذا المرض، وهؤلاء ليس لهم عقل ولا دين، أما الدليل على أنهم ليس لهم عقل، فهو أن رجالا ونساء كثيراً من أهل تطوان مصابون بهذا المرض، وهم يعبدون السيد السعيدى، فمن أصابهم به ؟ وأما الدليل على أن ليس لهم دين، فإن السعيدى إن كان صالحا كما تقولون، فإنه لا يعلم ما أدعو إليه، لأنه مشغول بما أعد الله له من نعيم الجنة، ولا يعلم الغيب، ولو علم أنى أدعو إلى توحيد الله واتباع رسوله لفرح بذلك، وإن كان السعيدى لا يحب توحيد الله تعالى ولا اتباع رسوله ﷺ فليس بصالح، ولا مؤمن بالله، فأنا لا أبالى به مع أنه عاجز عن النفع والضر.

فائدة ثالثة

قال إبراهيم عليه السلام: في الحجة التى آتاه الله على قومه: ﴿ **وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا** ﴾ أى كيف أخاف أصنامكم ومن وراءها من المعبودين، وأنا موحد لله، لا أشرك به شيئا، ولا تخافون أنتم من عذاب الله، وقد أشركتم به بعض خلقه، فأينا أحق بالأمن ؟ وأينا أحق بالخوف ؟ قال الله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ أى لم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿ **أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ وعدهم الله بالأمن من الخوف، وشهد لهم بالاهتداء، ومقتضى هذا أن الذين أشركوا بالله هم أحق بالخوف، وهم ضالون، فمع توحيد الله الأمن والهدى، ومع الشرك بالله الخوف والضلال.

الباب العاشر

قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ۚ

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ الآية ٨٤– ٨٨

يذكر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق بعد أن طعن في السن، وأيس هو وامرأته سارة من الولد، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط، فبشروهما بإسحاق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت: ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾ (١) فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأن له نسلا وعقبا، كما قال تعالى: ﴿ **وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ (٢) وهذا أكمل في البشارة وأعظم في النعمة، وقال: ﴿ **فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ** ﴾ (٣) أى ويولد لهذا المولود في حياتكما، فتقر أعينكما به، كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذى فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم، وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته، بأولاد صالحين من صلبه على دينه، لتقر بهم عينه، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا** ﴾ (٤) وقال ههنا: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ**

(١) هود.

(٢) الصافات.

(٣) هود.

(٤) مريم.

إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ﴾ وقوله: ﴿ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أى من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذرية صالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، أما نوح عليه السلام، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به، وهم الذين صحبوه في السفينة، جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل إبراهيم عليه السلام، فلم يبعث الله عز وجل بعده نبيا إلا من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٣) وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ ﴾ أى وهدينا من ذريته داود، وسليمان، وعود الضمير إلى نوح، لأنه أقرب المذكورين، ظاهر لا إشكال فيه، وهو اختيار «ج».

وعودة إلى إبراهيم، لأنه الذى سيق الكلام من أجله حسن، لكن يشكل عليه لوط، فإنه ليس من ذرية إبراهيم، بل هو ابن أخيه هاران بن آزر، اللهم إلا أن يقال: إنه دخل في الذرية تغليبا، كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (٤) فإسماعيل عمه دخل في آبائه تغليبا، وكما قال في قوله: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ ﴾ فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود، وذم على المخالفة، لأنه كان في تشبه بهم، فعومل معاملتهم، ودخل معهم تغليبا، وإلا فهو كان من الجن، وطبيعته من النار، والملائكة من النور، وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذريته إبراهيم أو نوح على القول الآخر دلالة على دخول ولد البنات في ذرية الرجل، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام، فإنه لا أب له،

---

(١) العنكبوت.

(٢) الحديد.

(٣) مريم.

(٤) البقرة.

قال ابن أبى حاتم وذكر سنده إلى حرب بن أبى الأسود قال: أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال: بلغنى أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى ﷺ وآله وسلم تجده في كتاب الله – وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ؟ قال: أليس تقرأ سورة الأنعام: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ حتى بلغ: ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ قال بلى، قال: أليس عيسى من ذرية إبراهيم وليس له أب ؟ قال صدقت، فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته، أو وقف على ذريته، أو وهبهم، دخل أولاد البنات فيهم، فأما إذا أعطى الرجل بنيه، أو وقف عليهم، فإنه يختص بذلك بنوه لصلبه وبنو بنيه، واحتجوا بقول الشاعر العربى:

بنونـــا بنـــو أبنائنـــا وبناتنـــا بنـــوهن أبنـــاء الرجـــال الأباعـــد

وقال آخرون: - ويدخل بنو البنات فيهم أيضا لما ثبت في صحيح البخاري، أن رسول الله ﷺ قال للحسن بن على: «أن ابنى هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فسماه ابنا، فدل على دخوله في الأبناء، وقال آخرون: هذا تجوز، وقوله: ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ﴾ ذكر أصولهم وفروعهم، وذوى طبقتهم، وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم، ولهذا قال: ﴿ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ أى إنما حصل لهم بتوفيق الله وهدايته إياهم: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ تشديد لأمر الشرك، وتغليظ لشأنه، وتعظيم لملابسته، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [١] وهذا شرط، والشرط لا يقتضى جواز الوقوع كقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [٢] وكقوله: ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [٣] وكقوله ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [٤]

---

(١) الزمر.
(٢) الزخرف.
(٣) الأنبياء.
(٤) الزمر.

فائدة

قال محمد تقى الدين: - قول (**ك**) وهذه مجازاة حين اعتزل قومه إلخ، قال تعالى في سورة مريم: ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا** ﴾ يؤخذ من هذا أن كل من اعتزل المشركين المصرين على عبادة غير الله وهجرهم، وتوجه إلى الله طالبا وجود قوم يتعاون معهم على عبادة الله وحده لا شريك له، واتباع الرسول ﷺ، لابد أن يقر الله عينه ويعطيه من خير الدنيا والآخرة فوق ما كان يؤمل، ويجعل له لسان صدق في الآخرين، ومن شك في هذا فليجرب، فهذه سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

الفائدة الثانية: - قول (**ك**) في إبليس إنه كان في تشبه بهم، أى بالملائكة، فيه ركاكة، ولعله محرف، والمراد بالتشبيه بهم، أنه كان يعبد الله مثل عبادتهم.

الفائدة الثالثة: - قوله: - ﴿ **وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ المذكورون من قبل بعضهم أنبياء، ويستحيل عليهم أن يشركوا، وقد بين (**ك**) غاية البيان، أن الشرط يتعلق بما لا يجوز وقوعه، وبعضهم يجوز عليهم الشرك بل وقع فيهم كأبى إبراهيم آزر، وابن نوح الذى غرق، والمقصود أن الشرك يحبط جميع الأعمال، ومن مات عليه لا يدخل الجنة أبدا وهذا هو الأصل في هذا الباب.

الباب الحادى عشر

قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ آية: ٩٤

قال (ك) أى يقال لهم يوم معادهم هذا، كما قال ﴿ **وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾ [1] أى كما بدأناكم أعدناكم، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه،

---

(١) الكهف.

فهذا يوم البعث، وقوله: ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ أى من النعم والأموال التى اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « يقول ابن آدم مالى مالى، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركة للناس » وقال الحسن البصرى: يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيقول الله عز وجل: أين ما جمعت ؟ فيقول: يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان، فيقول له: يا ابن آدم ! أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئاً. وتلا هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ ﴾ رواه ابن أبى حاتم، وقوله: ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أنها تنفعهم في معاشهم ومعادهم أن كل ثم معاد فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب، وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [1] ولهذا قال ههنا: ﴿ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء ﴾ أى في العبادة، لهم فيكم قسط في استحقاق العبادة لهم، ثم قال تعالى ﴿ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ ﴾ قرئ بالرفع أى شملكم، وبالنصب، أى لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والصلات والوسائل، ﴿ وَضَلَّ عَنكُم ﴾ أى ذهب عنكم ﴿ مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ من نفع الأصنام والأنداد، كقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءلُونَ ﴾ [3] وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ

---

(١) الشعراء.

(٢) البقرة.

(٣) المؤمنون.

النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [(١)] وقال: ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ [(٢)] وقال: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [(٣)].

قال محمد تقي الدين: – قوله: «إن كان ثم معاد» يعني بالنسبة إلى المشركين، فإن كثيرا منهم كانوا ينكرون المعاد أو يشكون فيه.

فائدة

قال محمد تقي الدين: – أيات هذا الباب تدل دلالة في غاية الوضوح على أن عباد القبور وأصحاب الطرائق يخسرون يوم القيامة خسرانا مبينا، لأنهم يظنون بل يعتقدون أن شيخوهم يشفعون لهم عند الله ويدخلونهم الجنة، فإذا بهم يتبرؤون منهم ويقولون لهم بلسان فصيح: ما كنتم إيانا تعبدون، يعنون إنما كنتم تعبدون شياطين الإنس والجن الذين أضلوكم وزينوا لكم الشرك ﴿ فَكَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ وذلك أن المقبور إما أن يكون نبيا أو صالحا فهو غافل عن عبادة المشركين بما أعد الله له من النعيم، وإما أن يكون طالحا راضيا بالشرك فهو غافل عن عبادتهم بما أعده الله له من عذاب أليم.

الباب الثاني عشر

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ

(١) العنكبوت.

(٢) القصص.

(٣) يونس.

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

الأنعام الآيات: ١٠٠ إلى ١٠٥

قال (ك) هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته، بأن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة، تعالى الله عن شركهم وكفرهم، فإن قيل: فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب: أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن، وأمرهم إياهم بذلك كقوله: ﴿ **إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا** ﴾ [1] وكقوله تعالى: ﴿ **أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي** ﴾ [2] الآية، وقال إبراهيم لأبيه: ﴿ **يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا** ﴾ [3] وكقوله ﴿ **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ** ﴾ [4] وتقول الملائكة يوم القيامة: ﴿ **سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ** ﴾ [5] ولهذا قال

---

(١) النساء.

(٢) الكهف.

(٣) مريم.

(٤) يس.

(٥) سبأ.

تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ أى وقد خلقهم فهو الخالق وحده لا شريك له، فكيف يعبد معه غيره، كقول إبراهيم: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له، وقوله تعالى: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ينبه به تعالى عن ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولدا، كما يزعم من قاله من اليهود في عزير ومن النصارى في عيسى، ومن قال من مشركى العرب في الملائكة أنها بنات الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ومعنى خرقوا: أى اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا كما قال علماء السلف.

قال «ج» وتأويله إذا جعلوا لله الجن شركاء في عبادتهم إياهم، وهو المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير: ﴿ وَخَرَقُواْ لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بحقيقة ما يقولون، ولكن جهلا بالله وبعظمته، فإنه لا ينبغى لمن كان إلها أن يكون له بنون وبنات ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ولهذا قال: ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء: ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق كما قال مجاهد والسدي، ومنه سميت البدعة بدعة، لأنه لا نظير لها فيما سلف: ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ أى كيف يكون له ولد: ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ أى والولد إنما يكون متولدا بين شيئين، متناسبين، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شئ من خلقه، لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة له ولا ولد كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ (٢) ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فبين تعالى أنه خلق كل شيء وهو بكل شيئ عليم، فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه وهو الذى لا نظير له، فأنى يكون له ولد، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

---

(١) الصافات.

(٢) مريم.

يقول تعالى: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى الذى خلق كل شيء ولا ولد له ولا صاحبة: ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أى فاعبدوه وحده لا شريك له، وأقروا له بالوحدانية وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا ولد له ولا نظير ولا عديل: ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أى حفيظ ورقيب، يدبر كل ما سواه ويرزقهم ويكلؤهم بالليل والنهار.

فائدة

قال محمد تقى الدين: - قول (ك): فإن قيل كيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام، وجوابه عن ذلك، بأن الجن يوسوسون لعباد الأصنام يزينون لهم عبادتها فنسبت إليهم العبادة لذلك، فيه نظر، لأن القرآن قد صرح بأن بعض المشركين كانوا يعبدون الجن حقيقة، كما في قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ **قال (ك)** في تفسير هذه الآية: أى كنا نرى أن لنا فضلا على الأنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها، وكما كانت عادة العرب في جاهليتها، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقا، أى خوفا وارهابا وذعرا حتى صاروا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم، كما قال قتادة: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أى إثما وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة، وقال السدي: - كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر وأنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى، قال قتادة: فإذا عاذ بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك، أ هـ.

قال محمد تقى الدين: - فقد تبين أن مشركى العرب كانوا يعبدون الجن بالعياذ والخوف، وتقدم أن الجهال في هذا الزمان يعبدون الجن إذا بنوا بيتا جديداً يذبحون ذبيحة للجن قربانا لهم لئلا يؤذونهم، والسحرة في هذا الزمان إذا دعوا لعلاج شخص مصروع يأمرون أهله بذبح ذبيحة لذلك الجن الذى صرعه بزعمهم.

الباب الثالث عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ الآية: ١٠٦: ١٠٧

قال (ك) يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ، ولمن اتبع طريقته: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ أى اقتد به، واقتف أثره، واعمل به، فإن ما أوحى إليك من ربك هو الحق الذى لا مرية فيه، لأنه لا إله إلا هو ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ أى اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم فإنه لو شاء لهدى الناس كلهم جميعا، ولو شاء لجمعهم على الهدى: ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُواْ** ﴾ أى بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾ أى حافظا تحفظ أقوالهم وأعمالهم: ﴿ **وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ** ﴾ أى موكل على أرزاقهم وأمورهم، إن عليك إلا البلاغ كما قال تعالى: ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾ [١] وقال: ﴿ **فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ** ﴾ [٢]

فصل

قال محمد تقى الدين: – قوله تعالى مخاطبا رسوله ﷺ وفى ضمنه خطاب لأمته: ﴿ **اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ** ﴾ يشمل الوحى كله، سواء أكان قرآنا أم حديثا، فإن الحديث يوحى إلى النبى ﷺ أيضا، ولكن لا يسمى قرآنا لقوله تعالى في سورة النجم: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ وفي الصحيح: «أن النبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة وجد أهلها يلقحون النخل، فقال لهم ما هذا ؟ فقالوا شيء نأخذه من الذكر ونضعه في الأنثى، يصلح عليه التمر، فقال ما أراه ينفع، فتركوا التلقيح، ففسد التمر، وصار شيصا فأخبروا النبى ﷺ

---

(١) الغاشية.

(٢) الرعد.

بذلك فقال: «إذا حدثتكم عن الله فخذوا به، فإنى لا أكذب على الله، وأنتم أعلم بأمور دنياكم» أو كما قال عليه الصلاة والسلام، فكل ما تكلم به النبى ﷺ في أمور الدين، فهو من الله تعالى، وأهم أمور الدين توحيد الله تعالى في ربوبيته، فلا رب غيره، وفي عبادته فلا يعبد غيره، وفي أسماءه وصفاته فلا يشاركه فيها غيره، وفي الاتباع فلا يتبع إلا وحيه وهو القرآن والحديث الثابت، وعلى هذه الأربعة نويت أن أؤلف هذا الكتاب، وقد بدأته وتمامه على الله، فاتباع توحيد الله تعالى بأنواع الأربعة فرض على كل مسلم، والاعراض عن المشركين بمخالفتهم والبراءة منهم واجب حتم.

الباب الرابع عشر

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ الآية ١٢١-١٢٢

قال (ك) استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها وإن كان الذابح مسلما، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال، فمنهم من قال لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة، وسواء متروك التسمية عمدا أو سهوا، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبى ومحمد بن سيرين، وهو رواية عن الإمام مالك، ورواية عن أحمد بن حنبل، نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين، وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهرى، واختار ذلك أبو الفتح محمد بن محمد بن على الطائى من متأخرى الشافعية في كتابه الأربعين، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية، وبقوله في آية الصيد: ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾ [(١)] ثم أكد

(١) المائدة.

في هذه الآية بقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ والضمير قيل: عائد على الأكل، وقيل: عائد على الذبح لغير الله، وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد، كحديثى عدى ابن حاتم وأبى ثعلبة: « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه، فكل ما امسك عليك، وهو في الصحيحين أيضا، وحديث ابن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال للجن: « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » رواه مسلم، وحديث جندب بن سفيان البجلى قال: قال رسول الله ﷺ: « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله » أخرجاه[1]، وعن عائشة ﵂: «أن ناسا قالوا: يا رسول الله، أن قوما يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال: سموا عليه انتم وكلوا، قالت: وكانوا حديثى عهد بالكفر » رواه البخاري، ووجه الدلالة، أنهم فهموا أن التسمية لابد منها وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح، إن لم تكن وجدت، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد، والمذهب الثاني في المسألة، أنه لا يشترط التسمية بل هى مستحبة، فإن تركها عمدا أو نسيانا لا يضر، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، وجميع أصحابه ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل وهو رواية عن الإمام مالك، ونص على ذلك أشهب، وحمل الشافعي الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ [2] على ماذ بح لغير الله، كقوله تعالى: ﴿ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وقال ابن جريج عن عطاء: ﴿ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان، وينهى عن ذبائح المجوس، وهذا المسلك الذى طرده الإمام الشافعى قوى، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ﴾ حالية أى ـ لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقا ولا يكون فسقا حتى يكون قد أهل به لغير الله، ثم ادعى ان هذا متعين، ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة لأنه يلزم فيه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية، وهذا ينتقض عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ

---

(١) يعنى البخارى ومسلم.

(٢) الأنعام.

﴿ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة، فإن كانت الواو التى ادعى أنها حالية بطل ما قال من أصله والله أعلم، وقل ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس في الآية: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال: هى الميتة، وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل، وذكر سنده إلى الصلت الدوسي قال: قال رسول الله ﷺ: «ذبيحة المسلم حلال، ذكر اسم الله أو لم يذكر، إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله» وهذا مرسل، يعضد بما رواه الدراقطنى عن ابن عباس أنه قال: إذا ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل، فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله.

المذهب الثالث في المسألة أن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمدا لا تحل، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه وإسحاق بن راهويه وهو: يحكى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاووس والحسن البصرى وأبى مالك وعبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبد الرحمن، وقال أبو جعفر ابن جرير رحمه الله: من حرم ذبيحة الناسي، فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ، يعنى ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: «المسلم يكفيه اسمه إن نسى أن يسمى حين يذبح وليذكر اسم الله وليأكل»، وهذا الحديث رفعه خطأ أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري، ورواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس موقوفا **قال (ك)** وهذا أصح، نص عليه البيهقي.

قال «ج» ولا تعارض بين حل طعام أهل الكتاب وبين تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه **قال (ك)** وهذا الذى قاله صحيح، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ روى ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم، أنهما قالا في المختار أن أبى عبيد لما أدعى أن الوحى ينزل عليه صدق وقرأ هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ ﴾ يعنيان أن المختار بن أبى عبيد الثقفى الكذاب كان من أولياء الشياطين.

قال محمد تقى الدين: - مرادهما: أن الوحى الذى ادعاه المختار ابن أبى عبيد هو من

وحى الشياطين، ثم **قال (ك)** روى أبو داود وذكر سنده عن عبد الله بن عباس قال: جاءت اليهود إلى النبى ﷺ فقالوا: نأكل مما قتلناه ولا نأكل مما قتل الله، فأنزل الله: ﴿ **وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ** ﴾ **قال (ك)** بعد كلام وهذا فيه نظر من وجوه ثلاثة: «أحدها» أن اليهود لا يرون إباحة الميتة حتى يجادلوا، «الثانى» أن الآية من الأنعام مكية، «الثالث» أن هذا الحديث رواه الترمذي وذكر سنده عن ابن عباس أن ناسا أتوا النبى ﷺ إلى آخره، وقال الترمذي حسن غريب، ثم ذكر **(ك)** أخبارا ونقولا تدل على أن الذى قال ذلك هم المشركون، وهو الصحيح، لأنهم يأكلون الميتة، وقوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ** ﴾ أى حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره فقدمتم عليه غيره، فهذا هو الشرك كقوله تعالى: ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ [1] وقد روى الترمذي في تفسيرها عن عدى بن حاتم أنه قال: يا رسول الله، ما عبدوهم، فقال بلى، إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال، فأتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم، أ هـ.

فصل

قال محمد تقى الدين: -الذى نختاره من هذه الأقوال الثلاثة هو أن الذبيحة إذا ترك ذابحها التسمية سهوا يجوز أكلها وإن تركها عمدا لا يجوز أكلها، والمراد بالشرك هنا كما **قال (ك)** رحمه الله جعل التشريع لغير الله فمن اتخذ إماما أو شيخا وبالغ في تعظيمه حتى جعل له الحكم إذا حلل شيئا أو حرمه أو أوجبه لم يطالبه بدليل، بل لو كان قوله مخالفا لكلام الله وكلام رسوله رجحه عليهما، وقال: «إمامى أو شيخي أعلم بالحديث وبالقرآن» فقد أشرك بالله واتخذ شيخه وإمامه ربا من دون الله، وسيأتى إن شاء الله مزيد على هذا في القسم الثاني من هذا الكتاب عند تفسير آية التوبة المشار إليها أعلاه.

الباب الخامس عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

---

(١) التوبة.

نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ الآية: ١٣٦

قال محمد تقى الدين: – وجدت تفسير هذه الآية في **(ك)** محرفا فاسدا فاضطررت أن أفسرها بكلامى مما فهمته من التفاسير، قال تعالى: عائبا على المشركين: ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ** ﴾ أى خلق ﴿ **مِنَ الْحَرْثِ** ﴾ أى غلة الزرع ﴿ **وَالأَنْعَامِ** ﴾ هى الإبل والبقر والغنم، ﴿ **نَصِيبًا** ﴾ أى قسما، وجعلوا لأوثانهم نصيبا آخر، فقالوا هذا لله وأطعموه الضيوف والمساكين، وأما النصيب الذى جعلوه لأوثانهم فأنهم يعطونه سدنتها، فإذا وقع من النصيب الذى جعلوه لله شيء في النصيب الذى جعلوه لأوثانهم، تركوه مع نصيب الأوثان، وقالوا أن الله غنى، والأوثان فقيرة، أما إذا وقع في النصيب الذى جعلوه لله شيء من النصيب الذى جعلوه لأوثانهم أخذوه وردوه إلى نصيب الأوثان، وهذا يدل على أن خوفهم ورجاءهم للأوثان أكثر من خوفهم ورجائهم لله تعالى، فلذلك يتساهلون في حق الله ولا يتساهلون في حق الأوثان، وهكذا يعمل مشركوا هذا الزمان، وقد تقدم بيان ذلك، هذا معنى ما رأيته في عدة من التفاسير، ويظهر لى أن معنى الآية أن المشركين يتصدقون بنصيب من أموالهم لوجه الله ويتصدقون بنصيب آخر تقربا إلى أوثانهم فما جعلوه لله لا يقبله منهم فلا يصل إلى الله أى لا يكون مقبولا عنده وما جعلوه من الصدقة لشركائهم فهو للشركاء وكذلك ما جعلوه لله أيضا يرجع للشركاء لأن الله تعالى غنى عن الشرك ولا يقبل من العمل إلا ما كان كله خالصا له، فمن جعل من عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءا لله تعالى وجزءاً واحدا لغير الله تعالى، أحبط الله عمله ولم يقبل من عبادته شيئا، وفي الحديث القدسى يقول الله تعالى: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه» وفي حديث آخر يقول الله تعالى: «أنا خير الشريكين» وهذا المعنى

ظاهر في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [1] فنفى الله عنهم عبادته مع أنهم كانوا يعبدونه بالحج والصدقة، لأنهم كانوا يعبدون معه غيره، وفي هذا الزمان ينفق المشركون الأموال الكثيرة بسخاء وطيب نفس تقربا إلى إلهتهم التى يسمونها أولياء، ويمنعون الزكاة والصدقة لأنهم يخافون أولياءهم وشركاءهم الذين اتخذوهم مع الله، ويرجون منهم ما لا يخافون ولا يرجون من الله تعالى، ولو ساووهم بالله تعالى لكانوا من أكفر الكافرين وأظلم الظالمين، كما قال تعالى حكاية عن المشركين السابقين في سورة الشعراء: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قلت: وقد كانوا مؤمنين بتوحيد الربوبية، فلم ينفعهم ذلك شيئا لأنهم أشركوا مع الله في عبادته، أ هـ.

الباب السادس عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

الآية: ١٥١

قال (ك) عن ابن مسعود ﷺ قال من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمة، فليقرأ هؤلاء الآيات: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ

(١) الكافرون

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وأخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس قال: في الأنعام آيات محكمات من أم الكتاب، ثم قرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات، ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه[١]

وأما تفسيرها، فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: «﴿قُلْ﴾» يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله، وقتلوا أولادهم، وكل ذلك فعلوه بآرائهم، وتسويل الشياطين لهم ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أى هلموا وأقبلوا ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أى أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا لا تخرصا ولا ظنا، بل وحيا منه وأمرا من عنده ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ وكأن في الكلام محذوفا دال عليه السياق، وتقديره: وأوصاكم ﴿أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وتقول العرب: «أمرتك أن لا تقوم، وفي الصحيحين من حديث أبى ذر ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئا من أمتك دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر ؟ قال: وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر » وفي بعض الروايات، أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة: «وإن رغم أنف أبى ذر » فكان أبو ذر يقول: بعد تمام الحديث « وإن رغم أنف أبى ذر» وفي بعض المسانيد والسنن عن أبى ذر قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: « يا بن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئا، وإن أخطأت حتى تبلغ خطايات عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك » ولهذا شاهد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ [٢] وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » والآيات

---

(١) أى البخارى ومسلم.

(٢) النساء.

والأحاديث في هذا كثيرة جداً، وروى ابن مردويه من حديث عبادة وأبى الدرداء: « لا تشركوا بالله شيئا وأن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم» وقوله تعالى: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا، أى أن تحسنوا إليهما كما قال تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (١) وقرأ بعضهم: ﴿ ووصى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٢)، أى أن تحسنوا إليهما، والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين، كما قال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) فأمر بالإحسان إليهما وإن كانا مشركين وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (٤) الآية، والآيات كثيرة، وفي الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: سألت رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال الصلاة على وقتها، قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله، قال: حدثنى بهن رسول الله ﷺ، ولو استزدته لزادنى» وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه، بسنده عن أبى الدرداء، وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول: أوصانى خليلى رسول الله ﷺ: «أطع والديك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل» ولكن في إسناديهما ضعف.

قال محمد تقى الدين: – إن صحت هذه العبارة عن النبى ﷺ فالمراد بها لو ملكت ما ملكت من متاع الدنيا، وأراد منك الوالدان أن تعطيهما إياه فافعل، وإن كان الحديث غير صحيح ولا حسن فلا يثبت به حكم أ هـ. ثم قال (ك): ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ لما أوصى الله تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد، فقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إِمْلاَقٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون

---

(١) النساء.

(٢) الإسراء.

(٣) لقمان.

(٤) البقرة.

أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار، ولهذا ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه سأل رسول الله ﷺ: أى الذنب أعظم ؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك، قلت ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال أن تزانى حليلة جارك، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا ﴾ [1] الآية وقوله تعالى: ﴿ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ قال ابن عباس هو الفقر، أى لا تقتلوهم من فقركم الحاصل، وقال في سورة الإسراء: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أى لا تخافوا من ظفركم بسبب رزقهم فهو على الله، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ لأنه الأهم ههنا، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقد تقدم تفسيرها في قوله تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ وفي الصحيحن عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »، وقال عبد الملك بن عمير عن وراد عن مولاه المغيرة قال: قال سعد بن عبادة: « لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال أتعجبون من غيرة سعد، فو الله لأنا أغير من سعد، والله أغير منى من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »، وقوله تعالى: ﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ وهذا مما نص تبارك وتعالى عن النهى عنه تأكيدا وإلا فهو داخل في النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث، الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك

---

(١) الفرقان

لدينه المفارق للجماعة » وقد جاء النهى والزجر والوعيد في قتل المعاهد وهو المستأمن من أهل الحرب، فروى البخاري عن عبد الله بن عمر ﷺ أن النبى ﷺ مرفوعا: « من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال: « من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفا » رواه ابن ماجه والترمذي، وقال حسن صحيح، وقوله: ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه، أ هـ.

قال محمد تقى الدين: - اشتملت هذه الآية على خمس وصايا، الأولى: توحيد الله تعالى والنهى عن الشرك به، والثانية: بر الوالدين، والثالثة: النهى عن قتل الأولاد الذى كان أهل الجاهلية يفعلونه، وفي هذا الزمان يقتلون النطف في الأرحام منعا للحمل خوفا من قلة الرزق، وهذا يؤول بهم إلى إنكار القرآن، وقد قال الله تعالى في مواضع كثيرة، أنه متكفل برزق كل مخلوق، كقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ وكقوله في هذه الآية: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ إلى غير ذلك ولم يقتصروا على قتل النطف بمنعها من الوصول إلى الرحم مع أن النبى ﷺ قال في العزل إنه الموؤدة الصغرى أى قتل الأولاد الأصغر حتى أضافوا إلى ذلك قتل الجنين في رحم أمه مخافة أن يأكل معهم، وليس العجب من الأوربين إذا فعلوا ذلك فإنهم جاهلون بالله وبصفاته، ولكن العجب ممن يدعى الإسلام، ويؤمن بهذا الضلال ويقتبسه منهم كأنه فضيلة، وقد كانت حكومة هتلر تفرض كل رجل وامرأة يريدان الزواج خمسة آلاف مارك ألمانى بشرط أن يفحصهما طبيب ويجدهما صالحين للتناسل، أما الغرباء الذين ليسوا جرمانيين ولا أوربيين فكانوا يمنعونهم من التناسل ويجبرونهم على الاختصاء تعصبا منهم لجنسهم، وهؤلاء الجاهلون يقطعون نسل أبناء جنسهم، وقد ألفت مقالة طويلة في حكم منع النسل، وأقمت البراهين على بطلانه من الوجهة الشرعية ومن الوجهة الاقتصادية إلا إذا كان فيه ضرر محقق على الوالدين أو الأولاد، فيكون بقدره، ونشر هذا المقال في صحيفة دعوة الحق المغربية، الرابعة: النهى عن اتيان الفواحش وهى الكبائر ما ظهر منها وما بطن، الخامسة: تحريم قتل النفس

التى حرم الله إلا من أوجب الشرع قتله لإقامة العدل بين الناس، وهناك خمسة وصايا أخرى لم نثبت آيتها وتفسيرها اختصارا، وهى أكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان، والتزام العدل في القول والعمل، والوفاء بالعهد، واتباع الصراط المستقيم، وهو ما كان عليه النبى ﷺ من أمور الدين فهذه عشر وصايا جمعت الخير كله، ما من أمة تحافظ عليها إلا سعدت في دنياها وآخرتها، وما من أمة تضيعها إلا شقيت في عاجلها وآجلها وبالله التوفيق.

الباب السابع عشر

قال الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ الآية: ١٦١ إلى ١٦٤.

قال (ك): يقول الله تعالى آمرا نبيه ﷺ سيد المرسلين، لأن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف: ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ أى قائما ثابتا: ﴿ مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ كقوله: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ [١] وقوله: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [٢] وقوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ

(١) البقرة.

(٢) الحج.

في الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ (١)، وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها، لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما، وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذى يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام، وروى ابن مردويه بسنده عن ابن ابزى عن أبيه قال كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أصبحنا على ملة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبيا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وقال الإمام أحمد بسنده إلى ابن عباس أنه قال: قيل لرسول الله ﷺ أى الأديان أحب إلى الله تعالى ؟ قال الحنيفية السمحة، وقال أحمد بسنده عن عائشة ﵂ قالت: وضع رسول الله ﷺ ذقنى على منكبه لأنظر إلى زفن الحبشة، حتى كنت التي مللت فانصرفت عنه، قال عبد الرحمن: عن أبيه قال: قال لى عروة: أن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ يومئذ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إنى أرسلت بحنيفية سمحة»، أصل الحديث مخرج في الصحيحين، والزيادة لها شواهد من طرق عدة، وقوله تعالى: ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾ يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله، ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى: ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ (٢) أى أخلص له صلاتك وذبحك، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال ابن أبى حاتم: بسنده عن جابر ابن عبد الله قال: ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين، وقال حين ذبحهما: ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾، ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقوله: ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾ قال قتادة: أى هذه الأمة، وهو كما قال،

---

(١) النحل

(٢) الكوثر.

فإن جميع الأنبياء قبله كلهم كانت دعوتهم إلى الإسلام، وأصله عبادة الله وحده لا شريك له كما قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْه أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ (١) وقد أخبر تعالى عن نوح أنه قال لقومه: ﴿ فَإن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إنْ أَجْرِيَ إلاَّ عَلَى اللَّه وَأُمرْتُ أَنْ أَكُونَ منَ الْمُسْلمينَ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّة إبْرَاهيمَ إلاَّ مَن سَفهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْنَاهُ في الدُّنْيَا وَإنَّهُ في الآخرَة لَمنَ الصَّالحينَ إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لرَبِّ الْعَالَمينَ وَوَصَّى بهَا إبْرَاهيمُ بَنيه وَيَعْقُوبُ يَا بَنيَّ إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلمُونَ ﴾ (٣) وقال يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَني منَ الْمُلْك وَعَلَّمْتَني من تَأْويل الأَحَاديث فَاطرَ السَّمَوَات وَالأَرْض أَنتَ وَليِّي في الدُّنُيَا وَالآخرَة تَوَفَّني مُسْلمًا وَأَلْحقْني بالصَّالحينَ ﴾ (٤) وقال موسى: ﴿ يَا قَوْم إن كُنتُمْ آمَنتُم باللّه فَعَلَيْه تَوَكَّلُواْ إن كُنتُم مُّسْلمينَ فَقَالُواْ عَلَى اللّه تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فتْنَةً لِّلْقَوْم الظَّالمينَ وَنَجِّنَا برَحْمَتكَ منَ الْقَوْم الْكَافرينَ ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ إنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بهَا النَّبيُّونَ الَّذينَ أَسْلَمُواْ للَّذينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانيُّونَ وَالأَحْبَارُ ﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿ وَإذْ أَوْحَيْتُ إلَى الْحَوَاريِّينَ أَنْ آمنُواْ بي وَبرَسُولي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بأَنَّنَا مُسْلمُونَ ﴾ (٧) فأخبر تعالى أنه بعث رسله بالإسلام، ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التى ينسخ بعضها بعضا، إلى أن نسخت بشريعة محمد ﷺ التى لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة، ولهذا قال عليه السلام: « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد » وأولاد العلات: هم: الأخوة من أب واحد، وأمهات شتى، فالدين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التى هى بمنزلة الأمهات، كما أن أخوة الأخياف عكس هذا بنو الأم

---

(١) الأنبياء.

(٢) يونس.

(٣) البقرة

(٤) يوسف.

(٥) يونس.

(٦) المائدة.

(٧) المائدة.

الواحدة من آباء شتى، والأخوة الأعيان الأشقاء من أب واحد وأم واحدة، وقال الإمام أحمد بسنده عن على ﷺ: أن رسول الله ﷺ كان إذا كبر استفتح ثم قال: «وجهت ووجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربى أنا عبدك ظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى جميعا لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت، واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت، تباركت وتعاليت، استغفرك وأتوب إليك » ثم ذكر تمام الحديث فيما يقوله في الركوع والسجود والتشهد وقد رواه مسلم في صحيحه، ثم **قال (ك)** يقول تعالى: ﴿ **قـل** ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ **أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا** ﴾ أى أطلب ربا سواه ﴿ **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ يربينى ويحفظنى ويكلؤنى ويدبر أمرى أى لا أتوكل إلا عليه ولا أنيب إلا إليه لأنه رب كل شيء ومليكه وله الخلق والأمر، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل، كما تضمنت التى قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وهذا المعنى يقرن بالآخر كثيرا في القرآن كقوله تعالى مرشدا لعباده أن يقولوا له: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [١] وقوله: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [٢] وقوله: ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [٣] وقوله: ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾ [٤] وأشباه ذلك من الآيات، وقوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ أخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها إن خيرا فخير، وإن شر فشر، وأنه لا يحمل من خطيئته أحد على أحد، وهذا من عدله تعالى كما قال: ﴿ **وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾ [٥]

---

(١) الفاتحة.

(٢) هود.

(٣) الملك.

(٤) المزمل.

(٥) فاطر.

وقوله تعالى: ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ (١) قال علماء التفسير أى فلا يظلم بأن يحمل عليه سيئات غيره ولا يهضم بأن ينقص من حسناته، وقال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴾ (٢) معناه كل نفس مرتهنة بعملها السوء، إلا أصحاب اليمين، فإنه قد يعود بركة أعمالهم الصالحة على ذرياتهم وقراباتهم، كما قال في سورة الطور: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أى ألحقنا بهم ذريتهم في المنزلة الرفيعة في الجنة، وإن لم يكونوا قد شاركوهم في أعمالهم بل في أصل الإيمان، وما ألتناهم، نقصنا أولئك السادة الرفعاء من أعمالهم شيئا، حتى ساويناهم وهؤلاء الذين هم أنقص منهم منزلة، بل رفعهم تعالى إلى منزلة الآباء ببركة أعمالهم بفضله ومنه، ثم قال: ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أى من شره، كقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أى اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه، فستعرضون ونعرض عليه، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم، وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا، كقوله: ﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣) أ هـ.

فائدة

قال محمد تقى الدين: - قول (ك) -أن أصل الإسلام عبادة الله وحده لا شريك له يريد بذلك الإسلام الصحيح الذي يكون فيه القلب مطابقا للسان والجوارح، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ﴾ (٤) أما إسلام المنافقين وأدعياء الإسلام من المشركين، فإنه لا ينفعهم ولا يرفعهم بل هم في الدرك الأسفل من النار، فمن يلتجئ إلى غير الله في قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو يحلل ما حرم الله، أو يستحسن الحكم بغير ما أنزل الله، فلا حظ له في الإسلام الصحيح ولا نجاة له من الخلود في العذاب الأليم،

(١) طه.

(٢) المدثر.

(٣) سبأ

(٤) آل عمران.

إن لم يتب ويخلص الدين لله تعالى قبل موته.

سورة الأعراف

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآية ٢٩-٣٠

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ** ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ **وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محالها، وهى متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وما جاؤوا به من الشرائع، وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين: أن يكون صوابا موافقا للشريعة، وأن يكون خالصا من الشرك، وقوله تعالى: ﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ قال «ج» عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما بدأكم أولا. كذلك يعيدكم آخرا، وأيده بما رواه عن ابن عباس قال: « قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: أيها الناس، إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول الخلق نعيده، وعدا علينا أن كنا فاعلين » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين.

قال محمد تقى الدين: – قوله تعالى: ﴿ **فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ** ﴾ كل من هداه الله تعالى فبفضله، وكل من أضله فبعدله، ولكن من طلب الهدى هداه الله، لقول النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم» وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ (١) وقال في أهل الضلال: ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا**

---

(١) التغابن.

أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (١) وقال فيهم: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٢) وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ وقال هنا: ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فقد زينت لهم الشياطين عبادة القبور والمقبورين فيها، وعبادة شيوخ التصوف والاستمداد منهم، وهو شرك، واعتقاد أنهم يؤثرون في قلب المريد إذا رضوا عنه، أما فتحا وتنويرا وجذبا إلى الله تعالى، وإما طردا وإبعادا وطمسا للقلب وسدا له، وهذا شرك في الربوبية، فإن الذى يعطى ويمنع وينور القلوب ويزيل ظلمتها وقسوتها ويصلحها ويملؤها نورا وخشوعا وتوكلا على الله وإيمانا به، ليس الشيخ المتصوف ولا غيره من الخلق، وإنما يفعل ذلك الله وحده لا شريك له، وصحبة التلميذ لمعلمه إذا كان المعلم من أهل العلم والعمل، والأخلاق الكريمة، يستفيد منها التلميذ، كما يدل على ذلك قصة طلب موسى لصحبة الخضر، أما التأثير، فلله وحده لا شريك له، بيده الهداية والضلال والنفع والضر، سبحانه عما يشركون.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الآية ٣٣

معنى تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ؟ تقدم في الباب السادس عشر من سورة الأنعام، والإثم: **قال (ك)** حاصل ما فسر به الإثم: أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه، والبغي: هو التعدى على الناس، فحرم الله هذا وهذا، وقوله تعالى: **وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ**

---

(١) الصف.

(٢) الأنعام.

﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ أى تجعلوا لـه شـركاء في عبادتـه: ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ من الافتراء والكذب، من دعوى أن له ولدا ونحو ذلـك مما لا علـم لكـم بـه، كقوله ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [1] أ هـ.

قال محمد تقى الدين: - فسر العلماء القول على الله بلا علم، بالقضاء والافتاء بالتقليد، لأن التقليد جهل محض، فلا يجوز للمقلد أن يفتى، ولا أن يقضـى في قليـل ولا كـثير، لأنـه بمنزلة الأعمى، والأعمى يقاد ولا يقود. قال الحافظ أبو عمر بن عبـد الـبر في كتابـه «جـامع بيان العلم وفضله» نظما أنشده لنفسه ومنه قوله:

لا فـرق بـين مقلـد وبهيمـة	**تنقـاد بـين جنـادل ودعـاثر**
تبـا لقاضـى أو لمفـت لا يـرى	**علـلا ومعنـى للمقـال السـائر**
فـإذا اقتـديت فبالكتـاب وسنـة	**ة المبعـوث بالـدين الحنيـف الطـاهر**
وإذ الخـلاف أتـى فـدونك فاجتهـد	**ومـع الـدليل فمـل بفهـم حاضـر**
وقس الفروع على الأصول ولا تقس	**فرعـا بفـرع كـالجهول الحـائر**

وهى طويلة فانظرها فيه، وقوله وقس الفروع على الأصول، البيت، يعنـى إذا لم تجـد في المسألة نصا من الكتاب ولا من السنة فقس الفروع على الأصول، والمراد بالفروع ما لم يـرد فيه نص قسه على ما يماثله مما ورد فيه نص، مثل ذلك صدقة الفطر، فقـد جـاء في الحـديث أنها كانت تؤدى في زمان النبى ﷺ من الشـعير والـبر والتمـر والاقـط، وهـذا كـان غالـب قوتهم فالبلاد التى غالب قوت أهلها من الأرز، يؤدون صدقة الفطر من الأرز قياسـا علـى ما تقدم من قوت أهل المدينة في ذلك في الزمان، لأن العلة واحدة وهى التغذيـة فهـذا بيـان قياس الفروع على الأصول، أما قياس الفروع على الفروع الذى نهى عنه الإمـام أبـو عمـر بن عبد البر، فهو ما يفعله المقلدون للمذاهب، فـإذا رأوا أن أمـامهم لم يجـد نصـا في مسـألة فاجهتد وأفتى فيها برأيه، يتخذون رأيه أصلا كأنه قـرآن أو حـديث، ويقيسـون علـى تلـك المسألة التى أفتى فيها إمامهم بالرأى مـا يماثلـها مـن المسـائل ولا يبحثـون عـن النصـوص،

---

(١) الحج.

وقد أطال الحافظ ابن القيم الكلام في هذا المعنى في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» أ هـ.

الباب الثالث

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ الآيات: ٥٩- ٦٢

قال (ك) لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك وما يتصل به وفرغ منه، شرع الله تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، الأول فالأول، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام، قال عبد الله بن عباس: وغير واحد من علماء التفسير وكان أول ما عبدت الأصنان أن قوما صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين، ودا، وسواعا، ويغوث، ويعوق، ونسرا، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى، وله الحمد والمنة، رسوله نوحا، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ أي من عذاب يوم القيامة، إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ** ﴾ أى الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم: ﴿ **إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي فى دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التى وجدنا آباءنا عليها، هكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار في ضلالة

كقولـه: ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ ﴾ (١) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (٢) إلى غير ذلك من الآيات: ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى ما أنا ضال، ولكن أنا رسول من رب العالمين، رب كل شيء ومليكه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا فصيحا ناصحا عالما بالله لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات، كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة: وهم أوفر ما كانوا وأكثر جمعا « أيها الناس، إنكم مسؤولون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول: اللهم أشهد اللهم أشهد،

فصل

قال محمد تقى الدين: – في هذا الباب فائدتان، الأولى: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله كما وقع لقوم نوح، ومع أعظم أسباب الشرك بالله الغلو في الأنبياء والصالحين، والمبالغة في تعظيمهم، إلى أن يجعل لهم حق الله، وهو العبادة كما فعلت النصارى مع عيسى وكما يفعل المشركون الأولون والآخرون مع قبور الصالحين، وقد قال النبى ﷺ: « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله» وقد تقدم في الآية السابقة، التنبيه على مفاسد الغلو، الثانية: أن المحاربين لدعوة الرسل وأتباعهم في كل زمان ومكان هم الرؤساء والكبراء ومن يقتدى بهم من العوام، ولكن العاقبة لأهل التوحيد، والخسران لأهل الشرك، جعلنا الله ممن نصر توحيده واتبع سنة نبيه ﷺ.

(١) المطففين.

(٢) الأحقاف.

الباب الرابع

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَـٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

الآيات ٦٥ - ٧٢

قال (ك) يقول تعالى: وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحا كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا، قال محمد بن إسحاق: هم ولد عاد بن إرم، قلت: هؤلاء هم عاد الأولى الذين ذكرهم الله وهم أولاد عاد بن ارم الذين كانوا يأوون إلى العمد في البر كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ** ﴾ [(١)] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم كما قال تعالى: ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا**

---

(١) الفجر.

قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١)

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف، وهى جبال الرمل، وقد كان هود من أشرف قومه نسبا، لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم، وكانوا من أشد الأمم تكذيبا للحق، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى طاعته وتقواه: ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ ﴾ والملأ: هم الجمهور والسادة والقادة منهم: ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إله واحد، فقالوا: ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ ﴾ (٢)، قال يا قوم ليس بى سفاهة، ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ إنى لست كما تزعمون، بل جئتكم بالحق من الله الذى خلق كل شئ فهو رب كل شيء ومليكه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل: البلاغ، والنصح، والأمانة: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ أى لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه، بل احمدوا الله على ذلكم: ﴿ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أى واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذى أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾ أى زاد طولكم على الناس بسطة، أى جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ (٣)، ﴿ فَاذْكُرُواْ آلاء اللَّهِ ﴾ أى نعمته ومنته عليكم: ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ والآلاء جمع ألى، ثم قال (ك) يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام: ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ﴾ الآية، كقوله الكفار

---

(١) فصلت.

(٢) ص.

(٣) البقرة.

من قريش: ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أنهم كانوا يعبدون أصناما، فصنم يقال له: صدا، وآخر يقال له: صمودا، وآخر يقال له: الهنا، ولهذا قال هود عليه السلام: ﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ﴾ أى وقد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس، قيل هو مقلوب من رجز، وعن ابن عباس معناه: سخط وغضب: ﴿ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم ﴾ أى أتحاجونى في هذه الأصنام التى سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة، وهى لا تضر ولا تنفع، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلا، ولهذا قال: ﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخرى من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ (٢) أ هـ.

إيضاح

قال محمد تقى الدين: – كل أمة استولى عليها الجهل باله تعالى وفشت فيها عبادة الأوثان واتباع الهوى، وعمها ظلام الكفر، تبغض دعاة الحق في كل زمان، وتقابلهم بالتمرد والعناد والتعجب، فالمشركون في هذا الزمان، كالمشركين في الأزمنة الأولى، وجوابهم لدعاة الحق كجواب أولئك لرسلهم، والعلماء ورثة الأنبياء، والوارث يلاقى من أهل الشرك مثل ما لاقاه الموروث، ففى هذا الزمان إذا قلنا لعباد القبور: دعوا عبادة القبور واتخاذها أوثانا واعبدوا الله وحده، قالوا يا عجبا منذ خلقنا الله لم نزل نرى العلماء الكبار الذين لا تساوى تراب نعالهم وهم كانوا يروننا نذبح للأولياء وننذر لهم ونتمسح بقبورهم ونستغيث بهم فما نهونا عن ذلك، ولا قالوا أنه شرك ولا كفر، وآباؤنا وجدوا آباءهم كذلك وعلماء زمانهم كذلك، فمن أين أتيت بهذا الدين الجديد، فإذا تلوت عليهم كتاب الله، وذكرت لهم حديث

(١) الأنفال.

(٢) الذاريات.

رسول الله ﷺ، قالوا: أن أولئك العلماء يعرفون القرآن والحديث أحسن منك، وعلماء زماننا كذلك، فهل انحصر العلم فيك وحدك ؟ فهل تريد أن تدخلنا في المذهب الوهابي، وتنقلنا من مذهب أهل السنة ؟ لا نسمع ولا نطيع، فأنت ترى أن المشركين تشابهت قلوبهم وتماثلت أجوبتهم للمصلحين، ورحم الله الشيخ عمران اللنجى إذ يقول:

إن كان تابع أحمد متوهبا	**فأنا المقر بأننى وهابى**
أنفى الشريك عن الإله فليس لى	**رب سوى المتفرد الوهاب**
لا قبة ترجى ولا وثن ولا	**قبر له سبب من الأسباب**
أيضا ولست معلقا لتميمة	**أو حلقة أو ودعة أو ناب**
لرجاء نفع أو لدفع مضرة	**الله ينفعنى ويدفع ما بى**
والابتداع وكل أمر محدث	**فى الدين ينكره ذوو الألباب**
أرجو بأنى لا أقاربه ولا	**أرضاه دينا هو غير صواب**
كالشافعى ومالك وأبى حنيـ	**ـفة ثم أحمد التقى الأواب**

وإذا قلت لهم: لماذا تخالفون حديث النبى ﷺ وهو صحيح صريح ؟ قالوا هذا مذهبنا، وإمامنا أعلم بالحديث منك، فما ترك العمل به إلا لأمر حمله على ذلك. فإن قلت لهم: متى أمركم الله أو أذن لكم أن تتخذوا هذا المذهب الذى يمنعكم من اتباع الرسول ﷺ ؟ فهل كانت للصحابة مذاهب ؟ أو للتابعين أو للأئمة المجتهدين أو لأحد من القرون المفضلة الثلاثة بنص النبى ﷺ: «خير القرون قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يأتى قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته، يخونون ولا يؤتمنون، ويعدون ولا يوفون» أو كما قال عليه الصلاة والسلام، يجيبونك عن هذا، أنت تريد أن تأتينا بالمذهب الخامس، ونحن راضون بمذهبنا لا نبغى به بديلا، فيقال لهم: إن كان الصحابة والتابعون أهل القرون المفضلة من مبعث النبى ﷺ إلى مائة وعشرين سنة كلهم على المذهب الخامس، فما أحسن المذهب الخامس! والحق أنكم كاذبون، فإنه لا يوجد في الإسلام إلا مذهب واحد، وهو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما حدث بعدهم من المذاهب فهو ذاهب أ هـ.

الباب الخامس

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾

الآيات ٧٣-٧٩

قال (ك): قال علماء النسب: ثمود بن عاثر، أخو جديس بن عاثر، وكذلك قبيلة طسم، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام، إلى وادى القرى وما حوله ثم قال: ﴿ **وَإِلَى ثَمُودَ** ﴾ أى ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحا: ﴿ **أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال

تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلكَ من رَّسُولٍ إلاَّ نُوحي إلَيْه أَنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ (١) وقوله: ﴿ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَـذه نَاقَةُ اللّه لَكُمْ آيَةً ﴾ أى قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به، وكانوا هم الذين سألوا صالحا أن يأتينهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم، وهى صخرة منفردة في ناحية الحجر يقال لها الكاتبة فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة، ثم انصدعت عن ناقة وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها. وأقامت الناقة وفصيلها بعد ما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها وتدعه لهم يوما، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاء قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ هَذه نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (٣) فلما طال واشتد تكذيبهم لصالح عليه السلام، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم، فيقال أنهم اتفقوا كلهم على قتلها، قال قتادة: بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون بقتلها حتى على النساء في خدورهن، قلت: وهذا هو الظاهر لقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴾ (٤) وقال: ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ﴾ (٥) وقال: ﴿ فَعَقَرُواْ النَّاقَةَ ﴾ فامتد ذلك على مجموع القبلية، فدل على رضى جميعهم بذلك، فلما عقروا الناقة وقتلوها، قال لهم نبيهم صالح: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ (٦) أى وبعدها يأتيكم العذاب، وعد الله الذى وعد به رسوله صالحا، وكان الذين تولوا عقر الناقة تسعة رهط كما قال الله تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي

(١) الأنبياء.

(٢) القمر.

(٣) الشعراء.

(٤) الشمس.

(٥) الإسراء.

(٦) هود

﴿ الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾ [(١)] وتقاسموا فيما بينهم وتعاهدوا على قتل صالح، وقالوا: إن كان صادقا عجلنا به من قبلنا، وإن كان كاذبا ألحقناه بناقته، قال الله تعالى في سورة النمل: **﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾** فأهلك الله أولئك الرهط وعجل لهم الهلاك قبل قومهم، وبعد ثلاثة أيام جاءت الصيحة فأهلكتهم جميعا في ساعة واحدة: **﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾** أى صرعى، ثم **قال (ك)** هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله وإبائهم عن قبول الحق وإعراضهم عن الهدى إلى العمى، قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعا وتوبيخا وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين: «أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثا ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث» [(٢)] من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب – قليب بدر – فجعل يقول: يا أبا جهل بن هشام، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، ويا فلان بن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا، فقال له عمر، يا رسول الله ! ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع مما أقول منهم ولكن لا يجيبون».

قال محمد تقى الدين: – العرب العاربة هم سكان الجزيرة العربية الذين ليسوا من ذرية إسماعيل عليه السلام، لأن إبراهيم أبا إسماعيل وإسحاق ليس عربيا فإبنه إسماعيل استعرب فهو وذريته مستعربون، وهذا يدجل على أن كل من تعلم العربية وصارت لغته من القبائل يسمون عربا وإن كانوا في الأصل عجما.

والمقصود بسرد هذه القصة بيان أن كل رسول أرسله الله إلى قومه يقول لهم: **﴿ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾** لأن التوحيد هو الأصل الذى تبنى عليه أمور الدين كلها، فإذا حقق وثبت ثبت ما بعده، وإذا لم يحقق ولم يثبت تهدم كل شيء من أمور الدين لقوله تعالى:

---

(١) فصلت.

(٢) هكذا في الأصل ومعناه غير ظاهر.

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [1] وهذا هو الغرض من تأليف هذا الكتاب، لأن المسلمين في هذا الزمان بعدوا عن أصول دينهم، وفشت فيهم الضلالات، وشرها الشرك بالله، وبنوا القباب على القبور وزخرفوها وأنفقوا عليها الأموال الطائلة التى لا ينفقون عشرها في سبيل الله في بناء المساجد والمدارس الدينية والجهاد في سبيل الله وبناء دور اليتامى، وقد قال النبى ﷺ: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يحذر ما صنعوا - » قالت راوية الحديث عائشة ﵂: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشى أن يتخذ مسجدا، رواه البخاري ومسلم، واتخاذ القبور مساجد يصيرها أوثانا تعبد من دون الله، يدل على ذلك قول النبى ﷺ فيما رواه مالك في الموطأ أن النبى ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وإنما اشتد غضب الله عليهم، لأن اتخاذ المساجد على القبور يؤدى إلى عبادتها كما هو مشاهد.

الباب السادس

قال الله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ

(١) النساء.

ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الآيات: ٨٥: ٩٣

قال (ك) مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة، وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ** ﴾ [(١)] وهم أصحاب الأيكة كما سنذكره إن شاء الله، وبه الثقة: ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ** ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ **قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ** ﴾ أى قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ولا يبخسوا الناس أشياءهم، أى لا يخونوا الناس في أموالهم ويأخذوها على وجه البخس، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [(٢)] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، نسأل الله

---

(١) القصص.

(٢) المطففين.

العافية منه، ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذى يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته، **قال (ك)** ينهاهم عليه السلام عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله: ﴿ **وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** ﴾ أى تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم. قال السدي وغيره: كانوا عشارين، وعن ابن عباس ومجاهد وغير واحد: ﴿ **وَلاَ تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ** ﴾ أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه والأول أظهر، لأنه قال: ﴿ **بِكُلِّ صِرَاطٍ** ﴾ وهو الطريق، وهذا الثاني هو قوله ﴿ **وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا** ﴾ أى وتودون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ﴿ **وَاذْكُرُواْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ** ﴾ أى كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم أعزة لكثرة عددكم، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ **وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ أى من الأمم الخالية والقرون الماضية. وما حل بهم من العذاب والنكال بإجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله، وقوله: ﴿ **وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ** ﴾ أى قد اختلفتم على، ﴿ **فَاصْبِرُواْ** ﴾ أى انتظروا ﴿ **حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا** ﴾ وبينكم أى يفصل: ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين والدمار على الكافرين، ثم **قال (ك)** هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيبا ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه، وهذا خطاب مع الرسول، والمراد اتباعه الذن كانوا معه على الملة، وقوله: ﴿ **أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ** ﴾ يقول وأنتم فاعلو ذلك ولو كنا كارهين ما تدعوننا إليه، فأنا أن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً، وهذا تنفير منه عن اتباعهم: ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا** ﴾ وهذا رد إلى الله المسبب، فإنه يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء: ﴿ **عَلَى اللّهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ أى في أمورنا ما نأتى منها وما نذر ﴿ **رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ** ﴾ أى احكم بيننا وبين قومنا، وانصرنا عليهم: ﴿ **وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ** ﴾ أى خير الحاكمين فإنك العادل الذى لا يجور أبدا، ثم **قال (ك)** يخبر تعالى عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم وما هم فيه من الضلال، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق، ولهذا أقسموا وقالوا: ﴿ **لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ** ﴾ فلهذا عقبه

تعالى بقوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أخبر تعالى أنهم أخذتهم الرجفة، وذلك كما أرجفوا شعيبا وأصحابه، وتوعدهم بالجلاء كما أخبر عنهم في سورة هود فقال: ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ والمناسبة هناك والله أعلم، أنهم لما تهكموا به في قولهم: ﴿ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ الآية فجاءت الصيحة فأسكتتهم، وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وما ذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة: ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء ﴾ الآية، فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة، وقد اجتمع عليهم ذلك كله: «أصابهم عذاب يوم الظلة» وهى سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام: ﴿ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ﴾ أى كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم: ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ ثم قال (ك) أى فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعد ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال. وقال مقرعا لهم وموبخا: ﴿ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أى قد أديت إليكم ما أرسلت به، فلا أسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به، فلهذا قال: ﴿ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾.

فصل

قال محمد تقى الدين: - من حقق توحيد الله تعالى بأن أفرده بالعبادة، ولم يدع مع الله أحدا، وحقق اتباع رسوله ﷺ، واتخذه إماما وقدوة لا يبغى به بديلا، ويرضاه في طريقه دليلاً، لابد أن يعمل بمقتضى الشهادتين، فيطيع الله ورسوله ويحافظ على الأوامر ويجتنب المنهيات، فلا يغش مسلما ولا معاهدا، وفي الصحيح: «أن النبى ﷺ ذهب إلى السوق فوجد صبرة من طعان فأدخل يده فيها فوجد أسفل الحب مبتلا وأعلاه يابسا، فقال ما هذا يا صاحب الطعام. فقال يا رسول الله، أصابته السماء من الليل، فقال النبى ﷺ:

فهلا أظهرته؟ من غشنا فليس منا » هذا معنى الحديث، وبيان هذا الحديث، أن رجلا من أهل المدينة كان يبيع الحبوب، فنزل المطر فابتل الحب، فجاء بحب ناشف لم يصبه المطر، فغطى الحب المبتل به، وهذا غش لأنه أخفى العيب الذى في حبه ولم يظهره للناس، فالذى يغش المسلمين أو المعاهدين لم يعمل بمقتضى الشهادتين، فمثل هؤلاء هم الذين يخونون الأمانات ويأكلون أموال الناس بلا حق، ولا يوفون الكيل ولا الميزان، ويفسدون في الارض بعد إصلاحها، ويقعدون بكل سبيل يتوعدون الناس بالأذى ليأكلوا أموالهم بالمكس ونحوه، وهم أهل لكل شر لما عندهم من النفاق، ولأن قلوبهم خالية من نور الإيمان وهو نور لا إله إلا الله محمد رسول الله، وقوله، كانوا عشارين. العشار: هو المكاس، الذى يأخذ العشر من البضائع التى تمر عليه في الطريق، وأخذ المكوس والأعشار حرام بالإجماع، وهو من أعظم الذنوب، يدلك على ذلك أن النبى ﷺ لما صلى على المرأة الغامدية التى اعترفت بالزنى وطلبت منه إقامة الحد ﷺ، قيل له: كيف تصلى عليها وقد زنت فقال: «إنها تابت توبة لو قسمت على سبعين منكم لوسعتهم وهل وجدت أفضل من أن تجود بنفسها؟» أ هـ. وصدق رسول الله ﷺ فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود، وفي رواية: «أنها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » وقد استباح الناس في هذا الزمان المكوس في مشارق الأرض ومغاربها، وصارت عندهم من الأمر بالمعروف الذى لا ينكره الخاصة والعامة، فلذلك سلط الله عليهم عدوهم وأذلهم وأهانهم ولا يزالون كذلك حتى يرجعوا إلى إتباع الرسول ﷺ في كل ما جاء به.

فصل

قوله تعالى: ﴿ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ يقال: ما أشبه الليلة بالبارحة، فما زال المشركون يأكلون خير الله ويعبدون غير الله، ما زالوا في كل زمان ومكان يصدون الناس عن سبيل الله، أى توحيد الله وإتباع رسله، وفي هذا الزمان كل من وحد الله واتبع سنة رسوله ﷺ يقفون له بالمرصاد، ويقولون احذروا فلانا فإنه وهابى وقد صدقوا وهم كاذبون، فإن من وحد الله واتبع رسوله ﷺ تصح نسبته إلى الوهاب سبحانه كما قال تعالى في قصة إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ (١) لما اعتزل إبراهيم المشركين في العراق وهو وطنه، وذهب في أرض الله متوكلا على الله، وهب الله له ذرية طيبة إسماعيل وإسحاق، وبشره كذلك بيعقوب ابن إسحاق، ليرى أبناءه وأحفاده صالحين، وأعطاه أموالا كثيرة كما هو معروف في التاريخ، وقد أشار إلى ذلك القرآن فإن الملائكة لما زاروه ضيوفا بالغ في إكرامهم وجاءهم بعجل حنيذ، أى مشوى، يفهم من ذلك أن أمواله كانت كثيرة، فيا أيها الشخص الذى أكرمه الله بالتوحيد واتباع السنة، ظفرت بحبل الله فاعتصم: ﴿ وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ ﴾ (٢)

فصل

قوله: في توعدهم إياه بالنفى ومن معه، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم، **قال محمد تقى الدين:** - هكذا كان المشركون الأولون يعاملون الرسل ومن معهم ومشركوا هذا الزمان يتبعونهم في ذلك حذو النعل بالنعل، فإنهم متى دعاهم داع إلى توحيد الله وإتباع سنة رسول الله ﷺ، والحكم بشريعة الله، يسعون في نفيه من البلاد، أو يجبرونه على العودة في ملتهم الشركية ولو بالسكوت والمشاركة، والساكت عن قول الحق شيطان أخرس، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَلاَ تَلْبِسُواْ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُواْ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وقال تعالى فيها أيضا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ في سنة ١٣٤١ هـ حججت الحجة الأولى في زمان ملك الحجاز الحسين بن على واجتمعت بمحمد حبيب الله بن مايابا الشنقيطى ووقعت بيننا مناظرة، قال لى في أثنائها، أنت وهابى، وأنتم عندى معشر الوهابية ثلاثة أصناف: الصنف الأول: أهل نجد وهم عندنا كفار كاليهود والنصارى، ونحن المسلمون، والصنف الثاني: وهابية الشام، وأنت منهم وهذا الصنف عندنا ضلال، والصنف الثالث: وهم وهابية الهند، وهم عندنا

(١) مريم.
(٢) الروم

مخطئون، وبعد هذه المناظرة سمعت أن جماعة من الحجاج الأندونيسيين من أصحاب الشيخ أحمد السركتى رحمة الله عليه جاهروا بالتوحيد، فأنكر عليهم الناس وساقوهم إلى مجلس العلماء، فسألهم أولئك المسمون بالعلماء ؟ فاعترفوا، فاستتابوهم وهددوهم فتابوا، فلما سمعت هذا الخبر اختفيت ثمانية أيام في المعابدة عند بعض المغاربة خوفا من أن يخبر الشيخ المذكور مجلس العلماء المعين من قبل الملك حسين، فيستتيبونى، وكان صاحب البيت الذى أنا فيه يذهب إلى المسجد الحرام ويتجسس، هل يبحث عنى، فلم يسمع شيئا وكانت هذه حسنة من ذلك الشيخ إذ لم يخبر عني، مع أنه من رجال المجلس ومن المقربين عند الملك حسين، انظر هذه القصة بتمامها وغيرها في كتابى «الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة» فإن فيه من هذا القبيل الشيء الكثير فنسأل الله أن يثبتنا القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ الآيتان: ١٢٧ – ١٢٨

قال محمد تقى الدين عفا الله عنه: نظرت في تفاسير عدة لأنقل تفسير هاتين الآيتين كعادتى فوجدتها مشحونة بالقال والقيل، اختلفت فيها الآراء، ولا دليل على شيء منها، والأصل فيم وقع قبل الإسلام أن يأتينا من طريق النبى ﷺ، فإذا لم نجد خبرا مرفوعا إليه وتضاربت الآراء توكلنا على الله وفسرنا القرآن بما يظهر لنا من اللفظ فأقول: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ** ﴾ تقدم أنهم الأشراف والرؤساء متعجبين من فرعون لصبره على موسى وقومه، كيف تترك موسى وقومه يفسدون عقائد رعيتك بصرفهم عن طاعتك وعبادة آلهتك إلى طاعة الله وحده لا شريك له ؟ ولا غرابة في ذلك، فإن المفسدين في كل زمان ومكان يرون الصلاح فسادا، والفساد صلاحا، كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**

لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ وكانت لفراعنة المصريين ولرعاياهم آلهة يعبدونهم كما سيأتي عن قريب في هذه السورة، وقول فرعون لموسى: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [١] وقوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [٢] لا يتنافى مع وجود تلك الآلهة التى هى أصنامهم، وتاريخ قدماء المصريين وآثارهم الباقية، لا تبقى شكا فيما ذكرته، والمشركون في كل زمان ومكان لا يحبون من يعرض عن آلهتهم ولو لم يمنعهم من عبادتها، ولم يدعهم إلى عبادة الواحد الأحد، فكيف إذا عاب عليهم عبادتها، وصرح لهم بأنها لا تنفع ولا تشفع، فحينئذ تثور ثائرتهم ويحاربون الداعى حربا لا تسامح فيها، وكان فرعون أيضا يعلم أن رب العالمين وخالقهم الذى أنزل الكتب وأرسل الرسل هو الله وحده لا شريك له، وإنما كان يجحد كما قال تعالى في سورة الإسراء حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاء إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُورًا ﴾ وقال تعالى مخبرا عن قوم فرعون: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [٣] والظاهر أن الذى كان يهم فرعون أن يكون سيدا مطاعا منفرداً بالتشريع، فما أوجبه فهو واجب على قومه، وما حرمه فهو محرم على قومه، ولا يحب أن ينازعه أحد ولو كان رسولا من الله تعالى إليه، فلما عاتبه رؤساء دولته واتهموه بالتسامح مع موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ ﴾ أى أبناء بنى إسرائيل ﴿ وَنَسْتَحْيِـي نِسَاءهُمْ ﴾ أى نبقى نساءهم فلا نقتلهن، لنعبدهن ونسخرهن في خدمتنا ﴿ وَإِنَّا ﴾ معشر المصريين ﴿ فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ غالبون لا نخشى بأسهم، إنما هم عبيدنا فلا تخافوا موسى ولا قومه، ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ بنى إسرائيل: ﴿ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ ﴾ فبالاستقامة بالله وحده على أعدائكم، وبالصبر على ما يصيبكم من أذاهم حتى يجيء نصر الله، بهذين الأمرين تبلغون ما وعدكم الله من نصركم وإهلاك عدوكم، واعلموا ﴿ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ ﴾ لا لفرعون ولا لقومه،

---

(١) النازعات.

(٢) غافر.

(٣) النمل.

﴿ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَـةُ ﴾ الحميدة ﴿ لِلْمُـتَّقِينَ ﴾ الذين يوحدون الله تعالى ويتبعون رسله وكتبه، وعد الله لا يخلف الله الميعاد.

الباب الثامن

قال تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ الآيات: ١٣٨- ١٤٠

قال (ك) يخبر تعالى عما قاله جهلة بنى إسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزا البحر وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا قالوا، أى فمروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، قال بعض المفسرين، كانوا من الكنعانيين، وقيل كانوا من لخم، قال «ج» وكانوا يعبدون أصناما على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك فقالوا: ﴿ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ أى تجهلون عظمة الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من الشريك والمثيل، ﴿ إِنَّ هَـؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ ﴾ أى هالك ﴿ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال العلامة المحقق سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله في شرحه لكتاب التوحيد الذى ألفه الإمام المصلح محمد بن عبد الوهاب، واسم هذا الشرح، «تيسير العزيز الحميد» في صفحة ٤٣ ما نصه.

«باب من تبرك بشجرة أو حجر أو نحوها» كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة، فيقصدونه رجاء البركة، ويعنى بقوله « تبرك » أى طلب البركة ورجاها واعتقدها، ما حكمه هل هو شرك أم لا ؟ ثم قال: وعن أبى واقد الليثى قال: قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها ذات أنواط، فقلنا: يا رسول الله !

اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ الله أكبر، أنها السنن، قلتم والذى نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي وصححه. قال الشارح: رواه الترمذي كما قال المصنف ثم ذكر الشارح اسناد الترمذي إلى أبى واقد الليثى، أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى حنين مر بشجرة للمشركين يقال لها ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبى ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ والذى نفسى بيده لتركبن سنة من قبلكم » هذا حديث حسن صحيح، وأبو واقد الليثى اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة، هذا لفظ الترمذي بحروفه، وفيه مخالفة لما في الكتاب لفظا ومعنى، وقد اتفق اللفظان على المقصود هنا، وقد رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى وابن أبى شيبه والنسائي، و «ج» وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبراني بنحوه.

قوله: عن أبى واقد الليثي اسمه الحارث بن عوف، كما قال الترمذي وقيل الحارث بن مالك صحابى مشهور مات سنة ٦٨ وله خمس وثمانون سنة. قوله: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين، في حديث عمرو بن عوف قال: « غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح ونحن ألف ونيف، حتى إذا كنا بين حنين والطائف » لا مخالفة بينهما في المعنى، فإن غزوتى الفتح وحنين كانتا في سفر واحد، وقوله: « نحن حدثاء عهد بكفر » أى قريبو عهد بكفر، ففيه دليل أن غيرهم لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذى اعتاده قبله لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة، ذكره المصنف، قوله: «يعفكون عندها » الاعتكاف: هو الإقامة على الشيء بالمكان ولزومه، ومنه قوله ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [1] وكانوا يعكفون عند هذه السدرة تبركا بها، وفي حديث عمرو بن عوف قال: كان يناط بها السلاح، فسميت ذات أنواط، وكانت تعبد من دون الله، فلما رآها رسول الله ﷺ، انصرف عنها في يوم صائف إلى ظل هو أدنى منها، الحديث، فيجمع بينهما بأن عبادتها هى العكوف عندها رجاء لبركتها، وقوله: وينوطون بها أسلحتهم أى يعلقونها

---

(١) الأنبياء.

عليها للبركة، وقوله: يقال لها ذات أنواط، قال أبو السعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك، وأنواط: جمع نوط، وهو مصدر سمى به النوط، وقوله: فقلنا يا رسول الله اجعل لنا أنواط، أي شجرة مثلها نعلق عليها أسلحتنا، ونعكف حواليها، ظنوا أن هذا الأمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك، وإلا فهم أجل قدرا، وإن كانوا حديثى عهد بكفر عن قصد مخالفة النبى ﷺ، وقوله: «فقال النبى ﷺ «الله أكبر» هكذا في بعض الروايات، وفي رواية الترمذي، سبحان الله، والمقصود باللفظين واحد – لأن المراد تعظيم الله وتنزيهه عن الشرك، والتقرب به إليه، وفيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك خلافا لمن كرهه، قوله «إنها السنن» بضم السين، أى الطرق، قوله: قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها الخ، أخبر ﷺ أن هذا الأمر الذى طلبوه منه، وهو اتخاذ الشجرة للعكوف عندها، وتعليق الأسلحة بها تبركا، كالأمر الذى طلبه بنو إسرائيل من موسى عليه السلام حيث قالوا: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، فإذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الأسلحة والعكوف عندها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها، فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الأموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها، وتقبيل أعتابها، وجدرانها، والتمسح بها، والعكوف عندها، وجعل السدنة والحجاب لها، وأى نسبة بين هذا وبين تعليق الأسلحة على شجرة تبركا ؟ قال الإمام أبو بكر الطرطوشى من أئمة المالكية: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون المسامير والخرق، فهى ذات أنواط فاقطعوها، وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشافعى المعروف بأبى شامة: في كتاب البدع والحوادث، ومن هذا القسم أيضا ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشياطين للعامة، تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكى لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوز هذا إلى إن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم، فيعظمونها فيرجون الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهى من بين عيون وشجر وحائط وحجر،

وفي مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كمدينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة المعلونة اليابسة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث، ثم ذكر الحديث المتقدم، وكلام الطرطوشى الذى ذكرنا، ثم قا ل: ولقد أعجبنى ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجنيانى رحمه الله تعالى، أحد الصالحين ببلاد أفريقيا في المائة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبى العباس المؤدب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية، كان العامة قد افتتنوا بها يأتونها من الآفاق، من تعذر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بى إلى العافية فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبد الله، فأتانى في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبى إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها وأذن الصبح عليها ثم قال: اللهم إنى هدمتها لك فلا ترفع لها رأسا قال فما رفع لها رأس إلى الآن، قلت: أبو إسحاق الذى هدمها إمام مشهور من أئمة المالكية زاهد اسمه إبراهيم بن أحمد بن على ابن أسلم، وكان الإمام أبو محمد بن أبى زيد يعظم شأنه ويقول: طريق أبى اسحاق خالية لا يسلكها أحد في الوقت، وكان القاسمى يقول: الجنياني إمام يقتدى به، مات سنة ٣٦٩، وذكر ابن القيم نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: « فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله، ولو كانت ما كانت ويقولون أن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أى تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له.

وقال العلامة المذكور في الكتاب نفسه في صفحة ٢٩٢، - المتن موجود بالشرح — ما نصه «باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله » أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة أمورا، الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين، الثانى: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها، الثالث: إنها إذا عبدت سميت أوثانا ولو كانت قبور الصالحين، الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد، والأوثان من المعبودات التى لا صورة لها كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها، وقد تقدم بيان ذلك، وقبل الوثن هو الصنم، والصنم هو الوثن، وهذا غير صحيح إلا مع

التجريد، فأحدهما قد يعنى به الآخر، وأما مع الاقتران كل واحد بمعناه، قال: روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» هذا الحديث رواه مالك في باب جامع الصلاة مرسلا عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار أن رسول الله ﷺ قاله، ورواه البزار عن عمر بن محمد عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعا وعمر بن محمد من ذرية عمر بن الخطاب ثقة من أشراف المدينة وله شاهد عند الإمام أحمد والعقيلي من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، لعن الله قوما تخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قوله: اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، وقد استجاب الله دعاء رسوله ﷺ، فمنع الناس من الوصول إلى قبره لئلا يعبد استجابة لدعاء رسوله ﷺ كما قال ابن القيم

ودعا بأن لا يجعل القبر الذى ... قد ضمه وثنا من الأوثان

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... فى عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر الرسول ﷺ لو عبد لكان وثنا، فما ظنك بقبر غيره من القبور التى عبدت هى وأربابها من دون الله، وإذا أريد تغيير شيئ من ذلك أنف عبادها واشمأزت قلوبهم، واستكبرت نفوسهم وقالوا: تنقص أهل الرتب العالية، ورموهم بالعظائم، فماذا يقولون لو قيل لهم أنها أوثان تعبد من دون الله ؟ فالله المستعان على غربة الإسلام، وهذه هى الفتنة العظمى التى قال فيها عبد الله بن مسعود كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير وينشأ فيها الصغير، تجرى على الناس يتخذونها سنة إذا غيرت قيل غيرت السنة ؟ ويؤخذ من الحديث المنع من تتبع آثار الأنبياء والصالحين كقبورهم ومجالسهم ومواضع صلاتهم للصلاة والدعاء عندها، فإن ذلك من البدع أنكره السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم، ولا نعلم أحدًا أجازه أو فعله إلا ابن عمر على وجه غير معروف عند عباد القبور، وهو إرادة التشبه برسول الله ﷺ في الصلاة فيما صلى فيه ونحو ذلك، ومع ذلك فلا نعلم أحد وافقه عليه من الصحابة، بل خالفه أبوه، وغيره، لئلا يفضى ذلك إلى اتخاذها أوثانا كما وقع، قال ابن عبد الباقي في شرح الموطأ روى أشهب عن مالك أنه كره لذلك

أن يدفن في المسجد، قال وإذا منع من ذلك فسائر آثاره أحرى بذلك، وقد كره مالك طلب موضع شجرة بيعة الرضوان مخالفة لليهود والنصارى أ هـ. وقال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبى ﷺ فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها فخاف عليهم الفتنة، قال عيسى بن يونس: وهو عندنا من حديث ابن عون عن نافع أن الناس كانوا يأتون الشجرة فقطعها عمر ﷺ، وقال المعرور ابن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب في طريق مكة صلاة الصبح فقرأ فيها: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ولايلاف قريش، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل يا أمير المؤمنين مسجد صلى فيه رسول الله ﷺ فهم يصلون فيه، فقال إنما أهلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار آنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعا، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصل ومن لا، فليمض لا يتعمدها، وفي مغازى بن اسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبى خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرا عليه رجل ميت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر فدعا له كعبا فنسخه بالعربية فأنا أول رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبى العالية: ما كان فيه ؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل ؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرا متفرقة ! فلما كان بالليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه قلت: - وما يرجون منه ؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون فقلت: من كنتم تظنون الرجل ؟ قال: رجل يقال له دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات ؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيئ ؟ قال: لا إلا شعيرات من قفاه، أن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره لئلا يفتتن به ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله. قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك فمن قصد بقعة يرجو الخير لقصدها، ولم يستحب الشارع قصدها فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلى عندها أو ليدعو

عندها أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها أو لينسك عندها «أى يذبح» بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التى لم يشرع تخصيصها به لا نوعا ولا عينا، لأن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا بقصد الدعاء فيها، كمن يدعو الله في طريقه ويتفق أن يمر في طريقه بالقبور أو كمن يزورها ويسلم عليها ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة، فإن ذلك ونحوه لا بأس به، وأما تحرى الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهى عنه والفرق بين النوعين ظاهر، فإن الرجل لو كان يدعو الله واجتاز في ممره بصنم أو صليب أو كنيسة أو دخل إليها ليبيت فيها مبيتا جائزا ودعا الله في الليل وأتى بعض أصدقائه ودعا الله في بيته لم يكن بهذا بأس، ولو تحرى الدعاء عند هذه المواضع لكان من العظائم بل قد يكون كفرا، قوله: « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » هذه الجملة بعد الأولى تنبيه على سبب لحوق اللعن بهم، وهو توسلهم بذلك إلى أن تصير أوثانا تعبد، ففيه إشارة إلى ما ترجم له المصنف، وفيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها ـ وقد روى أصحاب مالك عنه أنه كره أن يقول القائل زرت قبر النبى ﷺ وعلل وجه الكراهة بقوله: « اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فكرة إضافة هذا اللفظ إلى القبر لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدا للذريعة وحسما للباب، ذكره الطبري وفيه أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه ذكره المصنف، قال: ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى** ﴾ [1] قال كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: – كان يلت السويق للحجاج قوله: ولابن جرير: – هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري صاحب التفسير والتاريخ وغيرهما، قال ابن خزيمة لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير، وكان من الأئمة المجتهدين لا يقلد أحدا، وله أصحاب يتفقهون على مذهبه، ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة، قوله: – كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره، لت السويق وهو خلط بسمن ونحوه، وقد قيل أن اسم الرجل صرمة بن غنم، وعن ابن عباس،

---

(١) النجم.

كان يلت السويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلا سمن فعبدوه، رواه ابن أبي حاتم، وعن مجاهد كان اللات رجلا في الجاهلية وكان له غنم فكان يحلب من رسلها ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيسا ويطعم من يمر من الناس، فلما مات عبدوه وقالوا هو اللات وكان يقرأ اللات مشددة، رواه سعيد بن منصورة والفاكهي.

قوله: وكذا قال أبو الجوزاء وأثر أبي الجوزاء رواه البخاري، والسبب في عبادة الصالحين ودا، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر، وغيرهم اليوم فإنهم غلوا فيهم وبنوا على قبورهم القباب والمشاهد وجعلوها ملاذا لقضاء المآرب وبالجملة فالغلو أصل الشرك في الأولين والآخرين إلى يوم القيامة، وقد أمرنا الله تعالى بمحبة أوليائه وإنزالهم منازلهم من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، ونهانا عن الغلو فيهم فلا نرفعهم فوق منزلتهم ولا نحطهم منها لما يعلمه تعالى في ذلك من الفساد العظيم، فما وقع الشرك إلا بسبب الغلو فيهم فإن الشرك بهم غلو فيهم، وأنزلوهم منازل الإلهية وعصوا أمرهم وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم، فتجد أكثر هؤلاء الغالين فيهم العاكفين على قبورهم معرضين عن طريقه من فيها وهديه وسنته عائبين لها مشتغلين بقبورهم عما أمروا به ودعوا إليه، وتعظيم الأنبياء والصالحين ومحبتهم إنما هى باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع والعمل الصالح واقتفاء آثارهم وسلوك طريقتهم دون عبادتهم وعبادة قبورهم والعكوف عليها، كالذين يعكفون على الأصنام واتخاذها مجامع للزيارات والفواحش وترك الصلوات، فإن من اقتفى آثارهم كان متسببا في تكثير أجورهم باتباعه لهم ودعوته الناس إلى اتباعهم فإذا أعرض عما دعوا إليه واشتغل بضده حرم نفسه وحرمهم ذلك الأجر، فأى تعظيم واحترام في هذا، قال: وعن ابن عباس قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسراج »، رواه أهل السنة.

قوله: ولعن رسول الله ﷺ زائرت القبور أى من النساء وهذا يدل على تحريم زيارة القبور عليهن كما هو مذهب أحمد وطائفة، وقيل في تعليل ذلك أنه يخرجها إلى الجزع والندب والنياحة والافتتان بها وبصورتها وتؤذى الميت ببكائها كما في حديث آخر: « فإنكن تفتن الحى وتؤذين الميت » وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسببا للأمور المحرمة

في حقهن وحق الرجال، وتقدير ذلك غير مضبوط لأنه لا يمكن حد المقدار الذى لا يفضى إلى ذلك ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فتحرم سدا للذريعة كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة لما في ذلك من لفتنة، وكما حرمت الخلوة بالأجنبية، وليس في زيارتها من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة لأنه ليس في زيارتها إلا دعاؤها للميت أو اعتبارها به وذلك ممكن في بيتها، وقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن حسان بن ثابت مرفوعا « لعن الله زوارات القبور» وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور، رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وصححه، وضعفه عبد الحق، وحسنه ابن القطان، ولا يعارض هذا حديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » رواه مسلم وغيره لأنه إن سلم دخول النساء فيه فهو عام، والأول خاص والخاص مقدم عليه، وأيضا ففى دخول النساء في خطاب الذكور خلاف عند الأصوليين، قوله: « والمتخذين عليها المساجد » تقدم في الباب قبله شرحه وتعليله، قوله: « والسرج هذا دليل على تحريم اتخاذ السرج على القبور» قال أبو محمد المقدسى لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله لان فيه تضييعا للمال في غير فائدة، وإفراطا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام، وقال ابن القيم: - اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر، ووجه إيراد المصنف هذا الحديث في هذا الباب دون الذى قبله هو أنه لعن المتخذين عليها المساجد والسرج وقرن بينهما فهما قرينان في اللعنة فدل ذلك على أنه ليس المنع من اتخاذ المساجد عليها لأجل النجاسة بل لأجل نجاسة الشرك ولذلك قرن بينه وبين من لا سراج عليها وليس النهى عن الإسراج لأجل النجاسة فكذلك البناء، قوله: رواه أهل السنة، يعنى هنا أبا داود وابن ماجه والترمذي فقط، ولم يروه النسائي.

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

الآيات: ١٤٨– ١٥٣

قال (ك) يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بنى إسرائيل في عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامري من حلى القبط الذى كانوا استعاروه منهم، فشكل لهم منه عجلا، ثم ألقى فيه قبضة من التراب أخذها من أثر فرس جبرائيل عليه السلام، فصار عجلا جسدا له خوار، والخوار: صوت البقر، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى، فأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور حيث يقول تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة قال: ﴿ **فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ** ﴾ [1] وقد اختلف المفسرون في هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين، والله أعلم، ويقال أنهم لما صوت لهم العجل رقصوا له وافتتنوا به وقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى، قال الله تعالى: ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ [2] وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ **أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ورب كل شيء

(١) طه

(٢) طه

ومليكه أن عبدوا معه عجلا جسدا له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير، ولكن غطى على أعين بصائرهم عمى الجهل والضلال كما تقدم من رواية الإمام أحمد وأبى داود عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «حبك الشيئ يعمى ويصم » وقوله: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فَي أَيْدِيهِمْ ﴾ أى ندموا على ما فعلوا: ﴿ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ وقرأ بعضهم لئن لم ترحمنا بالتاء المثناة من فوق ﴿ رَبَّنَا ﴾ منادى ويغفر لنا ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى من الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل.

ثم **قال (ك)** يخبر تعالى أن موسى عليه السلام رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى وهو غضبان آسف، قال أبو الدرداء، الأسف أشد الغضب: ﴿ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ يقول بئس ما صنعتم في عبادة العجل بعد أن ذهبت وتركتكم وقوله: ﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ يقول استعجلتم مجيئ إليكم وهو مقدر من الله تعالى وقوله: ﴿ وَأَلْقَى الألْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ وفي هذا دلالة على ما جاء في الحديث: « ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضبا على قومه وقوله: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴾ خوفا أن يكون قد قصر في نهيهم، قال في الآية الأخرى: ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [(١)] ﴿ قَالَ يا ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَاء وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تسقنى سياقهم وتجعلنى معهم وإنما قال: ﴿ ابْنَ أُمَّ ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [(٢)] فعند ذلك قال موسى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة، فإن ذل البدعة ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه، كما قال الحسن البصرى: أن ذل البدعة على أكتافهم وإن هملجت بهم البغلات

---

(١) طه

(٢) طه

وطقطقت بهم البراذين، وهكذا روى أيوب السختياني عن أبى قلابة الجرمى أنه قرأ هذه الآية: ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾ فقال هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة، وقال سفيان بن عينيه كل صاحب بدعة ذليل، ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أى ذنب كان حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق، ولهذا عقب هذه القصة بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا محمد يا رسول التوبة ونبي الرحمة ﴿ مِن بَعْدِهَا ﴾ أى من بعد تلك الفعلة ﴿ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

فصل

قال محمد تقى الدين: - كل من عبد غير الله تعالى فهو من الذين لا يعقلون، وهو من شر الدواب الذين لا يسمعون، وهؤلاء المشركون بعضهم أضل بعض، فالذين عبدوا الأنبياء والصالحين في ضلال مبين، والذين عبدوا قبورهم أضل منهم، وأهل الهند الذين يعبدون البقرة الأنثى، وقوم موسى الذين عبدوا عجلا من ذهب له خوار أقل ضلالا من الذين يعبدون القبور والأشجار والأحجار، لأن القبور إنما هى تراب ليس فيها روح ولا حياة، فالذين يعبدونها أضعف عقلا من الذين يعبدون البقرة التى فيها منافع وعجل السامرى له خوار، والغلو في الأنبياء والصالحين يفضى إلى الفكر كما وقع للنصارى حين غلوا في عيسى عليه السلام، وكما وقع لقوم نوح حين غلوا في الصالحين حتى عبدوهم وعبدوا قبورهم، ثم تماثيلهم كما قال النبى ﷺ: «أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » وقد تقدم ذلك مبسوطا.

فصل

استدل بهذا السلف على ضلال من ينكر كلام الله تعالى من المعتزلة الذين يقولون أن كلام الله مخلوق ومتأخرى الأشعرية الذين يزعمون أن كلام الله معنى قائم بذاته تعالى ليس بحرف ولا صوت ولا بالعربية ولا بالعجمية وليس فيه تقديم ولا تأخير ويزعمون أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هو دال على مدلول كلام الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

﴿ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ (١) وإنما يسمعه هذا المشرك من لسان النبي ﷺ بحرف وصوت، والعجز عن التكلم نقص، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ﴾ (٢) فالذي لا يستطيع الكلام ولا يملك الضر والنفع لا يعبد ولا يكون إلها.

فصل

قول (ك) وهذا دلالة على ما جاء في الحديث: « ليس الخبر كالمعاينة » نص الحديث على ما ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أبي هريرة وأنس مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: «ليس الخبر كالمعاينة» ونسب حديث أنس إلى الطبراني في الأوسط، وحديث أبي هريرة إلى الخطيب، ثم ذكر حديثا آخر عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي ﷺ قال: « ليس الخبر كالمعاينة، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت» أخرجه أحمد والطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرك عن ابن عباس وعلم عليه السيوطي بعلامة الحسن، قال السخاوي في المقاصد الحسنة: «ليس الخبر كالمعاينة » أخرجه أحمد وابن منيع والطبراني والعكسري من حديث أبي بشر جعفر بن أبي وحشية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بزيادة: « أن الله قال لموسى أن قومك فعلوا كذا وكذا فلما عاين ألقى الألواح» وفي لفظ « أن موسى أخبر أن قومه قد ضلوا من بعده، فلم يلق الألواح، فلما رأى ما أحدثوا ألقى الألواح» وقد صحح هذا الحديث ابن حبان والحاكم وغيرهما، وأورده الدارقطني في الافراد من طريق ابن عيينه عن عمرو بن دينار عن جابر وقال أنه باطل لا يصح عن عمرو ولا عن ابن عيينه أ هـ..

قال محمد تقي الدين: - تضمن هذا الحديث أمرين: أحدهما عام، وهو أن العلم الحاصل بالأخبار لا يبلغ درجة العلم الحاصل بالمعاينة، وفي هذا تفصيل، فإن كان المخبر ممن يجوز عليه الوهم أو الخطأ أو الكذب فالأمر واضح، وإن كان ممن لا يجوز عليه ذلك كالأنبياء ثم العدول الثقات فهما متساويان، الأمر الثاني: إدعاء أن موسى حين أخبره الله

---

(١) التوبة.

(٢) طه.

بأن قومه قد اتخذوا العجل أنها من بعد غيبته عنهم لم يحصل له من العلم مثل ما حصل له برؤيتهم فيه نظر، وقد أشار (ك) إلى ذلك بقوله ظاهر السياق أنه ألقى الألواح غضبا على قومه، يعنى لا أنه كان في شك ثم تيقن لما رآهم كذلك، ولا يمكن أن يشك موسى، بل ولا الصالحون من المؤمنين فيما أخبر الله به أبداً، هذا ما ظهر لى والله أعلم.

الباب العاشر

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ الآيات: ١٧٢ - ١٧٣

قال (ك) يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم، أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّـه** ﴾ [1] وفي الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة، وفي رواية على هذه الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »، وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وروى أحمد والنسائى و «ج» عن الأسود بن سريع قال: غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال فتناول القوم الذرية فقال رجل يا رسول الله بعد ما قتلوا المقاتلة فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاشتد عليه، ثم قال: « ما بال أقوام يتناولون الذرية فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال: « إن خياركم أبناء المشركين، ألا أنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة، فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها، فأبواها يهودانها

---

(١) الروم.

وينصرانها » قال الحسن: ولقد قال الله في كتابه: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ ثم **قال (ك)** وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال بأن الله ربهم، وأخرج «ق» و «حم» عن أنس بن مالك ﷺ عن النبى ﷺ قال: « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة، أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيئ أكنت مفتديا به ؟ قال: فيقول: نعم، فيقول قد أردت من أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى » وروى حم، ن، ج عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلا قال: ﴿ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾.

قال (ك) وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ثم ذكر اختلاف الرواة في وقفه ورفعه ثم رجع وقفه، وبعد أن ساق (ك) أحاديث كثيرة بعضها مرفوع وبعضها موقوف بمعنى حديث ابن عباس، المتقدم الذكر، قالما نصه: والشهادة تارة تكون بالقول كقوله: ﴿ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا ﴾ وتارة تكون حالا كقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [(١)] أى حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلوا ذلك، وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ [(٢)] كما أن السؤال تارة يكون بالمقال وتارة يكون بالحال كقوله: ﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ [(٣)] قالوا ومما يدل على أن المراد بهذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل أخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أن الفطرة التى فطروا عليها من

(١) التوبة.

(٢) العاديات.

(٣) إبراهيم.

الإقرار بالتوحيد ولهذا قال: ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا ﴾ أى التوحيد ﴿ غَافِلِينَ ﴾، ﴿ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا ﴾ الآية.

الباب الحادى عشر

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

الآيات: ١٨٨– ١٩٢

قال (ك) أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ولا إطلاع له على شيء من ذلك إلا بما اطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿ **عَـٰلِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ** ﴾ [(١)] الآية، وقوله: ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ** ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس: ﴿ **وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ** ﴾ أى من المال وفي رواية: لعملت إذا اشتريت شيئا ما أربح فيه، فلا أبيع شيئا إلاربحت فيه ولا يصيبنى الفقر، وقال «ج» وقال آخرون معنى ذلك لو كنت أعلم الغيب لأعددت للسنة المجدبة من المخصبة ولوقت الغلاء من الرخص فاستعددت له من الرخص. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ** ﴾ قال لاجتنبت ما يكون

---

(١) الجن.

من الشر قبل أن يكون واتقيته، أ هـ.

قال محمد تقى الدين عفا الله عنه، هؤلاء الأئمة الفحول قد فسروا هذه الآية بكلام عام ولم يضربوا لذلك مثلا بالجزئيات، مع كثرتها في سيرة النبى ﷺ وأنا أذكر هنا ما يحضرنى منها:

الأول: قصة القراء السبعين الذين بعثهم رسول الله ﷺ مع قبائل المشركين الذين ادعوا الإسلام وطلبوا من النبى ﷺ أن يبعث إليهم معلمين يعلمونهم الإسلام، فاختار النبى ﷺ سبعين من خيرة أصاحبه، كلهم يحفظ القرآن فأخذوهم إلى أهلهم وقتلوهم كلهم إلا واحدا تركوه ليبلغ الخبر، وهذه مكيدة عظيمة وحبالة خبيثة، نصبها أعداء الإسلام للنبى ﷺ فحزن النبى ﷺ على قتلهم حزناً عظيماً، والقصة في كتب الحديث مشهورة، فلو كان النبى ﷺ يعلم الغيب ما بعثهم معهم.

الثانى: قصة الحديبية فإن النبىﷺ بعد ما رأى في المنام – ورؤيا الأنبياء حق – أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين أى بعضهم حلق، وبعضهم قصر، عرض على أصحابه التوجه إلى مكة للعمرة، فلما وصل إلى الحديبية وهى مكان قريب من وادى فاطمة خرج له أهل مكة متأهبين للقتال ومنعوه من دخول مكة، فرجع هو وأصحابه دون أن يدخلوا مكة، فلو كان النبى ﷺ يعلم أنهم سيمنعونه ما توجه إلى مكة، ولكن العاقبة كانت خيراً، فإن صلح الحديبية حصل به من انتشار الإسلام ما لم يحصل بالحرب.

الثالث: قصة الافك، لو أن النبى ﷺ كان يعلم أن عائشة لم تكن في الهودج حين حمله الرجال الأربعة ووضعوه على بعيرها، لأمرهم بالانتظار إلى أن تجىء، وقد حصل بسبب قصة الافك غم وحزن للنبى ﷺ، وعقاب لأهل الشرك وشر كبير، وأشد ذلك ما وقع لعائشة نفسها من الحزن والمرض ولأبويها، وهى الطاهرة المطهرة التى نزلت براءتها من السماء وهلك فيها من هلك.

الرابع: أن النبى ﷺ لما كان راجعا من غزوة خيبر منتصرا وقد أردف صفية رضي الله عنها خلفه عثر بعيره فسقط وسقطت صفية على الأرض فلو كان يعلم الغيب لأناخ البعير ونزل قبل أن يعثر.

الخامس: مما يدل على أن النبى ﷺ لا يعلم الغيب، قوله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع حين أمر من لم يسق الهدى من أصحابه أن يفسخ حجه ويجعله عمره، فلما شق عليهم ذلك قال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، ما سقت الهدى».

السادس: أن النبى ﷺ لما توجه إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، ما كان يعلم أن أمير الطائف سيقابله بالتكذيب ويرد عليه بأقبح رد، وأن سفهاء أهل الطائف سيقعدون له سماطين، ويرمونه بالحجارة حتى يسيل الدم من رجليه الشريفتين، وأنه سيحتاج في الرجوع إلى مكة إلى من يجيره من أهلها لأنهم سيغضبون عليه حين يذهب لدعوة أعدائهم، فاضطر إلى أن يبعث مولاه زيد بن حارثة إلى المطعم بن عدى أحد سادات مكة ليدخل في جواره، أى حمايته، وحصل له غم عظيم عند رجوعه من الطائف، فدعا بالدعاء المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربى، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل على غضبك أو ينزل بى سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك » ومن تتبع سيرة النبى ﷺ وجد الشيئ الكثير من ذلك، فالعجب من المشركين في هذا الزمان الذين يزعمون أن النبى ﷺ يعلم الغيب ويتصرف في السموات والأرض هو موجود في كل مكان، ثم هم مع ذلك يخالفون سنته، ويحكمون بخلاف شريعته، ويزعمون أن هذه المحبة الشركية الكاذبة تغنيهم عن الابتاع، والله لا يهدي القوم الظالمين، وإذا كان النبى ﷺ لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، فكيف يستطيع قضاء حاجات هؤلاء الغربان الناعبين في كل حين إذا قاموا قالوا: يا رسول الله، وإذا قعدوا قالوا يا رسول الله، وإذا فزعوا قالوا: يا رسول الله، والله تعالى يقول في سورة المائدة: ﴿ **إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾.

ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير، أى نذير للكافرين من العذاب، وبشير للمؤمنين بالجنات، كما قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ (١) ثم قال (ك) ينبه تعالى عل أنه خلق جميع الناس من آدم عليه السلام وأنه خلق منه زوجته حواء ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء ﴾ (٣) وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ أى ليألفها كقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٤) فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجته، ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا ﴾ أى وطئها ﴿ حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا ﴾ وذلك الحمل لا تجد المرأة له ألما، إنما هى النطفة ثم العلقة ثم المضغة، وقوله: ﴿ فَمَرَّتْ بِهِ ﴾ قال مجاهد: استمرت بحمله فشكت أحملت أم لا، ﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت ﴾ أى صارت ذات ثقل بحملها ﴿ دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً ﴾ أى بشرا سويا، ﴿ لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاء فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ذكر (ك) في تفسير هذه الآية حديثا رواه أحمد والترمذي وابن جرير وغيرهم من طريق الحسن بن سمرة مرفوعا عن النبى ﷺ، قال: « لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال سميه عبد الحارث، فإنه يعيش فسمته عبد الحارث، فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » حسنه الترمذي، واستغربه وأعله (ك) بثلاث علل، وضعفه بها وهو الحق، وهناك علة رابعة وهى أن يقال كيف تقع حواء، وهى زوجة نبى في الشرك الأكبر ولا يعلم ذلك زوجها، أو يعلمه ولا يمنعها، ومن العلل الثلاث، أن الحسن الذى هو رواى الحديث فسر الحديث بخلاف ما

---

(١) مريم.

(٢) الحجرات.

(٣) النساء.

(٤) الروم.

دل عليه الحديث، وهو أن الشرك وقع من ذرية آدم وحواء لأمتهما، وهو الصحيح، ثم ذكر (ك) آثاراً عن ابن عباس حاصلها أن آدم وحواء كان يلدان أولاداً يعبدانهم لله تعالى، أى يسميانهم عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز، فكانوا يموتون، فجاءهما إبليس وزين لهما أن يسميا من يولد لهما، عبد الحارث، أى عبد إبليس، فسمياه بذلك فعاش، وهذا من أعظم الكذب الذى اختلقه أهل الكتاب، فرواه عنهم بعض الرواة لغفلتهم، وإلا كيف يعقل أن عالما من العلماء المحققين يسمى ابنه عبد الحارث، أى عبد إبليس، فكيف بصحابى، وكيف بنبى، أما أهل الكتاب فيجزون على الأنبياء الكبائر والكفر، فلا عبرة برواياتهم وأنبياء الله منزهون، ومعصومين من الكفر والذنوب.

ثم قال (ك) في قوله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام وهى مخلوقة مربوبة، مصنوعة لا تملك شيئا من الأمر، ولا تضر ولا تنفع ولا تنتصر لعابديها، بل هى جماد لا تتحرك، ولا تسمع، ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم، ولهذا قال: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً ﴾ ولا يستطيع ذلك كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ من دُون اللَّه لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقذُوهُ منْهُ ضَعُفَ الطَّالبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْره إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [1] أخبر تعالى أن آلهتهم لو اجتمعوا كلهم ما استطاعوا خلق ذبابة، بل لو سلبتهم الذبابة شيئا من حقير الطعام وطارت لما استطاعوا إنقاذه منها، فمن هذه صفته وحاله، كيف يعبد ليرزق ويستنصر ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ أى لعابديهم ﴿ وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾ يعنى ولا أنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء، كما كان الخليل عليه الصلاة والسلام، يكسر أصنام قومه، ويهينها غاية الإهانة، كما أخبر تعالى عنه في قوله ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ

(١) الحج.
(٢) الصافات.

يَرْجِعُونَ ﴾ [١] وكما كان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن جبل ﷺ، وكانا شابين قد أسلما، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، فكانا يعدوان في الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ويتخذانها حطبا للأرامل ليعتبر قومهما بذلك، ويرتأوا لأنفسهم فكان لعمرو بن الجموح وكان سيدا في قومه صنم يعبده ويطيبه، فكان يجيئان في الليل فينكسانه على رأسه، ويلطخانه بالعذرة، فيجيء عمرو بن الجموح فيرى ما صنع به فيغسله ويطيبه ويضع عنده سيفا ويقول له: انتصر ثم يعودان لمثله ويعود إلى صنيعته أيضا حتى أخذاه مرة فقرناه بكلب ميت، ودلياه في حبل في بئر هناك، فلما جاء عمرو بن الجموح، ورأى ذلك، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل، ثم أسلم فحسن إسلامه وقتل يوم أحد شهيدا ﷺ وأرضاه وجعل جنة الفردوس مأواه.

فصل

قال محمد تقي الدين: – قول (ك) وهي جماد لا تسمع ولا تبصر، ولا شك أن المشركين في كل زمان ومكان يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار والأبينة والقباب والمياه والنيران، ويزعمون أن وراءها أرواحا للملائكة والأولياء والصالحين والجن والشياطين، تتلبس بها، وتقضى حاجة من طاف بها وعكف عندها، وكل أولئك عاجزون، من يعقل منهم ومن لا يعقل، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا** ﴾ إلخ أما التعبيد للمخلوقين، فإنه واقع عند المشركين من أهل هذا الزمان، فإن الشيعة يسمون عبد على، وعبد الزهراء، وكلب على، وعبد الحسن، وعبد الحسين، وعبد الأمير، وعبد السادة، ومن يزعمون أنه من أهل السنة وهم أهل شرك وبدعة، ويسمون عبد الرسول، وعبد النبى، طاعة لإبليس وإرضاء له ومعصية لله تعالى، وإسخاطا له فنعوذ بالله من الخذلان.

---

(١) الأنبياء.

الباب الثانى عشر

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ الآيات: ١٩٤- ١٩٨

قال (ك) ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها أى مخلوقات مثلهم، بل الناس أكمل منهم، لأنها تسمع، وتبصر، وتبطش، وتلك لا تفعل شيئا من ذلك، وقوله: ﴿ **قُلِ ادْعُواْ شُرَكَاءكُمْ** ﴾ الآية أى استنصروا بها على، فلا تؤخرونى طرفة ين، واجهدوا جهدكم: ﴿ **إِنَّ وَلِيِّـيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ** ﴾ أى الله حسبى، وكافينى، وهو نصيرى، وعليه متكلى، وإليه ألجأ، وهو وليى في الدنيا والآخرة، وهو ولى كل صالح بعدى وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ** ﴾ (١) وكقول الخليل: ﴿ **أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ** ﴾ (٢) الآيات، وكقوله لأبيه وقومه: ﴿ **إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ (٣)

---

(١) هود.

(٢) الشعراء.

(٣) الزخرف.

فصل

قال محمد تقى الدين: قول (ك) أنها عبيد مثل عابديها أعلم أنهم لا يعبدون التماثيل والقباب والأشجار والأحجار لذاتها، وإنما يعبدونها لما يزعمون فيها من التى تجعلها أفضل منهم، والتى بسببها تقضى الحاجات، وتنفرج الكربات بزعمهم، ولذلك تراهم إذا جاء السيل وجرف قبة يعودون إلى بنائها من جديد ويعبدونها، ولا يقولون في أنفسهم، لو كانت هذه القبة تملك نفعا أو ضرا، أو كان صاحبها الذى تنسب إليه يملك نفعا أو ضرا، لحفظ قبته، فإذا عجز عن حفظها من السيل فهو عن حفظ العابدين أعجز ولكن المشركين لا يعلقون، وقوله تعالى: ﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا** ﴾ تشنيع على عباد الأصنام والأوثان، لأن الأصنام وإن كانت لها أرجل وأيد وأعين وآذان إلا أنها لا تمشى، ولا تبطش، ولا تبصر، ولا تسمع، أما الأوثان كالقباب والأحجار فليس لها أرجل ولا أيد ولا أعين ولا آذان، ولكن عبادها يزعمون أن الأرواح المتلبسة بها تسمع وتبصر وتعلم الغيب وتضر وتنفع، ويسألونها قضاء الحاجات، فإن قضيت نسبوا قضاءها إليه، وإن لم تقض، نسبوا التقصير لأنفسهم، لا إلى أوثانهم، ألا ساء ما يحكمون.

سورة الأنفال

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ الآيتان: ٩- ١٠

روى حم، م، د، ت، ج، عن عمر بن الخطاب ﷺ قال لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبى ﷺ القبلة وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: «اللهم انجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك

هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا» قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه، ثم قال، يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله تعالى: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ** ﴾ فلما كان يومئذ التقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا، وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله أبا بكر وعمر وعليا، فقال أبو بكر يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب، قال قلت: والله ما رأه ما أرى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلا قريب لعمر فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد، قال عمر، فغدوت إلى النبي ﷺ وأبي بكر، وهما يبكيان، فقلت ما يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟ قال النبي ﷺ للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة، شجرة قريبة من النبي ﷺ، وأنزل الله عز وجل: ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّبًا** ﴾ [١] فأحل لهم الغنائم فلما كان يوم من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء فقتل منهم سبعون رجلا، وفر أصحاب النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ [٢].

---

(١) الأنفال.

(٢) آل عمران.

وقال البخاري: في كتاب المغازى: باب قول الله تعالى: ﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ عن عبد الله بن مسعود قال: « شهدت من المقداد بن الأسود مشهدا لأن أكون صاحبه أحب إلى مما عدل به، أتى النبى ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: « لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿ **اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا** ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبى ﷺ أشرق وجهه وسره » يعنى: قوله.

قال محمد تقى الدين: – المراد بذكر هذه الآية أن الاستغاثة في الشدائد لا تكون إلا بالله، ومن استغاث بغير الله فقد كفر، لأن الله تعالى أخبرنا أن النبى ﷺ وأصحابه في غزوة بدر حين اشتد بهم الكرب وتكاثرت عليهم الأعداء، استغاثوا كلهم بالله، استغاث النبى ﷺ واستغاث الصحابة بالله، ولم يستغث الصحابة بالنبى، ويستغيث النبى ﷺ بالله، كما يفعل المشركون في هذا الزمان، وهذا من أعظم البراهين على ضلال هؤلاء المشركين، لو كانوا يعقلون، ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ [1] فهذا كتاب الله وهذه سنة رسول الله الصحيحة الصريحة، فأين تذهبون، توبوا إلى الله، ووحدوا ربكم، وارجعوا إلى الحق، إن كنتم مؤمنين.

لعمرى لقد نبهت من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان.

ثم **قال (ك)** وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى** ﴾ الآية، أى: وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى، ولتطئمن به قلوبكم، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم لتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله، أي بدون ذلك، ولهذا قال: ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ أ هـ.

قال محمد تقى الدين: – وهذا محل الشاهد أن النصر لا يأتى إلا من الله، ولا ينبغى للمؤمن أن يطلبه إلا من الله، فإن طلبه من غيره خاب وخسر، ولم يظفر به أبدا، ولهذا ترى المشركين في هذا الزمان يتعلقون بالأوربيين ويطلبون منهم السلاح، ويتعلمون استعماله منهم، ويظنون أن ذلك كل شيء، ولم ينفعم ذلك شيئا، ولن ينتصروا أبدا، إلا إذا رجعوا إلى

---

(١) الزمر.

كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وحكموا شريعة الله، وقد مضت عليهم مئات السنين وهم يجربون طريقهم العقيم، فما حصدوا إلا الخيبة والخسران، ولو جربوا طريق الحق سنة واحدة لطلع عليهم فجر السعادة، وذهب نحسهم وظهر سعدهم ﴿ **وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾

الباب الثاني

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ الآيتان: ٣٩-٤٠

قال (ك) عن نافع عن ابن عمر أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: « إن الناس قد صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر بن الخطاب، وأنت صاحب رسول الله ﷺ، فما يمنعك أن تخرج، قال يمنعني أن الله حرم على دم أخي المسلم، قالوا: أولم يقل الله: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه** ﴾ قال: « قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله »، ثم روى عن أسامة بن زيد أنه قال: « لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله، ابدا فقال سعد بن مالك وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا، فقال رجل ألم يقل الله: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه** ﴾ فقال: قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، رواه ابن مردويه وقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ يعني لا يكون شرك، وكذا قال أبو العالية ومجاهد وقتادة والحسن والربيع بن أنس والسدي ومقاتل ابن حيان وزيد بن أسلم وقال محمد بن إسحاق بلغني عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا ﴿ **حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ** ﴾ حتى لا يفتن مسلم في دينه وقوله: ﴿ **وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال يخلص التوحيد لله.

وقال محمد بن إسحاق ويكون التوحيد خالصا لله ليس فيه شرك، ويخلع ما دونه من الأنداد، ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » وقوله: ﴿ فَإِنِ انتَهَوْاْ ﴾ أى: بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا، وإن لم تعلموا بواطنهم، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إله إلا الله، فضربه فقتله فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة: «أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة؟، فقال: يا رسول الله، إنما قالها تعوذا، قال: شققت عن قلبه ؟ وجعل يقول ويكرر عليه: من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة فقال أسامة: حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ».

فصل

قال محمد تقى الدين: - اعلم وفقنى الله وإياك لمعرفة الحق والتمسك به أن لا إله إلا الله لا تنفع أحدا إلا إذا قالها وهو عالم بمعناها، وعامل بمقتضاها، ولعلك لم تنس حديث أبى واقد الليثى الذى قال فيه النبى ﷺ: « قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى ﴿ **اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ » وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفى في سورة الأعراف عند قوله تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ﴾ وأطلت الكلام فيه، فمن يقول لا إله إلا الله، وينادى بأعلى صوته، يا رسول الله، أغثني يا على، يا فلان يا فلان، فإذا قلت له وحد الله بدعائك صاح عليك أنت وهابى، تبغض النبي وتبعض الأولياء، فهل هذا وأمثالهم تنفعهم لا إله إلا الله، كلا والله.

فصل

اعلم أيضا أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ، كعبد الله بن عمر رضي الله عنهما لم يروا القتال مع على ولا مع عثمان اجتهادا منهم، والصواب الذى لا شك فيه ما ذهب جمهور الصحابة من قتال البغاة الخارجين على أئمة الحق، لقول الله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ**

إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية، فقتال الخارجين على عثمان والخارجين على علي هو الحق بلا شك، لهذه الآية ولقول رسول الله ﷺ: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية» وكان عمار يقاتل مع علي فقتله جيش معاوية، وقال النبي ﷺ: « إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما »، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

سورة التوبة

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٤ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥ ﴾

الآيات: ١ - ٥

قال (ك): بعد أن ذكر أن عثمان ﷺ لم يكتب في أول التوبة بسم الله الرحمن الرحيم لظنه أنها والأنفال سورة واحدة، وأول هذه السورة الكريمة منزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك، وهم بالحج ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق ﷺ أميرا على

الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم، ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادى في الناس: ﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغا عن رسول ﷺ، لكونه عصبة له كما سيأتي بيانه، فقوله تعالى: ﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: هذا براءة أي: برئوا من الله ورسوله: ﴿ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ اختلف المفسرون ههنا اختلافا كبيرا فقال قائلون: هذه الآية لذى العهود المطلقة غير المؤقتة، أو من له عهد دون أربعة أشهر، فيكمل له أربعة أشهر، فأما من كان له عهد مؤقت، فأجله إلى مدته مهما كان، لقوله تعالى: ﴿ فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ﴾ الآية ولما سيأتى في الحديث، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدته، وهذا أحسن الأقوال وأقواها وقد اختاره ج – قال ابن عباس: حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر، يسيحون في الأرض حيث شاؤوا وأجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم، فذلك خمسون ليلة فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد يقتلهم حتى يدخلوا في الإسلام وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضا، حتى يدخلوا في الإسلام: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يقول تعالى وإعلام من الله ورسوله وتقدم وانذار إلى الناس: ﴿ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ ﴾ وهو يوم النحر الذى هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها، ﴿ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ أى برئ منهم أيضا، ثم دعاهم إلى التوبة إليه، فقال: ﴿ فَإِن تُبْتُمْ ﴾ أى مما أنتم فيه من الشرك والضلال، ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ بل هو قادر عليكم، وأنتم في قبضته وتحت قهره ومشيئته: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى في الدنيا بالخزى والنكال، وفي الآخرة بالمقامع والأغلال، قال البخاري رحمه الله بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: «بعثنى أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر، يؤذن بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان» قال حميد ثم أردف النبى ﷺ

بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة فأذن معنا على في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ثم ذكر **(ك)** هذا الحديث من رواية أبى هريرة، أيضا في صحيح البخاري في كتاب الجهاد، ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾، هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق، ليس بمؤقت، فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض، بذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى المدة المضروبة التى عوهد عليها، وقد تقدمت الأحاديث، ومن كان له عهد مع رسول الله ﷺ، فعهده إلى مدته، وذلك بشرط أن لا ينقض المعاهد عهده، فلا يظاهر على المسلمين أحدا، أى: يمالئ عليهم من سواهم، فهذا الذى يوفى له بذمته وعهده إلى مدته، ولهذا حرض تعالى على الوفاء بذلك، فقال: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أى: الموفين بعهدهم، ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية، اختلف المفسرون في الأشهر الحرام فذهب **«ج»** إلى أنها الأربعة المذكورة، في قوله تعالى: ﴿ **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ** ﴾ إلا أن المحرم هو آخرها في حقهم، **قال (ك)** وفيه نظر، والذى يظهر من حيث السياق: ما ذهب إليه ابن عباس في رواية العوفى عنه، وبه قال مجاهد وعمرو بن شعيب ومحمد بن إسحاق وآخرون: أن المراد بها أشهر السيح الأربعة المنصوص عليها بقوله: ﴿ **فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ** ﴾.

ثم قال: ﴿ **فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ** ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا علكيم فيها قتالهم، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم، لأن عود العهد على مذكور، أولى من مقدر، ثم أن الأشهر الأربعة المحرمة، سيأتى بيان حكمها في آية أخرى بعد، في هذه السورة الكريمة، وقوله: «**فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ** ﴾ أى: من الأرض. وهذا عام، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم، بقوله: ﴿ **وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ** ﴾ [1] وقوله: ﴿ **وَخُذُوهُمْ** ﴾ أى: وأسروهم، إن شئتم قتلا

---

(١) البقرة.

وإن شئتم أسرا، وقوله: ﴿ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل أقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع، تضطروهم إلى القتل أو الإسلام، ولهذا قال: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولهذا اعتمد الصديق ﷺ في قتال مانعى الزكاة، على هذه الآية الكريمة، وأمثالها، حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال، وهي: الدخول في الإسلام والقيام بأداء واجباته، نبه بأعلاها على أدناها، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة التي هي حق الله عز وجل. وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج، وهي: أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين، ولهذا كثيرا ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة. وقد جاء في الصحيحين عن ابن عمر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة »، الحديث، وقال أبو إسحاق: عن أبي عبيدة عن عبد الله ابن مسعود ﷺ: «أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له » وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة، وقال يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه » ثم **قال (ك)** وهذه الآية الكريمة هي آية السيف، التي قال فيها الضحاك بن مزاحم: «أنها نسخت كل عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين، وكل عقد وكل مدة » وقال العوفي عن ابن عباس ﷺ في هذه الآية الكريمة: « لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة منذ نزلت براءة »، وانسلاخ الأشهر الحرم ومدة من كان له عهد من المشركين قبل أن تنزل براءة أربعة أشهر، من يوم أذن ببراءة إلى عشر من أول شهر ربيع الآخر.

فصل

قال محمد تقي الدين: تبرأ الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ من المشركين بقوله: ﴿ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ وقال تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ وقال تعالى في سورة الممتحنة:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ فوجب على كل مؤمن أن يتبرأ من المشركين في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ الآيات: ٦– ١١

قال (ك) يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أي: الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ اسْتَجَارَكَ ﴾ أي: استأمنك، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: «القرآن» تقرؤه عليه، وتذكر له شيئا من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله ﴿ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ أي: وهو آمن مستمر الأمان، حتى يرجع إلا بلاده وداره ومأمنه، ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء، ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله في عباده، وقال ابن أبي نجيح: عن مجاهد في تفسير هذه الآية، قال: إنسان يأتيك يسمع ما تقول وما أنزل عليك فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه

كلام الله وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء.

ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشدا أو في رسالة، كما جاء يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم عروة بن مسعود، ومكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم، واحداً بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من أعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك، ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم وأحبروهم بذلك، كان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم، ولهذا أيضا، لما قدم رسول مسيلمة الكذاب، على رسول الله ﷺ، قال له: «أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم، فقال رسول الله ﷺ: « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك » وقد قيض الله له ضرب العنق في أمارة ابن مسعود على الكوفة، وكان يقال له ابن النواحة، ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة، فأرسل إليه ابن مسعود فقال له: إنك الآن لست في رسالة، وأمر فضربت عنقه، لا رحمه الله ولعنه، والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام، في أداء رسالة، أو تجارة، وطلب صلح، أو مهادنة، أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا، ما دام متردداً في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه، لكن قال العلماء: لا يجوز أن يمكن من الأقامة في دار الإسلام سنة، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر، وفيما بين ذلك، فيما زاد على أربعة أشهر ونقص من سنة، قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله: ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ** ﴾ الآية، يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر، ثم بعد ذلك السيف المرهف، أين ثقفوا، فقال تعالى: ﴿ **كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ** ﴾ أى أمان، ويتركون فيما هم فيه، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله، ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ يعنى يوم الحديبية، كما قال تعالى: ﴿ **هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ** ﴾ [1]. الآية، ﴿ **فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ** ﴾ أى: مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم

(١) الفتح.

عشر سنين، ﴿ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون، استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذى العقدة سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد، ومالأوا حلفاءهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ فقتلوهم معهم في الحرم أيضا، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان، سنة ثمان، ففتح الله البلد الحرام، ومكنه من نواصيهم ولله الحمد والمنة، فأطلق منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء، وكانوا قريبا من ألفين، ومن استمر على كفره وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر، يذهب حيث شاء، ومنهم «صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهما، ثم هداهم الله بعد ذلك إلى الإسلام التام، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾ الآية، يقول الله تعالى تحريضا للمؤمنين على معاداتهم والتبرئ منهم، ومبينا أنهم لا يستأهلون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ولا راقبوا فيهم إلا ولا ذمة، وقال ابن عباس وغيره: الال «القرابة » والذمة «العهد».

قال تميم بن مقبل:

أفسد لناس خلوف خلفوا ... قطعوا الآل وأعراق الرحم

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وجدناهم كاذبا إلهم ... وذو الال والعهد لا يكذب،

وقيل الال هو الله، ومنه جبرائيل، وميكائيل، وما أشبه ذلك، والتفسير الأول أحسن: ﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الآية، يقول تعالى ذما للمشركين وحثا للمؤمنين على قتالهم: ﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ يعنى أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة، ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ أى منعوا المؤمنين من اتباع الحق، ﴿ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ﴾ تقدم تفسيره، وكذا الآية التى بعدها ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ ﴾ إلى آخرها تقدمت، وروى البزار بسنده عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وعبادته

لا يشرك به وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض» وهو دين الله الذى جاءت بـه الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث، واختلاف الأهواء، وتصديق ذلـك في كتـاب الله ﴿ فَإِن تَابُواْ ﴾ فإن خلعوا الأوثـان وعبادتهـا: ﴿ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَـوُاْ الزَّكَـاةَ فَخَلُّـواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ وقال في آية أخرى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾

ثم قال البزار آخر الحديث عندى والله أعلم فارقها وهـو عنـه راض وباقيـة عنـدى مـن كلام الربيع بن أنس.

فصل

قال محمد تقى الدين: من زعم من المعتزلة والخوارج أن القرآن ليس كلام الله، وإنما هـو خلق من خلقه فقد كفر بهذه الآية، لأن السامع إنما يسمعه مـن قـراءة النبـى ﷺ، والكـلام ينسب لقائله الأصلى، وهو الله تعالى، والعجز عن الكلام نقـص في حـق المخلـوق، فكيـف بالخالق وكذلك الأشعرية المتأخرون الذين يزعمون أن كلام الله ليس بحرف ولا صوت، ولا بعربية ولا عجمية، وأنه صفة نفسية، وينكرون أن القرآن كلام الله، فهذه الآية حجة عليهم، ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ والمسلمون إذ كـانوا مسـلمين حقـا، ومـتخلقين بـالقرآن وبسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام محكمين شريعة الله، محـافظين علـى حـدود الله، متـى دخل بلادهم مشرك اعترته هيبة منهم، وامتلأ قلبه تعظيما للإسلام وأهله، وانجـذب إلـيهم، فإما أن يدخل في دين الله ويسعد به، وإما أن تقـوم عليـه حجـة الله، أمـا إذا دخـل بلادهـم ووجدهم متخلقين بمساوئ الأخلاق، منهكمين في الموبقات، لا يتبعون القرآن ولا الرسول، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، فإنه يـزداد عـداوة للإسـلام وبعـدا عنـه وعـن أهله.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ الآيتان: ١٧ – ١٨

قال (ك) يقول تعالى ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التى بنيت على اسمه وحده لا شريك له، ومن قرأ مسجد الله فأراد به المسجد الحرام، أشرف المساجد في الأرض، الذى بنى من أول يوم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأسسه خليل الرحمن، هذا وهم ﴿ **شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ** ﴾، أي: بحالهم وقالهم، كما قال السدي: لو سألت النصراني ما دينك؟ لقال نصراني، ولو سألت اليهودي ما دينك ؟ قال يهودي، والصابئ لقال صابئ، والمشرك لقال مشرك، ﴿ **أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ** ﴾ أي: بشركهم، ﴿ **وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُواْ أَوْلِيَاءهُ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ [١] ولهذا قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ فشهد الله بالإيمان لعمار المساجد كما قال الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، ورواه الترمذي والحاكم في المستدرك به وقوله: ﴿ **أَقَامَ الصَّلاَةَ** ﴾ أى التي هى أكبر عبادات البدن، ﴿ **وَآتَى الزَّكَاةَ** ﴾ اى التى هى أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق، وقوله: ﴿ **وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ** ﴾ أى: ولم يخف إلا من الله، ولم يخش سواه، ﴿ **فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ** ﴾ يقول: من وحد الله وآمن باليوم الآخر يقول من آمن بما أنزل الله ﴿ **أَقَامَ الصَّلاَةَ** ﴾ يعنى الصلوات الخمس ﴿ **وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللّهَ** ﴾ يقول لم يعبد إلا الله، ثم قال: ﴿ **فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ** ﴾ يقول تعالى إن أولئك هم المفلحون، كقوله لنبيه ﷺ: ﴿ **عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ [٢] وهى الشفاعة وكل عسى في القرآن فهى واجبة، وقال محمد بن إسحاق بن يسار رحمه الله: وعسى من الله حق.

---

(١) الأنفال.

(٢) الإسراء.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ** ﴾ الآية دليل على أن كل مسجد بنى لله تعالى لا يجوز لمشرك أن يدخله ولا أن يتعبد فيه بعبادته الشركية التى يقول فيها يا رسول الله أعطنى، ويستغيث بالمخلوقين، وكذلك المبتدع الذى يعمرها بالمكاء والتصدية، وهو الخوار الذى يفعله أصحاب الطرائق كخوار البقر، أصوات قبيحة لا معنى لها في أى لغة، ويسمون ذلك زورا وبهتانا ذكر الله، ومعاذ الله أن يكون ذلك ذكر لله لأن ذكر الله معلوم في كتب السنة، مطابق لفعل الرسول وتصدية وتشبها بأهل الجاهلية، فهل فعله رسول الله ﷺ أو الصحابة أو التابعون أو الآئمة المجتهدون ؟ حشاهم من ذلك، وما أحسن قول شاعر مصلح:

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه	**ولا بكاؤك إذ غنى المغنونا**
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	**ولا ارتعاش كأن قد صرت مجنونا**
بل التصوف أن تصفو بلا كدر	**وتتبع الحق والقرآن والدينا**
وأن ترى خاشعا لله مكتئبا	**على ذنوبك طول الدهر محزونا،**

وقال آخر:

يا عصبة ما ضر أمة أحمد	**وسعى على إفسادها إلا هى**
طار ومزمار ونغمة شادن	**أرأيت قط عبادة بملاه**

وكذلك المبتدعة الذين يجلسون حلقة في المسجد ويذكرون الله بذكر مشروع، ولكنهم يذكرونه بلسان واحد أو بمقدم يؤمهم في ذلك الذكر، وهم يقتدون به فقد روى ابن وضاح في كتاب البدع ونقله الشاطبي في الاعتصام عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه بلغه أن ناسا يجتمعون في مسجد الكوف حلقة وبين أيديهم الحصى، فيقول أحدهم سبحوا مائة فيسبحون ثم يقول هللوا مائة فيهللون ثم يقول كبرا مائة فيكبرون فلبس البرنس وانطلق حتى جلس إليهم ورأى بعينه صنيعهم، فقال: «والله لقد فقتم أصحاب محمد ﷺ علما، أو جئتم ببدعة ظلما فقالوا يا أبا عبد الرحمن، ما فقنا أصحاب محمد ﷺ علما ولا جئنا ببدعة ظلما، ولكننا نذكر ربنا، فقال عبد الله بن مسعود بلى والذى نفس ابن مسعود بيده لقد فقتم أصحاب

محمد ﷺ علما أو جئتم ببدعة ظلما» ثم طردهم من المسجد فذهبوا وبنوا مسجدا بظاهر الكوفة أى خارجا عن مدينة الكوفة وأخذوا يصنعون فيه ذلك الصنيع فبلغ ابن مسعود خبرهم فأمر بهدمه وتفرقوا، أ هـ.

فهؤلاء ذكروا الله بذكر مفهوم المعنى مشروع ولكن زادوا عليه هيئة الاجتماع في وقت معلوم والمقدم الذى يرشدهم، فصار ذلك بدعة إضافية، وأصحابها داخلون في الوعيد، وهى شر من المعاصى، لأن المعاصى يعرف فاعلها إنها معاص، ولا يعتقد أنها قربة إلى الله، فيرجى أن يتوب منها، بخلاف البدعة فإن صاحبها لاعتقاده أنها قربة لا يتوب منها، وكذلك النفر الذين جاؤوا إلى أزواج رسول الله ﷺ فسألوهن عن عبادته، فأخبرنهم بها فكأنهم تقالوها، فقال احدهم: « لسنا مثل رسول الله ﷺ، فإن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، إما أنا فأصوم أبداً ولا أفطر، وقال الآخر أما أنا فأقوم الليل أبدا ولا أنام، وقال الثالث أما أنا فلا أتزوج النساء، فلما سمع بذلك النبى ﷺ قال لهم: أنتم الذين قلتم ما قلتم ؟ قالوا نعم، فقال رسول الله ﷺ أما أنا فأصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » وكذلك المغاربة الذين يقرؤون القرآن جماعة بلسان واحد بعد صلاة الصبح، وبعد صلاة المغرب يقرؤون القرآن جماعة بصوت واحد نصف جزء من القرآن ويسمونه حزبا، يفتح القراءة لهم الإمام ثم بعد ذلك يختمون ذلك بأدعية ينطقون بها بلسان واحد، كما يفعل اليهود والنصارى في كنائسهم، ومنهم أخذ المغاربة هذه العادة السيئة لم يسبق إليها سابق، ولا لحقهم فيها لاحق، ومن العجب أنهم كلهم يتركون سنة المغرب البعدية والقبلية، أما البعدية فيفعلون بدلها تلك البدعة وإمنا القبلية فيزعمون أنها مكروهة، وحقيقة المكروه هو ما نهى الله أو نهى الله أو رسوله ﷺ عنه نهيا مخففا بحيث إذا ترك يكون في تركه أجر، وإذا فعل لا يكون في فعله عقاب، فنقول لهم: يا لله العجب، متى نهى الله أو رسوله ﷺ عن صلاة ركعتين قبل المغرب أى بعد آذان المغرب وقبل صلاتها، هل تستطيعون أن تجدوا في ذلك آية أو حديثا ولو ضعيفا، لن تجدوا ذلك أبدا، بل الموجود الصحيح ما رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله المزنى أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب، صلوا قبل المغرب، وقال في الثالثة: لمن شاء» وجميع أهل

الحديث منهم الشافعي وأحمد يقولون أن هذه الصلاة سنة وهذه السنة معمول بها في الحرمين الشريفين، وفي جميع المساجد التي يعمل فيها بالسنة، ويضرب بالرأي عرض الحائط والذين يسمون فقهاء عند المغاربة، أعني غلاتهم إذا ذكرت لهم حديث رسول الله ﷺ يغضبون ويصرون على باطلهم، ويقولون هذا العمل فعله فلان وفلان، وهما أفضل منك، وأعلم بالسنة، وأمثال هذا من أقوالهم الباطلة، وإذا شئت أن تلزمهم وتلقمهم حجرا في مسألة القراءة جماعة بصوت واحد، فاقرأ عليهم ما كتبه المواق في شرحه لمختصر خليل، عند قوله: وجهر بها في مسجد كجماعة، وأقيم القارئ في المسجد يوم خميس أو غيره، فمثل هذا النقل يخرسهم، أما الكتاب والسنة فلا يرفعون بهما رأسا، وكذلك قول مالك (ح) إذا خالف عادتهم لا يقبلونه بل يروغون روغان الثعلب، فنسأل الله العافية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ ﴾ يعني ان الذين هم أولياء الله ويحق لهم أن يعمروا مساجد الله هم الذين يوحدون الله في عبادته ولا يخافون إلا الله، وأعلم أن الخوف قسمان، بل نوعان، نوع طبيعي فطر عليه الإنسان، كالخوف من العدو والخوف من الأسد، والخوف من الهزيمة في الحرب، والخوف من السراق واللصوص، فهذا الخوف ليس شركا، كما قال تعالى في سورة طه: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ الآية، والخوف الذي هو شرك يتنافى مع التوحيد، هو الخوف بالغيب، كالذي يريد أن يدخل بلدا، فيخاف ما يسمى بالأولياء الأموات أو الأحياء إذا لم يخضع لهم أن يصيبوه بمصيبة، فيستأذنهم ويخضع لهم، ويسألهم الضيافة وهم أموات أو غائبون.

ويحسن أن أحكي هنا حكاية لتوضيح المقام كان العالم السلفي المشهور عبد الله السنوسي نزيل مدينة «طنجة» له خادم يرافقه فسافر من طنجة إلى العرائش، وهي مدينة في المغرب على شاطئ البحر المحيط، فلما أراد دخول هذه المدينة، قال خادمه: أسأل الضيافة من الله ومن سيدتنا منانة، ومنانة هذه: امرأة ميتة بنيت على قبرها قبة يعبدها الجهال، فسكت الشيخ ولم ينكر عليه قوله، وكانت عادة الشيخ أن ينزل عن بعض المحبين، فيجتمع عليه الناس للاستفادة من علمه، وينطلق خادمه إلى مشرب من مشارب القهوة والشاي، وهو ما يسمى «بالقهوة» فيكمث هناك إلى أن يمضي أول الليل، ثم يرجع إلى البيت الذي نزل فيه

الشيخ فيجد عشاءه محفوظا له فيأكله وينام، ولما رجع تلك الليلة جلس ينتظر أن يقدم له عشاؤه كالعادة فلم يقدم له شئ وكان الشيخ قد أخبر أهل ذلك البيت أن خادمه استضاف شخصا آخر، وأمرهم أن لا يتركوا له طعاما، فلما طال انتظاره قال له الشيخ: كيف كان عشاؤك عند منانة ؟ فقال له: يا سيدى ما تعشيت، فقال الشيخ: سبحان الله كيف تركتك منانة بلا عشاء ! وأنت ضيفها ! فاذهب إلى فراشك فليس لك هنا عشاء، وكان ذلك عقابا له وعبرة لغيره، وعادة عامة المغاربة أن يطلبوا الضيافة كما تقدم من رجال البلد، ويقصدون بذلك الأموات الذين بنيت على قبورهم قباب. ولما بدأت الدعوة إلى الله في المغرب سنة ١٣٨٠ هـ علمت من استجاب لدعوتى طلب الضيافة من الله بالدعاء الذى كان يدعو به النبى ﷺ إذا أقبل على بلد وهو: «اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب البحار وما جرين، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها، اللهم حببنا إلى أهلها، وحبب صالحى أهلها إلينا» وهذا مفترق الطرق بين الموحدين والمشركين، فالموحدون يطلبون حاجاتهم كلها من الله تعالى ولا يطلبون من مخلوق شيئا، والمشركون لا يكفيهم الله تعالى فيتوجهون إلى المخلوقين العاجزين فيسألون حاجاتهم، فبئس ما يفعلون، قال الله تعالى في سورة سبأ: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ** ﴾ وقال الله تعالى في سورة يونس: ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ** ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية، أن المشركين الأولين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون ويعتقدون أن الله هو الذى يرزق، وهو الذى يملك كل شئ، وهو وحده الذى يتصرف في العالم بالإعطاء والإحياء والإماتة وغير ذلك من أنواع التصرف، والمشركون في هذا الزمان يعتقدون أن أولياءهم يتصرفون في العالم، فلذلك يستغيثون بهم في الشدائد ويطلبون منهم حاجاتهم بدون حياء من الله تعالى ولا خوف، قال بعض المغاربة لما حاصر الفرنسيون مدينة فاس، سنة ١٩١٢ بتاريخ النصارى، قال بعض من يسمون بالعلماء عندهم، وهم أجهل بالله من الدواب، يستغيث بإدريس بن عبد الله الأكبر، المدفون

«بزرهون» رحمه الله، شعرا:

أمولاى يا إدريس يا ابن نبينا ... وملجأ هذا القطر في العسر واليسر

تكنفنا الأسد الضراة وإننا ... على خطر إن لم تغثنا على الفور

أراد هذا المشرك المجنون، أن يقوم إدريس من قبره، أو تأتى روحه فتقاتل الجيش الفرنسى، وتصده عن مدينة فاس، أما هو فيجلس رابضا كالثور المريض في يده سبحه يعد حباتها ويأكل ويشرب، فلم يغثه إدريس بل دخل الفرنسيون مدينة فاس، ثم فتحوا بلاد المغرب بلدا بلدا إلى أن استولوا عليها كلها، ومكثوا يحكمونها بالحديد والنار، ثلاثا وأربعين سنة، إلى أن تصدى لهم الملك محمد بن يوسف بن الحسن، وابنه الملك الحسن ابن محمد، رحم الله الوالد وأطال عمر الحسن ابنه ووفقه الخير وأعانه عليه ونصره على أعداء الإسلام، هذان رجلان قاما في وجه الفرنسيين مع كثرة جيوشهم وجيوش مستعمراتهم قالا لهم: نحن لا نرضى بالاستعباد فإما حياة عز وإما موت شريف، كما قال المتنبى:

عش عزيزا أو مت وأنت شريف ... بين طعن القنا وخفق البنود

لا كما قد حييت غير حميد ... وإذا مت مت غير فقيد،

فبارك الله في ثورتهما وكانت سببا في استيقاظ أهل المغرب من سباتهم، وشرعوا في الجهاد والنضال حتى طهروا بلادهم من استعباد الأجانب بعدما حكم الفرنسيون بلادهم ثلاثا وأربعين سنة، والفضل لله، ثم لثورة الملكين المذكورين، لا لاستعانة المشركين بأهل القبور، والعجب من ذلك الشاعر البارع الذي يقول، إن إدريس رحمه الله ملجأ القطر المغربى في العسر واليسر، والمسلمون لا ملجأ لهم إلا الله، قال تعالى في سورة التوبة في وصف الثلاثة الذين خلفوا، أى: أخبر قبول توبتهم ﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وقال النبى ﷺ في الدعاء الذى يقال قبل النوم وهو الصحيح: «اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت» فقد اتخذ ذلك الجهول إدريس شريكا مع الله وحاشا لأهل المغرب أن يوافقوه على شركه وجهله ـ فإن منهم من يوحد الله تعالى ولا يشرك به

شيئا وإن كانوا اليوم قليلا، فنرجو الله أن يكثرهم، وكيف يلجؤون إلى غير الله وهم يقرؤون قوله تعالى في سورة النمل: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ وما أحسن قول من قال:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع — أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجى للشدائد كلها — يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن — أمنن فإن الخير عندك أجمع

هكذا ينبغي للمؤمن الموحد أن يقول وبالله يصول ويجول، ومن دواعي الأسف أن معنى الآية قد انعكس في هذا الزمان فصار الجهال والمشركون والمبتدعون يقولون بلسان حالهم وقالهم إنما يعمر مساجد الله من أشرك بالله وخالف سنة رسول الله وابتدع في دين الله، فالدعوة إلى توحيد الله وإتباع سنة رسوله ﷺ ممنوعة في المساجد في المغرب والجزائر، إلا بأذن من حاكم البلد، وكم من شاب وكهل من الصالحين الدعاة إلى الله منع منها، وفي هذه الأيام كتب إليَّ أحد تلامذتي وهو عبد الواحد بادو، يقول أنه فضل أن يكون معلما في قرية ليبعد عما في المدن من الفجور، فصار معلما في قرية بقرب مدينة الحاجب، وأخذ يلقى دروسا في مسجد القرية يعلم الناس فيها توحيد الله فمنعه أمير القرية الذي يسمونه القائد، فجاءه العزل عقابا من الله له لمنعه مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعيه في خرابها يترك الناس في البدع والشرك، قال فلما عزل عدت إلى الوعظ في المسجد فمنعني نائب الأمير الذى يسمى عندهم الخليفة، فكتب إليه اختر دكان واحد من الذين استجابوا لك واجعله مكانا للدعوة واقصد الأسواق مع بعض إخوانك ودور القهوة واتخذها مكانا للدعوة، ولو أن أولئك الحكام يراقبون الداعى فإذا رأوه يدعو إلى فتنة أو ثورة منعوه، وإذا رأوه يدعو إلى توحيد الله وإتباع سنة رسول الله ﷺ أعانوه ونصروه، أو على الأقل كفوه شرهم فلا يناله منهم خير ولا شر، لعذرناهم ولكنهم يتركون الدجاجلة يسرحون ويمرحون وينشرون الشرك والبدع، ولا يتعرضون لهم بسوء وإنما يمنعون دعاة التوحيد والسنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ الآية: ٢٨

قال (ك) أمر تعالى عباده المؤمنين الطاهرين دينا وذاتا بنفي المشركين الذين هم نجس دينا في المسجد الحرام أن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية وكان نزولها في سنة تسع، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليا صحبة أبي بكر ﵁ عامئذ وأمره أن ينادى في المشركين « أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان» فأتم الله ذلك وحكم به شرعا وقدرا، وقال الإمام أبو عمرو الأوزاعى، كتب عمر بن عبد العزيز أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين واتبع نهيه قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ** ﴾ الآية.

قال محمد تقى الدين: هذا قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله وهو من رأيه واجتهاده وكذلك يقول المالكية لا يجوز أن يدخل الكافر المسجد ولو إذن له المسلمون، وفي ذلك نظر، قال البخاري بسنده إلى أبى هريرة ﵁ قال: «بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة، يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه النبى ﷺ فقال أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، هكذا ذكره البخاري في أحكام المساجد مختصرا، وأخرجه في كتاب المغازى مطولا، تحت ترجمة «باب وفد بنى حنيفة وحديث ثمامة بن أثال، قال بعث النبى ﷺ خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: « ماذا عندك يا ثمامة ؟ فقال: عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فترك حتى كان الغد ثم قال له ما عندك يا ثمامة ؟ فقال ما قلت لك أن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة ؟ فقال عندى ما قلت لك، فقال أطلقوا ثمامة فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل

ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة، قال له قائل صبأت، قال لا والله ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى ﷺ.

قال الصنعانى في «سبل السلام على بلوغ المرام» ما نصه: وفيه دليل على جواز ربط الأمير بالمسجد وإن كان كافرا، وإن هذا تخصيص لقوله ﷺ، إن المسجد لذكر الله والطاعة، وقد أنزل وفد ثقيف في المسجد، قال الخطابى فيه جواز دخول المشرك إذا كان فيه حاجة مثل أن يكون له غريم في المسجد لا يخرج إليه، ومثل أن يحاكم إلى قاض هو في المسجد، وقد كان الكفار يدخلون مسجده ﷺ ويطيلون فيه الجلوس، وقد أخرج أبو داود من حديث أبى هريرة أن اليهود أتوا النبى ﷺ وهو في المسجد، وأما قوله تعالى: ﴿ **فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ** ﴾ فالمراد به لا يمكنون من حج ولا عمرة كما ورد في القصة التى بعث لأجلها ﷺ بآيات براءة إلى مكة، وقوله: «فلا يحجن بعد هذا العام مشرك» وكذلك قوله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ** ﴾ لا يتم بها دليل على المشركين لأنها نزلت في حق من استولى عليها وكانت له القوة والمنعة كما وقع في سبب نزول الآية الكريمة، فإنها نزلت في شأن النصارى واستيلائهم على بيت المقدس، وإلقاء الأذى فيه والأزبال، أو أنها نزلت في شأن قريش ومنعهم له ﷺ عام الحديبية عن العمرة، وأما دخوله من غير استيلاء ومنع وتخريب فلم تفده الآية الكريمة، وكان المصنف ساقه لبيان جواز دخول المشرك المسجد وهو مذهب إمامه فيما عدا المسجد الحرام».

فصل

قال محمد تقى الدين: نجاسة المشركين معنوية، فقد روى الشيخان عن عمران بن حصين، أن النبى ﷺ وأصحابه توضؤوا من مزادة امرأة مشركة، وكذلك الخمر نجسة، اختلف

العلماء في نجاستها، أهي حسية إذا أصابت ثوب رجل أو بدنه وجب عليه أن يغسلها أم نجاستها معنوية، وهى ما فيها من السكر الذى يذهب بالعقل وتنشأ عنه جرائم كثيرة، وقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾.

فقد سمى الله تعالى الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس، الثلاثة المذكورة مع الخمر نجاستها معنوية بالاتفاق، فكذلك الخمر لأنه سبحانه علل تحريم هذه الأشياء الأربعة بقوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ ﴾ فالخمر والميسر تعاطيهما تنشأ عن العداوة والبغضاء والتشاجر والتقاتل، والأنصاب شرك، والأزلام طلب لمعرفة الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله، فسبب نجاسة المشركين هو الشرك فلا يجوز لهم دخول مكة ولا ينبغى أن يعمروا المساجد مع شركهم كما تقدم في الباب الذى قبل هذا.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ الآيات: ٣٠ – ٣٣

قال (ك) هذه مقالة شنيعة وفرية عظيمة على الله تعالى، فأما اليهود فقالوا في العزير أنه ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وأما ضلال النصارى في المسيح، فظاهر، ولهذا كذب الله الطائفتين، فقال: ﴿ **ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾ أي: لا مستند لهم فيما ادعوه، سوى افترائهم واختلافهم ﴿ **يُضَاهِؤُونَ** ﴾ أي يشابهون ﴿ **قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ** ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء، ﴿ **قَاتَلَهُمُ اللَّهُ** ﴾ قال ابن عباس: لعنهم الله، ﴿ **أَنَّى يُؤْفَكُونَ** ﴾ أي كيف يضلون عن الحق، وهو ظاهر، ويعدلون إلى الباطل، وقوله: ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ** ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم ﷺ: « إنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام، وكان قد تنصر في الجاهلية، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عدى إلى المدينة، وكان رئيسا في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ، وفي عنق عدى صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ قال فقلت أنهم لم يعبدونهم، فقال: بلى! أنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم، وقال رسول الله ﷺ يا عدى ما تقول ؟ أيضرك أن يقال، الله أكبر، فهل تعلم شيئا أكبر من الله؟ ما يضرك أن يقال لا إله إلا الله، فهل تعلم إلها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق، قال: فلقد رأيت وجهه استبشر، ثم قال: وإن اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»، وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله ابن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾.

إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: «استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم»، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهًا وَاحِدًا** ﴾ أي: الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام، وما حلله فهو الحلال، وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ، ﴿ **لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ أي: تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد، والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه، ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ** ﴾

الآية، يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ ن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّـه ﴾، أى: ما بعث به رسول الله ﷺ، من الهدى ودين الحق، بمجرد جدالهم وافترائهم، فمثلهم في ذلك، كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس، أو نور القمر بنفخة، وهذا لا سبيل إليه، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لابد أن يتم ويظهر، ولهذا قال تعالى، مقابلا لهم فيما راموه وأرادوه، ﴿ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ والكافر هو الذى يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمى الليل كافراً، لأنه يستر الأشياء، والزارع كافرا، لأنه يغطى الحب في الأرض، كما قال ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ فالهدى ما جاء به من الأخبارات الصادقة والإيمان الصالح، والعلم النافع، ودين الحق، هو الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة، ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ أى: على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « أن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها ».

فصل

قال محمد تقى الدين: - انظر إلى كرم النبى ﷺ، ورحمته، وإنزال الناس منازلهم، لم يكتف عليه الصلاة والسلام، بإطلاق سراح هذه الأميرة، بل اكرمها وأعطاها لأنها ابنة رجل مشهور بالكرم، وهو: «حاتم الطائى»، يضرب به المثل في الجود، وكذلك أطلق رسول الله ﷺ، من معها من الأسارى بدون فدية، فانطلقت إلى أخيها عدى، وأخبرته بما رأت من الأخلاق الكريمة، والشمائل العظيمة، فكان ذلك سببا في إتيانه إلى النبى ﷺ وإسلامه، وفوزه بصحبة النبى ﷺ.

تلك السعادة أن تلمم بساحتها فحط رحلك قد عوفيت من تعس

وفي رواية « أن النبى ﷺ لما رأى الصليب في عنق عدى قال له ألق عنك هذا الوثن»، فعلم بذلك أن كل شيء عبد من دون الله أو حمل للتبرك به فهو وثن، فالقباب التى يعبدها المشركون، والقبور التى تعبد والأشجار والمياه والأحجار كلها أوثان، وقد قال النبى ﷺ: «اللهم لا تجعل قبرى وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» رواه مالك في الموطأ وإنما نهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ المساجد عند القبور لعلمه، أن تحرى

العبادة عندها يفضى إلى اتخاذها أوثانا تعبد من دون الله، كما هو مشاهد في هذا الزمان، ثم انظر إلى قول النبى ﷺ، فذلك عبادتهم - يعنى أن من جعل الحكم لشخص يحلل ويحرم برأيه، ولا يطالب بدليل من الكتاب والسنة، فقد عبده، قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: - وهو شرحه لخمسين حديثا من جوامع الكلم - قال ابن هبيرة: « من مكايد الشيطان أن يقيم أوثانا في المعنى تعبد من دون الله مثل أن يتبين لأحدهم الحق، فيقول ليس علينا مذهبنا، تعظيما لمقلد، - بفتح اللام عنده - قد قدمه على الحق» انتهى. فالتحليل والتحريم والإيجاب والاستحباب والكراهة إذا قيدها المتعصب بالمذهب، ولم يبال بمخالفة الدليل عن النبى ﷺ، فقد اتخذ ذلك المذهب وثنا معنويا، يعبده من دون الله، لأن المذهب مجموع آراء رجال المذهب، وليس بقبة ولا شجر ولا حجر، ولكن لما جعل معياراً للحكم صار وثنا معنويا، يدرك بالعقل، وهكذا يقال فيمن أطاع حزبه في معصية الله تعالى، أو ترك الفرائض التى شرعها الله تعالى، فذلك الحزب وثن يعبده، والحاصل: أن الحكم لا يكون إلا لله، ومن جعله لغير الله فقد أشرك، ومن أمثال ذلك أن أهل المغرب الذين ينتسبون إلى المذهب المالكى، يذبحون الذئاب والثعلب والنمر والأسد - وكل ذى مخلب من الطير - كالغراب والصقر والنسر والحداة من سباع الطير - فيه ثلاثة أقوال في المذهب، ينسبونها إلى مالك «ج» الإباحة، والكراهة التنزيهية، والحرمة ويرجحون القول الثانى، وهو: الكراهة التنزيهية، ويزعمون أنه المشهور في المذهب المالكى، فمن ترك أكل السباع المذكورة أثيب على تركه، ومن أكل لحومها فلا شيء عليه، ولا يأثم، وقد روى مالك في الموطأ عن النبى ﷺ أنه قال: «كل ذى ناب من السباع حرام»، وكيف يروى مالك هذا عن النبى ﷺ، ثم يقول بالإباحة أو الكراهة التنزيهية، وهذا طعن في تمسك مالك بالسنة، والصحيح كما قاله ابن عبد البر، أن مالكا وسائر الأئمة، يقولون بتحريم أكل لحوم السباع، قال ابن تيمية: «الجد - في منتقى الأخبار - ما نصه:

١- عن أبى ثعلبة الخشنى « أن رسول الله ﷺ قال كل ذى ناب من السباع فأكله حرام»، رواه الجماعة إلا البخارى وأبا داود.

٢- وعن ابن عباس ﷺ قال: « نهى رسول الله ﷺ عن كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير »، رواه الجماعة إلا البخاري والترمذي.

٣- وعن جابر قال: « حرم رسول الله ﷺ يعني يوم خيبر لحوم حمر الأنسية، ولحوم البغال، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير»، رواه أحمد والترمذي.

٤- وعن العرباض بن سارية: « أن رسول الله ﷺ، حرم يوم خيبر كل ذى مخلب من الطير، ولحوم الحمر الأهلية، والخليسة والمجثمة »، رواه أحمد والترمذي وزاد في رواية قال أبو عاصم، المجثمة أن ينصب الطير فيرمى، والخليسة الذئب أو السبع يدركه الرجل فيأخذ منه، يعنى الفريسة، فتموت في يده قبل أن يزكيها.

قال الشوكانى: - في نيل الأوطار بعد ذكر الأحاديث المتقدمة – وذو الناب، من السباع، كالأسد، والذئب، والنمر، والفيل، والقرد، وكل ما له ناب يتقوى به ويصطاد، قال في النهاية، وهو: ما يفترس الحيوان ويأكل قسرا كالأسد والنمر والذئب ونحوها، وقال في القاموس: والسبع بضم الباء وفتحها، المفترس من الحيوان، انتهى.

وقول (ك) والكافر الذى يستر الشيء ويغطيه، ولذلك سمى الكافر بالله تعالى الجاحد بما جاءت به رسل الله كافرا، لأنه ستر الحق وغطاه بجحوده، قال لبيد في معلقته:

حتى إذا ألقت يدا في كافر ... واجن عورات البيوت ظلامها

يريد بقوله: «ألقت يدا في كافر» غروب الشمس فشبهها بإنسان وأثبت لها يدا، على طريق الاستعارة وجعل غروبها إلقاء يدها في الكافر وهو الليل، وقال لبيد أيضا:

في ليلة كفر النجوم ظلامها

وقال الشاعر:

لى فيك أجر مجاهد ... إن صح أن الليل كافر

الباب السادس

قال تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ الآية: ٥١

قال (ك) يعلم الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعدواة هؤلاء له، لأنه مهما أصابه من حسنة أي: فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ويسر أصحابه ساءهم ذلك، ﴿ **وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ** ﴾ أى، قد احترزنا من قبل هذا ﴿ **وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ** ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة، فقال ﴿ **قُل** ﴾ أى، لهم ﴿ **لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا** ﴾ أى: نحن تحت مشيئته وقدره، ﴿ **هُوَ مَوْلاَنَا** ﴾ أى: سيدنا وملجأنا، ﴿ **وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ أى: ونحن متوكلون عليه، وحسبنا ونعم الوكيل.

فصل

قال محمد تقى الدين: - جاء في الحديث أن: «العلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر» انتهى، فالعلماء يرثون الأنبياء في علمهم وعملهم وصبرهم، وتوكلهم واستعانتهم بالله على الأعداء، فكما أن المشركين والمنافقين كانوا يفرحون إذا أصابت النبى ﷺ وأصحابه ضراء ويحزنون إذا أصابت النبى ﷺ سراء، فكذلك المشركون والمنافقون بعد زمانه عليه الصلاة والسلام، يعاملون ورثته المتبعين له، وينصبون لهم الحبائل، ويكيدون لهم المكايد فإن أصاب الدعاة إلى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، شر فرحوا، وإن أصابهم فلاح ونجاح ساءهم ذلك وحزنوا، وهؤلاء الدعاة الحنفاء، نضر الله وجوههم، يقتدون بنبيهم، فيقولون لأعداء السنة وأعداء التوحيد، ﴿ **لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا** ﴾ وناصرنا عليكم، ﴿ **وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ فنحن لا نتوكل إلا عليه ولا نستغيث إلا به وهو لا يضيع أحداً توكل عليه، وهذا واقع في كل زمان نسأل الله أن يجعلنا من المخلصين في اتباع نبينا في العلم والعمل، ويرزقنا الصبر على ما يصيبنا، أنه ولى ذلك والقادر عليه.

الباب السابع

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا

كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ الآيات: ١١٣- ١١٦

قال (ك) أخرج **«أ»** و **«ق»** عن ابن المسيب عن أبيه قال: « لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبى ﷺ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية، فقال: أى عمى، قلا لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل، فقال أبو جهل: وعبد الله ابن أبى أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب، فقال: أنا على ملة عبد المطلب، فقال النبى ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فنزلت ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾ قال ونزلت فيه ﴿ **إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء** ﴾ [1] وقال **(أ)** بسنده عن على ﷺ قال: «سمعت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فنزلت ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ** ﴾ الآية **قال (ك)** وقال **«أ»** وذكر سنده إلى ابن بريدة عن أبيه قال: « كن مع النبى ﷺ ونحن في سفر فنزل بنا ونحن قريب من ألف راكب، فصلى ركعتين، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تذرفان، فقام إليه عمر بن الخطاب، وفداه بالأب والأم، وقال: يا رسول الله مالك ؟ قال: إنى سألت ربى عز وجل في الاستغفار لأمى فلم يأذن لى، فدمعت عيناى رحمة لها من النار، وإنى كنت نهيتكم عن ثلاث، نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها لتذكركم خيرا، ونهيتكم عن لحوم الأضاحى بعد ثلاث فكلوا وامسكوا ما شئتم، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية فاشربوا في أى وعاء شئتم ولا تشربوا مسكرا »

---

(١) القصص

وروى «ج» وذكر سنده إلى سليمان بن بريده عن أبيه « أن النبى ﷺ، لما قدم مكة أتى رسم قبر فجلس إليه، فجعل يخاطب ثم قام مستعبرا، فقلنا يا رسول الله، أنا رأينا ما صنعت، قال: إنى استأذنت ربى في زيارة قبر أمى فأذن لى، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لى، فما رئى باكيا أكثر من يومئذ »، وروى ابن أبى حاتم وذكره سنده إلى عبد الله بن مسعود ﵁ قال: «خرج رسول الله ﷺ، يوما إلى المقابر فاتبعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلا، ثم بكى فبكينا لبكائه، ثم قام، فقام إليه عمر بن الخطاب فدعاه، ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم؟ فقلنا: بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذى جلست عنده قبر آمنة، إنى استأذنت ربى في زيارتها فأذن لى »، ثم أورده من وجه آخر ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه، وفيه «وإنى استأذنت ربى في الدعاء لها فلم يأذن لى وأنزل علىَّ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية، فأخذنى ما كان يأخذ الولد للوالد، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة» ثم **قال (ك)** ما معناه، ومن أغرب الأحاديث وأشدها نكاره ما رواه الخطيب البغدادى في كتاب « السابق واللاحق» بسند مجهول، عن عائشة في حديث فيه قصة « أن الله أحيا أمه فآمنت ثم عادت»، وكذلك ما رواه السهيلى في الروض بسند فيه جماعة مجهولون: «إن الله أحيا أباه وأمه فآمنا به»

فصل

قال محمد تقى الدين: - بعث الله نبيه ورسوله سيد ولد آدم محمدا ﷺ، رحمة للعالمين، وأنزل عليه الكتاب والحكمة، فضله على خلقه نعمة منه ورحمة وكرامة لمن آمن به واتبعه، ولم يجعله ملكا يرث الملك من أبيه أو يورثه ذريته أو أقاربه، وقد أخطأ كثير من الناس خطأ فاحشا في فهم هذا المعنى فقاسموا النبى ﷺ على الملوك والأمراء، فتعجبوا واستغربوا أن لا تشمل هذه الرحمة أقرب الناس إليه أباه وأمه وعمه أبا طالب، مع أنه كان للنبى ﷺ كالوالد الرحيم، عندما مات جده عبد المطلب، وكان عمر النبى إذ ذاك عشر سنين، لم يزل يكرمه ويرعاه ويتحمل الشدائد من أجله، لما قاطعه أهل مكة، لم يخذله أبو طالب ومن معه من بنى هاشم، فإن قريشا تعاهدوا وتقاسموا على مقاطعة بنى هاشم وحصارهم، ومنعوا الطعام أن يصل إليهم، فبقى أبو طالب محاصرا في الشعب مدة طويلة، هو ومن معه، يقاسون الجوع

والضيق وعداوة أهل بلدهم إلى أن فرج الله عنهم، فسعى بعض أشراف مكة في تمزيق الصحيفة التى كتبتها قريش حين تعاهدوا على ذلك الجرم الفظيع، ومع ذلك لم تشمله هذه الرحمة التى شملت أهل الأرض ممن آمن بالنبى ﷺ، لأنه أبى أن يؤمن برسالة محمد ﷺ، ولم يكن شاكا في صدقه فإنه قال في شعر له:

والله لن يصلوا إليك بزعمهم حتى اوسد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك مضاضة فلقد صدقت وكنت ثم أمينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتنى سمحا بذلك مبينا

وقد جاءت قصة وفاة أبى طالب في صحيح البخاري وحرص النبى ﷺ على إيمانه وحزنه لما مات كافرا وروى البخاري عن عمرو ابن العاص عن النبى ﷺ أنه قال: « إن آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء إنما ولي الله وصالح المؤمنين، ولكن لهم رحم أبلها ببلاها»، انتهى، فولاية النبى ﷺ لأقاربه إنما جاءت من حيث أنهم من صالحى المؤمنين، لا للقرابة المجردة، فإنها وحدها لا تجعلهم أولياء للنبى ﷺ، وإن وصل رحمهم بالإحسان إليهم، لأن صلة الرحم واجبة مع الأقارب، وإن لن يكونوا مسلمين، وأما ما روى من الحديث، في إحياء الأبوين، وإيمانهما بالنبى ﷺ، فهو باطل، إذ لا يصح في ذلك شيء، ولو فرضنا أنه ثبت في ذلك حديث وتجاوز درجة الوضع والنكارة إلى الضعف، ما ثبت به حكم، ولا استطاع أن يقاوم حديث مسلم، ولا إن يعارضه، وحديث النبى ﷺ، لا ينقض بعضه بعضا، بل ينصر بعضه بعضا، وقد نظم بعضهم في هذا المعنى شعرا فقال:

حبا الله النبى مزيد فضل على فضل وكان به رؤوفا

فأحيا أمه وكذا أباه لإيمان به فضلا منيفا

فسلم فالقدير بذا جدير وإن كان الحديث به ضعيفا

وقال آخر: وهو أشد جهلا من الأول:

أيقنت أن أبا النبى وأمه أحياهما الرب الكريم البارى

حتى له شهدا بصدق رسالة سلم فتلك كرامة المختار

هذا الحديث ومن يقول بضعفه فهو الضعيف عن الحقيقة عارى

وقائل هذا الشعر من أجهل الجاهلين، فإنه أراد أن يعظم النبى ﷺ بتكذبه جميع المحدثين، وكفى بذلك جهلا وضلالاً.

ثم قال (ك) وقال العوفى عن ابن عباس في قوله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية، أن النبى ﷺ أراد أن يستغفر لأمه فنهاه الله عز وجل عن ذلك، فقال أن إبراهيم خليل الله ﷺ قد استغفر لأبيه فأنزل الله: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ الآية، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم، ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا، ثم أنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾ الآية وقال قتادة في الآية ذلكر لنا أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ قالوا يا نبى الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار، ويصل الأرحام، ويفك العانى، ويوفى الذمم، أفلا نستغفر لهم ؟ قال: فقال النبى ﷺ: «بلى والله إنى لأستغفر لأبى كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ حتى بلغ قوله ﴿ الْجَحِيمِ ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾ الآية، قال: وذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال: قد أوحى الله إلى كلمات فدخلن في أذنى ووقرن في قلبى، أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركا، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له، ومن أمسك فهو شر له، ولا يلوم الله على كفاف، وروى ابن جرير عن ابن وكيع عن أبيه عن عصمة بن وائل عن أبيه قال: سمعت أبا هريرة يقول: رحم الله رجلا استغفر لأبى هريرة ولأمه، قلت، ولأبيه: قال لا، قال إن أبى مات مشركا، وقوله: ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وقال ابن عباس وكثير من السلف مثل قتادة والضحاك، ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما تبين له أنه عدو لله، تبرأ منه، وفي رواية، لما مات تبين له أنه عدو لله، وقوله ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال سفيان الثورى عن ابن مسعود، الأواه الدعاء، وقال آخرون، الأواه هو الرحيم.

قال محمد تقى الدين: – وصف الله إبراهيم بالحلم بأنه حلم عن أبيه لما آذاه بقوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (١) واستمر يستغفر له إلى أن مات على الشرك، فترك الاستغفار له، ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ الآية، قال «ج» يقول الله تعالى «وما كان الله ليقضى عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهى عنه فتتركوا، فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهى عنه فلم تضيعوا نهيه إلى ما نهاكم عنه، فإنه لا يحكم عليكم بالضلال، فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهى، وأما من لم يؤمر ولم ينه فغير كائن مطيعا أو عاصيا فيما لم يؤمر به ولم ينه عنه، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ قال «ج» هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين وملوك الكفر وأنهم يثقون بنصر الله مالك السموات والأرض ولم يرهبوا من أعدائه، فإنه لا ولى لهم من دون الله، ولا نصير لهم سواه.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من آيات توحيد الربوبية، فهو سبحانه مالك متصرف في عباده وليس لهم ولى يتولونه فتنفعهم ولايته، ولا نصير يستنصرونه فينصرهم فمن استنصر غير الله ضل وأصابه الخزى في الدنيا والآخرة، ومن استنصر بالله وحده وأطاعه واتبع رسوله ﷺ وحكم شرعه انتصر وعز، ولذلك نرى المسلمين في هذا الزمان ضعفاء أذلاء، لأنهم لم يستنصروا الله وحده، بل طلبوا النصر من غيره، فأذلهم قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ

(١) مريم.

إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ الآيتان: ١١٧ – ١١٨

قال (ك) قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة وحر شديد، وعسر من الزاد والماء قال قتادة، خرجوا إلى الشام عام تبوك في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد فأصابهم فيها جهد شديد حتى ذلكر لنا أن الرجلين كانا يشقان الثمرة بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم، وقال **«ج»** بسنده عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر بن الخطاب خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا، فأصابنا فيه عطش فظننا أن رقابنا ستنقطع، وحتى إن كان الرجل يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر الصديق يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيرا فادع لنا، فقال تحب ذلك ؟ قال نعم، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا فلم نجدها جاوزت العسكر، وقال ابن جرير في قوله **﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾** أى من النفقة والظهر والزاد والماء، **﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾** أى عن الحق ويشك في دين الرسول ﷺ ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم **﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾** يقول ثم رزقوا الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه **﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ ﴾** الآية، **قال (ك)** قال الإمام أحمد بسنده إلى عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فقال كعب بن مالك لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزاة تبوك غير أنى

كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها، وإنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوه على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، إنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط، حين جمعتهما في تلك الغزاة، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيداً، ومفاوز وعددًا كثيرا، جلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم، فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان – قال كعب: فقل رجل يريد ان يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال، وأنا إليها أصعر، فتجهز رسول الله ﷺ والمؤمنون معه فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا، فأقول لنفسى، أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً، وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألقحه، فغدوت بعدما وصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو، فهممت أن أرتحل فألحقهم وليتنى فعلت ثم لم يقدر لى ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذره الله جل وعلا، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب بن مالك » ؟ فقال رجل من بنى سلمة حبسه يا رسول الله برده والنظر إلى عطفيه، فقال معاذ بن جبل بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ قال كعب بن مالك فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضربثى، وطفقت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى، فلما قيل

أن رسول الله ﷺ قد أظل قادما، زاح عنى الباطل، وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبدا، فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى، حتى جئت، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لى: « تعال فجئت أمشى حتى جلست بين يديه، فقال لى ما خلفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهراً ؟ » فقلت يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت، ولكنى والله لقد علمت، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه أنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل، والله ما كان لى عذر، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك، قال: فقال رسول الله ﷺ « أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك، فقمت وقام إلى رجال منة بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت ألا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، قال: فو الله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى، قال: ثم قلت لهم هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، وقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت فمن هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع العامرى، وهلال بن امية الواقفى فذكروا لى رجلين صالحين وقد شهدا بدرا لى فيهما أسوة، قال فمضيت حين ذكروهما لى، فقال ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا إيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسى الأرض، فما هى بالأرض التى كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق، ولا يكلمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسى، أحرك شفيته برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى فإذا التفت نحوه أعرض عنى، حتى إذا طال على

ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى، وأحب الناس إلى، فسلمت عليه، فو الله ما رد على السلام، فقلت له يا أبا قتادة، أنشدك الله، هل تعلم إنى أحب الله ورسوله ؟ قال: فسكت، قال: فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فقال: الله ورسوله أعلم، قال: ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة، يقول، من يدل على كعب بن مالك، قال فطفق الناس يشيرون له إلى، حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا فإذا فيه، أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، وأن الله لم يجعلك في دار هوان، ولا مضعية فالحق بنا نواسك، قال: قلت حين قرأته، وهذا أيضا من البلاء، قال فتيممت به التنور فسجرته به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا برسول الله ﷺ يأتينى يقول يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك قال: فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: اعتزلها، ولا تقربها قال: وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك، قال: فقلت: لامرأتي الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما يشاء، قال فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت، يا رسول الله، إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال: لا ولكن لا يقربك، قالت وأنه والله ما به من حركة إلى شيء، وأنه والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال: فقال لى بعض أهلى لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بنى أمية أن تخدمه، قال: فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذ استأذنته، وأنا رجل شاب، قال فلبثنا عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليله من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صارخا أوفي على جبل سلع يقول بأعلى صوته: أبشرك يا كعب بن مالك، قال فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم، وأولى على الجبل، فكان الصوت

أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى، نزلت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته لى، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أروم رسول الله ﷺ وتلقانى الناس فوجا فوجا يهنؤوننى بتوبة الله، يقولون ليهنئك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد، والناس حوله، فقام إلى طلحه بن عبيد الله يهرول، حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، قال فكان كعب لا ينساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال: وهو يبرق وجهه من السرور، «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قال: قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال « لا، بل من عند الله» قال وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، حتى يعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله، قال: « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» قال: فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر، وقلت يا رسول الله، إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال: والله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى، «قال» وأنزل الله تعالى: ﴿ **لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ إلى آخر الآيات، قال كعب فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام، أعظم في نفسى من صدقى رسول الله ﷺ يومئذ أن لا اكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد، فقال الله تعالى: ﴿ **سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى**

عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [(١)] قال وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين خلفوا، فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ وليس تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا الذى ذكره لما خلفنا تخليفنا عن الغزو، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه، هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته رواه صاحبا الصحيح، البخاري ومسلم من حديث الزهري بنحوه، فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها، وقوله في الحديث: «فسموا رجلين شهدا بدرا، والله أعلم، ولما ذكر الله تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحوا من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أى من سعتها فسدت عليهم المسالك والمذاهب، فلا يهتدون إلى ما يصنعون، فصبروا لأمر الله واستكانوا لأمر الله وثبتوا، حتى فرج الله عنه بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم وأنه كان من غير عذر فعوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم، وتوبة عليهم، ولهذا قال ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ أى اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك ويجعل لكم فرجا من أموركم ومخرجا، وقد أخرج «أ»، «ق» عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا» وقال شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا عبيدة يحدث عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: «الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، اقرؤوا إن شئتم ﴿ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ قل مع محمد ﷺ وأصحابه، وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهما، وقال الحسن البصرى إن أردت أن تكون مع الصادقين، فعليك بالزهد في الدنيا والكف عن أهل الملة.

---

(١) التوبة.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قوله: أقفلهم من غزوتهم أى ردهم سالمين، يقال قفلت من سفرى، أى رجعت، وقوله: الظهر، المراد به ما يركب، وكانت مراكبهم الابل التى يركبونها، وهذا من تسمية الشيء بجزئه، ويسمى مجازاً مرسلاً، وقوله «ما أحب أن لى بها مشهد بدر» معناه لو خيرت بين أن أشهد العقبة وأحرم من بدر أو أن أشهد بدراً وأحرم العقبة، لفضلت بيعة العقبة على غزوة بدر، وقوله ورى بغيرها، معناه كان النبى ﷺ إذا أراد أن يغزو ناحية، كمكة مثلا، يسأل أصحابه عن طريق نجد، حتى يظن الناس أنه يريد التوجه إلى المشرق، وهو يريد التوجه إلى المغرب، خوفا من أن يطلع المنافقون وضعاف الإيمان على الجهة التى يريد غزو أهلها فيبعثوا إليهم من يخبرهم، فهذا معنى التورية وهى في علم البلاغة ذكر لفظ يحتمل معنيين فيذكره الشاعر أو الناثر ويريد أحد المعنيين مثال ذلك قول الشاعر:

خاط لى عمرو قباء ... ليت عينيه سواءا

وكان عمرو المذكور في هذا الشعر أعور فقوله ليت عينيه سواء يحتمل أنه أن يكون مبصرا بالعينين كلتيهما، ويحتمل أن يتمنى له أن تكون العينان عمياوين كلتيهما، ويقول: «فأنا إليها أصعر» معناه أميل من الميل، وهو الحب أى غلب على حب الظلال والثمار وكرهت نفسى أن تتركهما وتخرج إلى القتال والعطش والحر والجوع، وقوله: « بأحسن الوجوه وأبسطها» أبسطها أوسعها كما قال تعالى ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء وَيَقْدِرُ ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ [٢] والجهال من أهل هذا الزمان يعبرون بالأبسط عن الأسهل، وبالبسيط عن السهل أو القليل، ويزيدون على ذلك جهلا فيقولون: بسط الشيء بتشديد السين، بمعنى سهله، ويقولون: قواعد النحو المبسطة، وكل ذلك ضلال، فإن بسط بالتشديد معناه كثرة التوسيع، كقتل وقتل بالتشديد.

---

(١) سبأ.

(٢) البقرة.

قال محمد تقى الدين: – يجب علينا أن نفكر كثيراً في هذا النوع من العقاب الذى عاقب به رسول الله ﷺ هؤلاء الثلاثة فإنه عقاب صارم شديد، ولكن إيمانهم كان قويا، فصبروا حتى فرج الله عنهم ومن عليهم بهذا الشرف العظيم، الذي يذكرون به إلى يوم القيامة، وهناك أمر آخر وهو أهم مما تقدم وهو إحجام كعب بن مالك عن الكذب على النبى ﷺ لما ظهر له من الجلال والهيبة التى أعطيها النبى ﷺ تأييداً من الله تعالى له ومعجزة لا يطمع فيها ملك وإن أعطى سلطانا عظيما وهيبة وكان مرهوب الجانب ولا غرابة في ذلك، فإن نور النبوة له شأن عظيم.

قال محمد تقى الدين: – والشاهد هنا في قوله تعالى ﴿ **حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ** ﴾ أى توجهوا إلى الله تعالى بالدعاء فالتجؤوا إليه لعلمهم أنه لا ينقذهم ولا يغيثهم ولا يكشف عنهم الكرب إلا الله، وفي الصحيح أن النبى ﷺ رغب في الدعاء التالى عند النوم وهو «اللهم أسلمت نفسى إليك، ووجهت وجهى إليك، وفوضت أمرى إليك، وألجأت ظهرى إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت ».

فمن علم وتقين أنه ليس له ملجأ ولا مفر ولا مهرب من المصائب التى تصيبه والأعداء التى تحيط به إلا الله، والتجأ إليه بصدق وإخلاص آواه ونصره ونجاه من كل ما يخاف، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتصفوا بهذا الوصف.

الباب التاسع

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ الآيتان: ١٢٨ – ١٢٩

قال (ك) يقول تعالى ممتنا على المؤمنين بما أرسل إليهم من أنفسهم أى من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [٢] وقال تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أى منكم وبلغتكم كما قال جعفر بن أبى طالب ﷺ للنجاشى، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى، إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته، وذكر الحديث، وقال سفيان بن عيينه عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال لم يصبه شيئ من ولادة الجاهلية، وقال ﷺ خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح، وقد وصل هذا من وجه آخر كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى في كتابه «الفاصل بين الراوى والواعى» بسنده عن على ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ولم يمسنى من سفاح الجاهلية شيئ، وقوله تعالى ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أى يعز عليه الشيئ الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروى من طرق عنه أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وفي الصحيح « أن الدين ليسر» وشريعته كلها سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه، ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم، وقال الطبراني وذكر سنده إلى أبى ذر قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء: إلا وهو يذكر لنا منه علما قال: وقال رسول الله ﷺ ما بقى شيئ يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم » وقوله: ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كقوله ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ [٣] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهى قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أى تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى الله كافى لا إله إلا هو عليه توكلت،

---

(١) البقرة.

(٢) آل عمران.

(٣) الشعراء.

كما قال تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ (١) ﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ أى هو مالك كل شئ، وخالقه لأنه رب العرش العظيم الذى هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش، مقهورين بقدرة الله تعالى، وعلمه محيط بكل شيء وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيئ وكيل.

فصل

قال محمد تقى الدين: - في هاتين الآيتين أخبرنا الله تعالى بأن هذا الرسول الكريم محمدا ﷺ من صميم العرب، فهم أولى الناس باتباعه، والسعادة بما جاء به، وقد كانوا كذلك، ثم ولوا عنه مدبرين، فأصابهم من العذاب في هذه الحياة الدنيا ما لم يصب أمة من الأمم، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون، ولم نزل ندعوهم وندعو غيرهم من المسلمين إلى الرجوع وإلى التمسك بهذا الدين الحنيف الذى سعد به أسلافهم وصاروا هم به أشقياء، ولا يزالون إلى الآن مدبرين، والنكبات تحل بهم يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، وإلى الآن لا يزال أكثرهم مصرا على استبدال الشريعة الإسلامية بحكم الطاغوت، وقد أمرنا الله أن نكفر بالطاغوت، ونؤمن بالله، قال تعالى في سورة النساء ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ وقال تعالى في السورة نفسها ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ اللهم أرنا الحق حقا، وأعنا على اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وأعنا على اجتنابه، الشاهد هنا في قوله تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ امر الله نبيه ﷺ أن يقول حسبى الله، أى الله يكفينى، فلا أحتاج إلى غيره، لا إله إلا هو، لا أصرف شيئا من عبادتى لغيره كائنا من كان، عليه توكلت،

(١) المزمل.

لا أعتمد عليه في جلب الخير ودفع الشر، وقضاء الحاجات وتفريج الكربات إلا عليه، وهذا توحيد العبادة، نسأل الله تعالى أن يديم علينا نعمة التوحيد، وأن يوفقنا للتمسك به، والكون مع أهله والبراءة من الشرك وأهله، أنه سميع مجيب.

سورة يونس

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ الآية ١٢

قال (ك) يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر ﴿ **وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ** ﴾ [(١)] أى كثير وهما في معنى واحد وذلك لأنه إذا أصابته الشدة، قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ودفعها عنه في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته، وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان من ذلك من شيء ﴿ **مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ** ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته، فقال ﴿ **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ** ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه يستثنى من ذلك، قوله تعالى ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ** ﴾ [(٢)] وكقول رسول الله ﷺ «عجبا لامر المؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له وإن أصابته شراء فشكر، كان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمنين».

---

(١) فصلت

(٢) هود.

فصل

قال محمد تقى الدين: – الذي يظهر لى أن المراد بالإنسان هنا الكافر كما قال تعالى في سورة الزمر **﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾** ومثل هذا في القرآن كثير، وسيأتى إن شاء الله، إلا أن المشركين الأولين كانوا إذا مسهم الضر وحدوا الله تعالى، فلم يدعوا غيره، وإذا كانوا في وقت الرخاء أشركوا به، وعبدوا غيره، أما مشركوا هذا الزمان، فإنهم أجهل وأضل، لأنهم مشركون بالله في الشدة وفي الرخاء، ولا يكادون يوحدون الله تعالى، في أى حال، فالحمد لله الذى أنقذنا وأخرجنا من الظلمات إلى النور، نسأله سبحانه أن يديم علينا نعمة، حتى نلقاه غير مبدلين ولا مغيرين ولا فاتنين ولا مفتونين.

الباب الثانى

قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ الآية: ١٨

قال (ك) ينكر الله تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدا، ولهذا قال تعالى: «**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾** **قال (ج)** معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض، ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال **﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾**.

فصل

قال محمد تقى الدين: – في هذا الزمان يعبد المشركون الأنبياء، فالنصارى يعبدون عيسى، وهم نبى ويغلون فيه فيجعلونه هو الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا، والجهال

المنتسبون إلى الإسلام يعبدون بعض الإنبياء، فيستغيثون بالنبى ﷺ فيقولون يا رسول الله، يا محمد، أعطنا وأغثنا، كما قال قائلهم:

يـا رسـول الله يـا بحـر الوفـا　　يـا غيـاث المعتـدى والمهتـدى

إننـى عبـد ضـعيف وجـل　　وذنـوبى مـا لهـا مـن عـدد

فانظر إلى هذا الجاهل المشرك الذى يعقتد أن النبى ﷺ لا يغيث المهتدين فقط، بل يغيث المعتدين، أيضا ثم توجه إلى النبي ﷺ في البيت الثانى يريد منه مغفرة ذنوبه، وهذا جهل عظيم، فإنه لا يغفر الذنوب إلا الله، والنبى ﷺ لا يغيث أحدا لا معتديا ولا مهتديا، وإذا كان يغيث المعتدى فهو إعانة له على الاعتداء، حاشاه من ذلك ويعبدون النبى شيئا، وقد بنوا عليه قبة في الموصل، ويعبدون النبى يحيى وقد نصبوا له تابوتا في وسط مسجد بنى أمية في دمشق ويعبدون ما لا يحصى من الأضرحة والقباب التى بنوها على قوم سموهم أولياء وكثير منها في وسط المساجد أو بقربها، وقد زين لهم الشيطان هذا العمل الذى هو معصية للرسول ﷺ فقد تواتر نهيه عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك، وقد تقدم الكلام في هذا، وقال قائلهم في عبادة الأولياء:

أوليـاء الإلـه إنـى مـريض　　والـدواء لـديكم والشـفاء

انظـروا لى بفضـلكم في علاجـى　　وامنحـونى بجـودكم مـا أشـاء

قال الله تعالى في سورة الشورى ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الآية: ٢١

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ قال مجاهد استهزاء وتكذيب، كقوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ الآية،

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل، أى مطر، ثم قال: « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال أصبح من عبادى عبد مؤمن بى وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحته فذلك مؤمن بى، كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بى، مؤمن بالكوكب، وقوله ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ﴾ أى أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير.

فصل

قال محمد تقى الدين: - إن مشركى هذا الزمان ضربوا بسهم وافر في هذا النوع من الكفر، فإنهم يطلبون إعطاء الأولاد من الأموات والأحياء ممن يسمونهم أولياء، فإذا رزقهم الله ولدا اعتقدوا أن ذلك الولى الذى طلبوه منه، هو الذى أعطاهم ذلك الولد، وازدادوا له خضوعا وخوفا ومحبة وإجلالا وتعظيما وشكرا، فإن كان ميتا ذبحوا الذبائح على قبره، وحمدوه ولهجوا بذكره، والتزموا كل سنة أن يذبحوا ذبيحة على قبره ليحفظ لهم ذلك الولد، وإن كان حيا جعلوا ذلك الولد عبدا له، سواء أكان ذكرا أم أنثى، يودون له مالا في كل سنة ليحفظه لهم، وإذا بلغت الأنثى وأراد التزوج بها أخذها، وإن لم يرد أن يتزوج بها هو ولا أحد أبنائه، أخذ نصف صداقها، وإذا انقطع عنهم المطر، يذهبون إلى قبور أوليائهم ويذبحون الثيران على الأولياء الكبار، والأكباش على الأولياء الصغار، ويتضرعون لهم في طلب المطر، ويقولون وهم حفاة حاسروا الرؤوس، والثور يمشى أمامهم ليذبحوه على القبر:

جئناكم قاصدين لا تردونا خائبين يا أولياء الله الصالحين

وحدثت مرة في مدينة البيض، في جنوب الجزائر أن شابين اقتتلا بالأيدى في مبنى القهوة، وكلاهما يدعى أن أباه ولى، وكان ذلك بعد نزول المطر، فقال أحدهما إن الذى أنزل هذا المطر، هو والدى فقال له الآخر، كذبت، بل الذى أنزله هو والدى، أنا، وكان

لفظهما « جاء والدى بالمطر » وأنا عبرت عنه بالإنزال، والمعنى واحد، والحكايات في هذا المعنى كثيرة، فالله يوفقنا وينجح سعينا في دعوة هؤلاء إلى صراط الله المستقيم ونسأله أن لا يضيع عملنا ويختم لنا بالحسنى.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآيات: ٢٨- ٣٠

قال (ك) يقول تعالى ﴿ **وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ** ﴾ أى أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله ﴿ **وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا** ﴾ [(١)] ﴿ **ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ** ﴾ الآية، أى الزموا أنتم وهم مكانا معينا امتازوا فيه عن مقام المؤمنين كقوله تعالى ﴿ **وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ** ﴾ [(٢)] وقوله ﴿ **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ** ﴾ [(٣)] وفي الآية الأخرى ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** ﴾ [(٤)] يتفرقون وهنا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين، وأوثانهم يوم القيامة ﴿ **مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ** ﴾ الآية، أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله ﴿ **كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ** ﴾ الآية، وقوله ﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ** ﴾ وقوله ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن**

---

(١) الكهف.

(٢) يس.

(٣) الروم.

(٤) الروم

يَدْعُو من دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء ﴾ الآية وقوله في هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم ﴿ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية، أي: ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ولم يأمرهم بذلك، ولا رضى به، ولا أراده، بل تبرأ منهم أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا عبادة الحى القيوم، السميع البصير القادر العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله، وأنزل كتبه آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهيا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [١] وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [٢] وقال ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [٣] والمشركون أنواع، وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد وقوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ﴾ أى في موقف الحساب يوم القيامة، تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير، وشر كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [٤] وقال تعالى: ﴿ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [٥] وقال تعالى: ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [٦] وقوله: ﴿ وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى ورجعت الأمور كلها

(١) النحل.

(٢) الأنبياء.

(٣) الزخرف.

(٤) الطارق.

(٥) القيامة.

(٦) الإسراء.

إلى الله الحكم العدل ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

فصل

قال محمد تقى الدين: – في هذه الآيات أوضح الأدلة على أن من عبد غير الله تعالى من الأنبياء والصالحين وغيرهم لا يشعر المعبودون بعبادة العابدين، ولا يعلمونها، إذ لا يعلم الغيب إلا الله، وحين يعرف هؤلاء المعبودون يوم القيامة أن أولئك المشركين كانوا يعبدونهم حين يجمعهم الله تعالى ويحشرهم جميعا العابدين والمعبودين يتبرأ المعبودون من عبادة العابدين ويقولون لهم تصريحا ﴿ مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴾ [1] وبيان ذلك أن المعبود، أما أن يكون من العقلاء، فهو مشغول بما هو فيه من نعيم الجنة وكرامة الله تعالى، إن كان من الصالحين، أو بعذاب الله تعالى، إن كان من الطالحين، فلا يعلم شيئا من عبادة العابدين له، ولو علم ذلك لأنكره وتبرأ إلى الله منه فما أخسر صفقة المشركين الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، فنعوذ بالله من الخسران، فيا أيها القوم الذين أضلتهم الشياطين، وزينت لهم عبادة غير الله توبوا إلى بارئكم وارجعوا إلى ربكم، ووحدوه توحيدا تاما ما دامت الفرصة سانحة لكم، فإنها لن تدوم، فإنكم لا تعلمون في أى وقت يأتيكم الموت ويحول بينكم وبين التوبة، اللهم أدم علينا نعمة التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد اتباع كتابك، وهدى نبيك محمد ﷺ إلى أن نموت، وأنت عنا راض، والحمد لله رب العالمين.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا

---

(١) يونس.

ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الآيات: ٣١ – ٣٥

قال (ك) يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الألوهية فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿ حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ (١)، ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ (٢) وقوله ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ (٣) الآية وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ ﴾ (٤) الآية.

وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وأن الآية عامة لذلك كله، قوله ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٥) فالملك كله العلوى والسفلى وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه عبيد له وخاضعون له،

(١) عبس.

(٢) الملك

(٣) الملك.

(٤) الأنعام

(٥) الرحمن

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ أي هم يعلمون ذلك ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم، وقوله ﴿ فَذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ الآية، أي فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ ﴾ أي فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو واحد لا شريك له: ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شيء، والمتصرف في كل شيء وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ ﴾ الآية، أى كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده الذى بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [١].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللّهُ ﴾ الآية، وهذا إبطال لدعواهم فيما اشركوا بالله غيره، ومن عبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه ﴾ أى من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض، ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقا جديدا ﴿ قُلِ اللّهُ ﴾ هو الذى يفعل هذا ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾ أى أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدى الحيارى والضلال ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد الله الذى لا إله إلا هو، ﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى ﴾ أى أفيتبع العبد الذى يهدى إلى الحق ويبصر بعد العمى أم الذى لا يهدى إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه كما قال تعالى، إخبارا عن إبراهيم أنه قال: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [٢]

---

(١) غافر.

(٢) مريم.

وقال لقومه ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [1] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله ﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى: ما بالكم أين يذهب بعقولكم ؟ كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة، ثم يبين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلا ولا برهانا، وإنما هو ظن منهم أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئاً، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد، لأنه تعالى أخبر أنه: سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

فصل

قال محمد تقى الدين: - ذكر الله سبحانه وتعالى في توحيد ربوبيته أموراً، الأول أنه هو الذى يرزق الناس والبهائم والطير وكل حى، والثانى: أنه هو الذى يملك السمع والبصر وسائر القوى التى وهبها خلقه، الثالث: أنه هو الذى يخرج الحى من الميت والميت من الحى، **قال (ك)** أى يخرج الزرع من الحب والحب من الزرع والنخلة من النواة والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء، الرابع: أنه سبحانه هو الذى يريد جميع الأمور، الخامس: أن الله سبحانه وتعالى نفى أن يكون أحد من الشركاء لا عيسى ولا الملائكة ولا غيرهم يستطيع أن يبدأ الخلق ثم يعيده، وصدقه في ذلك جميع المؤمنين وجميع المشركين الذين قاتلهم النبى ﷺ اعترفوا بأن شركاءهم عاجزون عن الخلق في البدء والإعادة، والأمر السادس: أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه هو الهادى وحده إلى الحق وغيره لا يهدى إلى شئ بل غيره محتاج إلى هداية الله تعالى وإن علا منصبه وارتفعت درجته كالملائكة والأنبياء، فهم مهديون بهداية الله ولا يملكون لغيرهم من الهداية شيئاً، وصدقه في ذلك المؤمنون والمشركون، إلا أن المشركين في هذا الزمان ينازعون في توحيد الربوبية أيضاً، فيزعمون أن شركاءهم من الشيوخ أحياء وأمواتا، يتصرفون في العالم بالرزق وهداية القلوب وقد كفروا بالله تعالى،

---

(١) الصافات.

وبهذه الآية وغيرها، وكذبوا جميع الرسل، والمؤمنون من جميع الأمم، بل كل عاقل وإن لم يكن مؤمنا يكذبهم ويعلم أن الذى أوجد الخلق من العدم، وحفظ عليهم وجودهم بالإمداد، وهو الذى يميتهم عند انقضاء آجالهم وهو الذى يبعثهم للجزاء هو وحده المتصرف في جميع خلقه، وليس لغيره تصرف، سبحانه وتعالى عما يشركون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ الآية: ٤٩

قال محمد تقى الدين: – في هذه الآية الكريمة أمر من الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يخبر جميع الناس أنه لا يملك لنفسه فكيف لغيره ضرا ولا نفعا، ولكن ما شاء الله كان من الضر والنفع وما لم يشأ لم يكن، فهو مالك الملك، المتصرف في عباده، وإذا كان أفضل خلق الله وأكرمهم على الله لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا بطل كل ما بناه المشركون على شفا جرف هار من تصرف الأولياء في الدنيا والآخرة.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الآيات: ٦٢- ٦٦

قال (ك) يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا ﴿ **لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ أى: فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿ **وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ على ما وراءهم في الدنيا، وقال عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله، وقد ورد هذا في حديث مرفوع كما قال البزار بسنده إلى ابن عباس قال: قال رجل: « يا رسول الله من أولياء الله؟ قال الذين إذا رؤوا ذكر الله » ثم ذكر **(ك)** حديثا عن النبى ﷺ ورواه أئمة الحديث عن أبى الدرداء وعبادة بن الصامت وغيرهما « أن النبى ﷺ فسر قوله تعالى: ﴿ **لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ بأن البشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن أو ترى له، وفي الآخرة هى الجنة »، وبذلك فسرها جماعة من السلف، وقوله ﴿ **لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ** ﴾ أى: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ **ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾، ﴿ **وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا** ﴾ الآية، يقول تعالى: لرسوله ﷺ ﴿ **وَلاَ يَحْزُنكَ** ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه، فإن العزة لله جميعا، أى: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، العليم بأحوالهم، ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهى لا تملك شيئا لا ضرا ولا نفعاً، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

فصل

قال محمد تقى الدين: – المشركون يعبدون أشياء كثيرة ولا تقتصر عبادتهم على الأصنام فقط، والأصنام إنما يعبدونها لاعتقادهم أن أرواحا متعلقة بها، هى التى تقضى حاجاتهم، وتحفظهم وتدفع عنهم الشر، وفي بعض الأوثان مقادير من الذهب غالية الثمن، كما في الوثن الذى في كربلاء بالعراق، وفي الوثن الذى في النجف، وفى غيرهما في بلدان مختلفة، مع أن المشركين هم الذين بنوا بأيديهم تلك القباب المذهبة على قبور الصالحين وغير الصالحين، فلو أنهم يعتقدون أن تلك القباب ليس فيها إلا اللبن والجص وتابوت الخشب على القبر والتحف المعلقة، ما عبدوها، ولكنهم يعتقدون أن روح المقبور لها قوة عظيمة،

وإنها فرحت بتلك القبة والتابوت، والزائرين لها والطائفين بالتابوت والمتمسحين والمقبلين والمستغيثين والذابحين والناذرين والواضعين الدراهم في التابوت ليأخذها السدنة، فهي لذلك متلبسة بالقبة، وقد يأتي سيل عظيم فيجرف القبة والقبر والتابوت، ويترك المكان قاعا صفصفا، فلا يعتبرون بذلك ولا يفكرون في أنفسهم أن ذلك الولى كما يسمونه لو كان يقدر على جلب خير أو رفع ضر لحمى قبته ودفع عنها السيل الذى هدمها، وإذا كان عاجزا عن حماية قبته فهو عن قضاء حاجة عباده أشد عجزاً، ولكن المشركين لا يعقلون.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ الآيات: ٧١-٧٣

قال (ك)، يقول تعالى لنبيه صلوات الله عليه وسلامه، ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ** ﴾ أي، أخبرهم واقصص عليهم، أي، على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿ **نَبَأَ نُوحٍ** ﴾ أي، خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿ **إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم** ﴾ أي، عظم عليكم ﴿ **مَّقَامِي** ﴾ أي، فيكم بين أظهركم ﴿ **وَتَذْكِيرِي** ﴾ إياكم ﴿ **بِآيَاتِ اللَّهِ** ﴾ أي، بحججه وبراهينه ﴿ **فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ أي، فإني لا أبالي ولا أكف عنكم، سواء عظم عليكم أم لا، ﴿ **فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ** ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ **ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً** ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم

ملتبسا، بل افصلوا حالكم معى فإن كنتم تزعمون إنكم محقون ﴿ ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ أى ولا تتأخروا ساعة واحدة أى مهما قدرتم فافعلوا فإنى لا أباليكم ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [1] الآية، وقوله ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أى كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴾ أى لم أطلب منكم على نصحى إياكم شيئا ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، كما قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [2] قال ابن عباس سبيلا وسنة فهذا نوح يقول ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وقال تعالى في إبراهيم الخليل ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [3] وقال يوسف ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [4] وقال موسى: ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [5] وقال السحرة: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [6] وقالت بلقيس ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [7] وقال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ ﴾ [8] وقال تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ

---

(١) هود.

(٢) المائدة.

(٣) البقرة.

(٤) يوسف.

(٥) يونس.

(٦) الأعراف.

(٧) النمل.

(٨) المائدة.

بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (١) وقال خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) أي من هذه الأمة، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات وديننا واحد» أي هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله «أولاد علات» وهم الأخوة من أمهات شتى، والرب واحد، وقوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ ﴾ أي على دينه ﴿ فِي الْفُلْكِ ﴾ وهي السفينة ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ﴾ أي في الأرض ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ أي يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

فصل

قال محمد تقى الدين: – في هذه الآيات فوائد: الأولى: أن الرسل قاسوا الشدائد في دعوة أممهم إلى توحيد الله والتمسك بالشريعة، فقد قابل هذه الدعوة أقوامهم بالتكذيب والاستهزاء وضروب الأذى، فصبر الرسل على ذلك، ولم يزحزحهم ما لقوا من أممهم قيد شعرة عن الدعوة إلى الله، ولم يخافوا وعيد قومهم، لأنهم وهبوا أنفسهم لله وأعظمهم صبرا وجهادا، سيد البشر محمد ﷺ ومن درس سيرته الطيبة الكريمة، رأى العجب العجاب من ذلك وقد امتثل أمر ربه سبحانه إذ قال له في سورة الأحقاف: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكذلك فعل أصحابه والتابعون لهم بإحسان، وكذلك فعل أيضا اتباع الرسل من قبل قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ ﴾ وفي رواية نافع قتل بضم القاف وكسر التاء ﴿ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ وقد فسر علماء السلف المربيين بالمجموع وقد فسروه بالعلماء الأتقياء، قلت: والربى في اللغة العبرانية: هو الفقيه العالم التقى، والوهن

---

(١) المائدة.

(٢) الأنعام.

الضعف، والاستكانة التذلل، فهكذا ينبغى لمن يتبع الرسول ويدعو إلى اتباعه أن يكون كما قال نوح ﴿ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾ أى كرهتم إقامتى بينكم ودعوتى لكم إلى سبيل الله، فأنا لا أخضع لكم ولا أتذلل ولا أضعف ولا أتبع أهواءكم بل أصبر واستمر على إعلان الحق، أحببتم أم كرهتم، وأنا متوكل على الله الذى بيده حياتى وموتى ونفعى وضرى فأفعلوا ما بدا لكم من الأذى، ولا تبقونى ساعة واحدة إن قدرتم على ذلك، **الفائدة الثانية:** أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم لا يسألون على الدعوة على تعليم الناس وإرشادهم، فإن ذلك يتنافى مع الإخلاص في الدعوة فإنهم إذا أخذوا أجرًا من المدعوين لابد أن يخضعوا لهم وأن يخافوهم والمدعوون أنفسهم إذا كانوا يعطون الداعى أجرا يرون لأنفسهم فضلا عليه وينقص قدره عندهم أو يزول، فإن قلت نحن نرى شيوخ الطرائق كلا على أتباعهم فأتباعهم يخدمونهم ويبذلون أنفسهم وأموالهم، ومع ذلك يعظمونه غاية التعظيم، وهذا يبطل ما ادعيته – أقول على رسلك فرق كبير بين دعوة اتباع الرسل ودعوة شيوخ الطرائق، فشيوخ الطرائق يوهمون أتباعهم أنهم ينفعونهم ويضرونهم إن شاؤوا، وأن كل ما عند إتباعهم من الأرزاق والنعم هم الذين منحوهم إياه، زد على ذلك أن شيوخ الطرائق يتبعون أهواء المدعوين فيقولون لهم ما دمتم مخلصين في خدمتنا فافعلوا ما شئتم من المعاصى، تغفر لكم ذنوبكم، وتكونون من أولياء الله الصالحين، ولا تذوقون سكرات الموت، ولا تسألون في قبوركم وتحملكم الملائكة على كواهلها فتمر بكم على الصراط أسرع من لمح البصر، وتدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب في الزمرة الأولى، وتكونون في الفردوس مع النبى ﷺ وأصحابه، انظر كتابى «الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية » فلا غرابة إذا عبدوهم وبذلوا أموالهم وأنفسهم. **الفائدة الثالثة:** أن الله تعالى أخبر بأنه أنجى رسله والذين آمنوا معهم حين حقت كلمة العذاب على الكافرين من أتباعهم، قال تعالى في سورة يونس في أواخرها: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وكذلك ينجى سبحانه وتعالى من دعا إلى كتابه القرآن، وسنه رسوله محمد ﷺ من مكر المشركين، ويجعل لهم فرجا ومخرجا من كل شدة وكربة، ويخذل أعداءهم، وهذا مجرب لا شك فيه.

الباب التاسع

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦ ﴾ الآيات: ٨٤- ٨٦

قال (ك) يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل، ﴿ **وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ أى فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [(١)] ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [(٢)] وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل كقوله تعالى ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [(٣)] ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [(٤)] ﴿ **رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً** ﴾ [(٥)] وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [(٦)] وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا ﴿ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى لا تظفرهم بنا وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم سلطوا لأنهم على الحق، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روى عن أبى مجلز وأبى الضحى، وقال ابن نجيح وغيره عن مجاهد لا تعذبنا بأيدى آل فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرحون لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا، ﴿ **رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ قوله ﴿ **وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ** ﴾ أى خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿ **مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ أى الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

---

(١) الزمر.
(٢) الطلاق.
(٣) هود.
(٤) الملك.
(٥) المزمل.
(٦) الفاتحة.

فصل

قال محمد تقى الدين: هذا الذى خافه قوم موسى وسأل الله أن يحفظهم منه وقع فيه المدعون للإسلام في هذا الزمان، فقد صاروا فتنة للقوم الظالمين، ولم ينجوا من شر القوم الكافرين لأنهم انهمكوا في المعاصى وتركوا طاعة الله تعالى ولم يتبعوا كتابه ولا سنة رسوله ولم يوالوا أولياءه ولا عادوا أعداءه، فنعوذ بالله من الخذلان، فقد صار أعداء الإسلام يقولون فيهم، لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا الذل، ولا وقع بينهم الشقاق والنزاع، ولا صار بأسهم بينهم فتراهم على كثرتهم غثاء كغثاء السيل، لا يسرون صديقا ولا يغيظون عدوا.

الباب العاشر

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الآيات: ١٠٤- ١٠٩

قال (ك) يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي** ﴾ صحة ما جئتكم به الدين الحنيف الذى أوحاه الله إلى فأنا ﴿ **فَلاَ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ**

من دُونِ اللَّهِ وَلَـكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ﴾ وحده لا شريك له، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم فإن كانت آلهتكم التى تدعون من دون الله حقا، فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني، فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذى بيده النفع والضر، هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وقوله: ﴿ **وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا** ﴾ الآية أى أخلص العبادة لله وحده حنيفا، أى منحرفا عن الشرك، ولهذا قال: ﴿ **وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ وهو معطوف على قوله: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ وقوله: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ** ﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له، روى الحافظ ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » ثم رواه من طريق الليث عن أبى هريرة مرفوعا بمثله سواء، وقوله: ﴿ **وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ أى لمن تاب إليه وتوكل عليه ولو من أى ذنب كان حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه، ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ** ﴾ الآية، يقول تعالى آمرا لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند الله هو الحق الذى لا مرية فيه، ولا شك فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿ **وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ** ﴾ أى وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى، وقوله: ﴿ **وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ** ﴾ أى تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ **حَتَّىَ يَحْكُمَ اللَّهُ** ﴾ أى يفتح بينك وبينهم ﴿ **وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ** ﴾ أى خير الفاتحين بعدله وحكمته.

فصل

قال محمد تقى الدين: يجب على كل داع أن يتأمل هذه الآيات ويفكر فيها طويلا ويعمل بها، فإنه لا بد أن يلقى من المدعوين شيئا مما لقيه الداعى الأول ﷺ ويقول كما قال القدوة

العظمى، ﴿ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ يا أيها المدعوون من صحة توحيد الله تعالى في عبادته فلا تطمعوا أبدا إن أوافقكم على شركم بالله، سواء أعبدتم الملائكة أم الشياطين وسواء أعبدتم الأنبياء والصالحين، أو قبورهم أو تماثيلهم أو المواضع التى كانوا فيها، فإننى لا أوافقكم على شيء من ذلكم، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، لأنه وحده هو الذى يستحق العبادة، فهو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور، وأولئكم الذين تعبدونهم عاجزون عن كل شيء، مخلوقون محتاجون إلى الله، وقد أمرنا الله تعالى كما أمر رسوله محمدا ﷺ أن نكون من المؤمنين بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم، وأوله توحيد الله تعالى في ربوبيته وعبادته وأسمائه وصفاته، وإتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ وأمرنا أن نقيم وجوهنا لهذا الدين حنفاء لا نشرك بالله شيئاً، وأمرنا أن ندعو الله وحده لجلب الخير ودفع الشر، ولا ندعو من دونه أحدا، لأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، ومن يدع غير الله لحاجة فهو من الظالمين المشركين إذا أصابنا ضر علمنا أنه لا يكشفه إلا الله، فدعوناه وتضرعنا له وإن أصابنا خير علمنا أنه من الله وحده، ولا يستطيع أحد أن يمنعنا منه فرجاؤنا كله من الله، وخوفنا كله من الله، لا نخاف غيره أن يصيبنا بضر، كالمرض والموت وتضييق الرزق وتعسر قضاء الحاجات وغير ذلك، ونعلم أن ما جاء به رسولنا خاتم النبيين هو الحق، لا نزيد عليه شيئا ولا ننقص منه شيئا، وإن حاربتمونا سألنا النصر عليكم من الله، وصبرنا حتى يحكم الله بيننا وبينكم، وهو خير الحاكمين.

سورة هود

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ ﴾ الآيتان: ١-٢

قال (ك) قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هنا، وبالله التوفيق، وأما قوله: ﴿ **أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ** ﴾ أى هى محكمة في لفظها مفصلة في معناها، فهو كامل صورة ومعنى، هذا معنى ما روى عن مجاهد وقتادة واختاره

ابن جرير، ومعنى قوله: ﴿ من لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ أى من عند الله الحكيم في أقواله وأحكامه خبير بعواقب الأمور، ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ ﴾ أى نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [1] وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ أى إنى لكم نذير من العذاب أن خالفتموه وبشير بالثواب إن أطعتموه، كما جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب، فاجتمعوا فقال « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ؟ فقالوا ما جربنا عليك كذبا، قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

فصل

قال محمد تقى الدين: اختلف العلماء في الحروف التى بدئت بها بعض السور نحو الم، الر، فاختار بعضهم تفويض معناها إلى الله تعالى، إذ لم يرد في تفسيرها شيء عن النبى ﷺ ولا تتعلق بها أحكام وبعضهم اعتبرها تحديا للمشركين المكذبين، فكأنه يقول لهم إن زعمتم أن محمدا جاء بهذا القرآن من عنده فكلماته من حروف المعجم كالألف واللام والميم والراء والصاد والحاء والقاف، فركبوا أنتم كلمات وجملا وسورا تشبه القرآن في لفظه ومعناه، فأنتم عرب فصحاء، فكيف عجزتم أن تأتوا بأقصر سورة مثله. واستدلوا لهذا الرأى بأن القرآن يذكر بعد تلك الحروف في أكثر الفواتح، كالبقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، إلى آخرها وهو رأى معقول والله أعلم، ودلالة الآية الثانية على إفراد الله تعالى بالعبادة وأن النبى ﷺ نذير لكل من أشرك به، بالعذاب المهين في الدنيا والآخرة، وبشير لكل من وحده التوحيد الكامل بالسعادة في الدنيا والآخرة.

---

(١) الأنبياء.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ الآيات: ٣١-٣٤

قال (ك) يخبرهم أنه رسول من الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له بإذن الله لـه في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل هو يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله، ولا يعلـم مـن الغيـب إلا مـا اطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هـو بشـر مرسـل، مؤيـد بـالمعجزات، ولا أقول في هؤلاء الذين تحقرونهم وتزدرونهم أنهم لـيس لهـم عنـد الله ثـواب علـى أعمـالهم، **﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾** فإن كانوا مؤمنين باطنا كما هو الظاهر من حالهم فلـهم جـزاء الحسنى ولو قطع لهم أحد بشر «هكذا» بعد ما آمنوا لكـان ظالمـا قـائلا مـا لا علـم لـه بـه، **﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾** الآية، يقول تعالى مخبرا عن استعجال قـوم نـوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكـل بـالمنطق، **﴿ قَالُواْ يَا نُوحُ قَـدْ جَادَلْتَنَـا فَـأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ﴾** أى حاجحتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك **﴿ فَأْتَنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾** أى مـن النقمـة والعذاب، ادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به **﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِـهِ اللَّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾** أى إنما الذى يعاقبكم ويعجلـها لكـم الله الـذى لا يعجـزه شيئ، **﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾** أى شيء يجدى عليكم إبلاغى وإنـذارى إيـاكم ونصـحى، **﴿ إِن كَـانَ اللَّـهُ يُرِيـدُ أَن يُغْـوِيَكُمْ ﴾**

أي إغوائكم ودماركم ﴿ **هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ أى هو مالك أزمة الأمور المتصرف الحاكم العادل الذى لا يجور له الخلق، وله الأمر وهو المبدئ المعيد مالك الدنيا والآخرة.

فصل

قال محمد تقى الدين: تقدم في سورة الأنعام إن الله أمر سيد الخلق محمداً ﷺ أن يقول مثل هذا الكلام، وهو ثلاثة أمور، ﴿ **لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ** ﴾ يعنى إننى فقير إلى الله كسائر الناس، كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ﴾ ولذلك لا يجوز لأحد أن يسأل النبى ﷺ شيئا من خير الدنيا والآخرة، ولا دفع ضر أو عذاب ولكنه يتوسل إلى الله تعالى بمحبة النبى وأتباعه فإنهما من أعظم الوسائل، «الأمر الثاني» أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، وإنما يعلم منه ما علمه الله تعالى، «الأمر الثالث» حاجته إلى ما يحتاج إليه البشر من أكل وشرب واستراحة ونوم، وليس كالملائكة الذين يستغنون عن ذلك، فالقدرة الكاملة، والعلم الكامل، والغنى المطلق كل هذه خاصة بالله تعالى، فأنت ترى أن الإثنين من أولى العزم وهما محمد ونوح أى أولهم وآخرهم تبرأ بأمر من الله تعالى من الصفات الثلاث المذكورة، فما أجهل المشركين الذين يتعلقون بالمخلوق ويتركون الخالق.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الآيات: ٤٥ – ٤٧

قال (ك) هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذى غرق ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى و ﴿ وَعْدَكَ الْحَقُّ ﴾ الذى لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح أنه ليس من أهلك أى الذين وعدت بإنجائهم لأنى إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال ﴿ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبى الله نوحا عليه السلام، وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب في تفسير هذا إلى أنه ليس بابنه، وإنما كان ابن زنية ويحكى القول بأنه ليس بابنه وإنما كان ابن امرأته عن مجاهد والحسن وعبيد بن عمير وأبى جعفر الباقر وابن جريج واحتج بعضهم بقوله ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ وبقوله ﴿ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [(١)] فممن قاله الحسن البصرى، احتج بهاتين الآيتين، وبعضهم يقول ابن امرأته وهذا يحتمل أن يكون أراد الحسن أو أراد أنه نسب إليه مجازاً لكونه كان ربيبا عنده، فالله أعلم، وقال ابن عباس وغير واحد من السلف، ما زنت امرأة نبى قط قال وقوله: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ أى الذين وعدتك نجاتهم، وقول ابن عباس في هذا هو الحق الذى لا محيد عنه، فإن الله تعالى أغير من أن يمكن من امرأة نبى هذه الفاحشة، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبى ﷺ وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا وأشاعوه، ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُو بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [(٢)] قال الجمل في حاشيته على الجلالين عند قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ ما نصه « يعنى قال تعالى يا نوح أنه يعنى هذا الابن الذى سألتنى نجاته ليس من أهلك، اختلف علماء التفسير هل كان هذا الولد ابن نوح لصلبه أم لا ؟ فقال الحسن ومجاهد كان ولد حنث من غير نوح، ولدته زوجته على فراشه، ولم يعلم به، فلذلك قال الله ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ قال محمد بن جعفر الباقر كان ابن امرأة

---

(١) التحريم.

(٢) النور.

نوح وكان يعلمه نوح، ولذلك قال من أهلى، ولم يقل منى، وقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك وأكثر المفسرين إنه ابن نوح من صلبه، وهذا القول هو الصحيح، والقولان: الأولان ضعيفان، بل باطلان، يدل على صحة قول الجمهور ما صح عن ابن عباس أنه ما بغت امراة نبى قط، ولأن الله تعالى نص عليه بقول: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ ونوح أيضا نص عليه بقوله ﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ﴾ وهذا نص في الدلالة، وصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز من غير ضرورة لا يجوز، وإنما خالف هذا الظاهر من خالفه لأنه استبعد أن يكون ولد نبى كافرا، وهذا خطأ ممن قاله، لأن الله تعالى خلق خلقه فريق في الجنة، وهم المؤمنون وفريق في السعير، وهم الكفار، والله تعالى يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء وغيرهم، فإن الله أخرج قابيل من صلب آدم، وهو نبى، وكان قابيل كافرا، وأخرج إبراهيم عليه السلام وهو نبى من صلب آزر وكان كافراً وكذلك أخرج كنعان وهو كافر من صلب نوح وهو نبى فهو المتصرف في خلقه كيف شاء.

فصل

قال محمد تقى الدين: في هذا الكلام فوائد، اذكر بعضها: الأولى: يظهر لى أن نوحا سأل الله نجاة ابنه كنعان قبل أن يغرق، كما قاله الجمل، وكما قال الحافظ ابن كثير، أن السؤال سؤال استعلام، وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذى غرق ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ أى وقد وعدتنى بنجاة أهلى، ووعدك الحق الذى لا يخلف، فكيف غرق، وأنت أحكم الحاكمين ؟ الثانية: تأمل كلام الجمل، فإنه نفيس جدا، يبطل اعتماد الجاهلين على النسب، وقد ضل في هذا الباب خلق كثير، فاعتقدوا أن كل من كانت له علاقة بنبى أو صالح لا يعذب في الدنيا ولا في الآخرة، لأنه متعلق بحبيب من أحباء الله تعالى، والله لا يعذب بزعمهم من تعلق بأحد المحبوبين عنده، أو تعلق به أحد المحبوبين، كنوح وفي ذلك يقول مخاطبا النبى ﷺ:

ألم يرضك الرحمن في سورة الضحى ... وحاشاك أن ترضى وفينا معذب

وهذا من أجهل الجاهلين، فإن لازمه أن لا يدخل النار أحد من أمة الإجابة، وقد تواترت الأخبار بأن بعض هذه الأمة المحمدية من الذين ماتوا مصرين على الكبائر يدخلون النار، ثم يخرجون منها بشفاعة النبى ﷺ، ومن أجل ذلك اخترع بعضهم حديث إحياء الأبوين، وإيمانهما بالنبى ﷺ ثم إماتتهما وردوا بذلك الحديث الصحيح الذى رواه مسلم، وهو قول النبى ﷺ للرجل الذى سأله أين أبى ؟ «إن أبى وأباك في النار» وردوا بذلك الحديث الصحيح الذى رواه «أ» و «ج» وابن أبى حاتم، أن النبى ﷺ مر بقبر أمه فاستأذن الله أن يزوره فإذن له ثم استأذن أن يستغفر لها، فلم يأذن له فبكى وأبكى من حوله، وإنما قاس هؤلاء النبوة والصديقية والصلاح على الملك القصيرى أو الكسروى، فقالوا بجهلهم، كيف يعذب ابن الملك أو أب الملك أو صديق الملك، وما علموا أن بين النبوة والملك بعد ما بين السماء والأرض، فالنبوة اختيار الله تعالى لبعض خلقه، وإنزال الوحى. عليهم لتبليغ رسالته، فلا يلزم من ذلك أن يكون كل من تعلق بهم بنسب أو سبب مختاراً، والأدلة على هذا كثيرة منها: قول النبى ﷺ لفاطمة عليها السلام: « سلينى من مالى ما شئت وأنقذى نفسك من النار لا أغنى عنك من الله شيئا » ومنها قوله عليه السلام في آخر حديث أبى هريرة الذى رواه مسلم « ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وليت شعرى إذا عظم على هؤالاء الجهال أن يعذب الأبوان، فلماذا لم يخترعوا حديثا لنجاة عبد المطلب وهو جد النبى ﷺ والجد أب، كما قال أبو بكر الصديق ﷺ وهو في النار، بدليل قول أبى طالب عند موته هو على دين عبد المطلب، فمات كافراً، ولكن كل من نبذ الكتاب والسنة واتبع هواه يقع في أودية الضلال، ومن أعجب العجب أن بعض شرار الدواب زعم أن بول أهل البيت طاهر لقوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

الثالثة، قد أحسن من نزه أنبياء الله أن تقع أى فاحشة من نسائهم مع كفر بعضهن.

الباب الرابع

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ الآيات: ٥٠- ٥٨

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا** ﴾ آمرا لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ناهيا لهم عن الأوثان التى افتروها واختلقوا لها أسماء الآلهة، وأخبرهم أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ، إنما يبغى ثوابه من الله الذى فطره ﴿ **أَفَلاَ تَعْقِلُونَ** ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة، ثم أمرهم بالاستغفار الذى فيه تكفير الذنوب السالفة، وبالتوبة عما يستقبلون، ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه، وسهل عليه أمره، وحفظ شأنه، ولهذا قال ﴿ **يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا** ﴾ [1]

---

(١) نوح.

وفي الحديث من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب، ﴿ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي...... ﴾ الآية، يخبر تعالى إنهم قالوا لنبيهم ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى بحجة وبرهان على ما تدعيه، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ أى بمجرد قولك اتركوهم نتركهم، ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ بمصدقين ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ ﴾ يقولون ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتنا وعيبك لها، ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ ﴾ يقول إنى برئ من جميع الأنداد والأصنام، ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وآلهتكم إن كانت حقا ﴿ ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴾ أى طرفة عين وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أى تحت قهره وسلطانه وهو الحاكم العادل الذى لا يجور في حكمه فإنه ﴿ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر، بل هى جماد لا تسمع ولا تبصر ولا توالى ولا تعادى، وإنما يستحق إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له الذى بيده الملك، وله التصرف، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه، فلا إله إلا هو، ولا رب سواه، ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ الآية، يقول لهم هو ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له ﴿ فَقَدْ ﴾ قامت عليه الحجة بإبلاغى إياكم رسالة الله التى بعثنى بها، ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يعبدونه وحده لا يشركون به ولا يبالى بكم، فإنكم لا تضرونه بكفركم بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى مشاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ويجزيهم عليها إن خيراً فخير وإن شرا فشر، ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا ﴾ وهو الريح العقيم، فأهلكهم الله عن آخرهم، ونجى هودا وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه.

فصل

قال محمد تقى الدين: – أفكار المشركين وأقوالهم متشابهة في كل زمان ومكان،

فهكذا يقول عباد الأوثان في هذا الزمان، كيف نترك الاحتفال بقبة الشيخ فلان التى وجدنا عليها آبائنا وأسلافنا، ولم يزل العلماء يوافقوننا على عبادتها، بالذبح والنذر والتمسح والطواف والتقبيل، وهم كانوا أعلم منك ولا تعرف أنت عشر معشار علمهم، فهذا علم جديد، ودينم جديد جئتنا به، وسيضربك المدفونون في تلك القباب ضربة تردك إلى صوابك، ويحسن هنا أن أذكر حكاية عجيبة ذكرها الشعرانى في الطبقات الكبرى، وهى أن الاحتفال بموسم أحمد البدوى المدفون في طنطا يختلط فيه الرجال والنساء، ويقع الزنا بينهم فتصدى أحد العلماء للإنكار عليهم، فلما رجع إلى بيته قدم له الطعام، وكان فيه سمك، فوقف له عظم صغير في حلقه لا يصعد ولا يهبط، وبقى كذلك سنتين، وكان القيح والصديد يخرج من فمه، ولا يتغذى إلا باللبن «الحليب»، وبعد مضى سنتين في ذلك العذاب تذكر أنه أنكر على المشتغلين في موسم أحمد البدوى، وخطر بباله أن أحمد البدوى انتقم منه لإنكاره على المحتفلين بموسمه ما يأتونه من الفاحشة، فندم وتاب في باطنه فرضى عنه البدوى وقبل توبته فسقط صبى له من مكان عال إلى أسفل، ففزع وصاح صيحة شديدة فخرج العظم من فمه وشفى في الحال. يريد الشعراني بهذه الحكاية أن يخوف العلماء من سطوة أرواح المقبورين حتى لا ينكروا على الفساق ما يفعلونه عند قبورهم، وهذا عين ما قاله قوم هود لهود ﴿ **إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ** ﴾ ونحن نقول لهم اقتداء برسل الله عليهم الصلاة والسلام إننا نشهد الله، وأشهدوا إننا بريؤون مما تشركون به يا عباد القبور، فكيدونا جميعا أنتم وآلهتكم وأولياؤكم وأهلكونا ولا تبقونا لحظة واحدة إن كنتم قادرين، ولا تظن أيها القارئ أن وقوع الزنا عند قبر البدوى خبر مبالغ فيه أو كذب؛ فقد أخبرنى أخو الشيخ حسن عبد الرحمن من كبار العلماء المعاصرين للشيخ محمد عبده، ومن خيار السلفيين، أخبرنى أن أخاه زنى بإمرأة عند قبر البدوى، وكان الشيخ حسن قد أخبرنى بذلك قبل أن نزور أخاه، فلما زرناه قال له: اذكر ما فعلته عند قبر البدوى لمحمد تقى الدين ليزداد يقينا، فذكر لى ذلك، ثم أن الشعرانى حكى في ذلك حكاية. فانظر إلى أين يبلغ الجهل بالدين عند من يزعمون أنهم علماء، بل أولياء وأقطاب، فماذا يقول العوام الجاهلون.

الباب الخامس

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الآيات: ٦١- ٦٨

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ** ﴾ وهم: الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة، وكانوا بعد عاد، فبعث الله منهم أخاهم صالحا، فأمرهم بعبادة الله وحده، ولهذا قال: ﴿ **هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ** ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها، خلق منها أباكم آدم، ﴿ **وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا** ﴾ أي جعلكم عمارا تعمرونها وتشغلونها ﴿ **فَاسْتَغْفِرُوهُ** ﴾ من سالف ذنوبكم ﴿ **ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ** ﴾ فيما تستقبلونه، ﴿ **إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ** ﴾ كما قال تعالى ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ**

يَرْشُدُونَ ﴾ [(١)] الآيـة. ﴿ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ الآية، يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـذَا ﴾ أى كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ أى شك كثير، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ﴾ فيما أرسلني به إليكم على يقين وبرهان ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق وعبادة الله وحده، فلو تركته لما نفعتموني ولما زدتموني ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى خسارة، ﴿ وَيَا قَوْمِ هَـذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾ الآية ـ تقدم الكلام عليها في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته، فلله الحمد والمنة، انظر الباب الخامس من سورة الأعراف.

فصل

قال محمد تقى الدين: – وهذا بعينه موجود في مشركى هذا الزمان فإنهم يعتبرون العالم الذى يدعوهم إلى توحيد الله واتباع سنة رسوله ناقص العقل أحمق، ويعتبرون العالم الذى يسألهم ولا ينكر عليهم ما هم فيه من الشرك عاقلا حسن الخلق، يقدر الناس حق قدرهم، ويعاشرهم بالإحسان، فهذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولكن من شرح صدره للإسلام، وكان على نور من ربه، لا يبالى بعداوة المشركين، بل يجد في الدعوة إلى الله ويستنصر على أعداء التوحيد فقد وعده بالنصر، والله لا يخلف الميعاد، قال تعالى في سورة المؤمن ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ (٥١) يَوْمَ لا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

(١) البقرة.

الباب السادس

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ الآيات: ٨٤– ٨٨

قال (ك): يقول تعالى: ﴿ **وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾ وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريبا من معان بلادا تعرف بهم يقال لها مدين فأرسل الله إليهم شعيباً، وكان من أشرفهم نسبا، ولهذا قال ﴿ **أَخَاهُمْ شُعَيْبًا** ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان، ﴿ **إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ** ﴾ أي: في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ **وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ** ﴾ أي في الدار الآخرة، ﴿ **وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ** ﴾ الآية، ينهاهم أولا عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد وقد كانوا يقطعون الطريق، وقوله ﴿ **بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ قال «ج» بقية الله خير لكم، أي، ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس، قال وقد

روى هذا عن ابن عباس، **قال (ك)** ويشبه قوله تعالى «**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ** ﴾ الآية، وقوله ﴿ **وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ أى برقيب ولا حفيظ، أى افعلوا ذلك لله عز وجل لا تفعلوه ليراكم الناس بل لله عز وجل، ﴿ **قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ الآية، يقولون له على سبيل التهكم قبحهم الله: ﴿ **أَصَلاَتُكَ** ﴾ قال الأعمش: أى قراءتك، ﴿ **تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ أى الأوثان والأصنام ﴿ **أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء** ﴾ فنترك التطفيف عن قولك وهى أموالنا نفعل فيها ما نريد، قال الحسن في قوله: ﴿ **أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾، أى والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم وقال الثورى في قوله: ﴿ **أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء** ﴾ يعنون الزكاة، ﴿ **إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ** ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء.

فصل

قال محمد تقى الدين: - أول ما امر نبى الله شعيب قومه به أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ثم نهاهم عن نقص الكيل والوزن لأن من وحد الله حقا في عبادته لا ينقص كيلا ولا وزنا لمسلم، ولا لذمى، ولا لمعاهد، ولا لمصالح، فإن فعل ذلك دل على ضعف إيمانه بالله. وقوله: ﴿ **وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ** ﴾ دليل على أن من نقص الكيل والوزن، فقد تعرض لعذاب الله الذى يحيط به ولا يدع له مخرجا في الدنيا والآخرة، ثم أمرهم أن يوفوا الكيل والوزن إذا أعطوا غيرهم شيئا مما يكال أو يوزن، وإيفاء الكيل والوزن، يلزم منه عدم نقصهما والعكس بالعكس: سواء أكان الشخص معطيا أو آخذا وفي صحيح مسلم « أن النبى ﷺ قال: من غشنا فليس منا» وهذا دليل على أن العمل داخل في الإيمان كما هو مذهب جمهور أهل السنة والقول الأخر ضعيف.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قوله تعالى: ﴿ **أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء** ﴾ دليل على أن الصلوات الصحيحة المقبولة تنهى عن الفحشاء والمنكر

وتأمر بالمعروف وقال النبى ﷺ « من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً » وقال النبى ﷺ « من لم تنهه صلواته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » رواهما الطبراني من حديث ابن عباس وقوله ﴿ **أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء** ﴾ يعنى أصلواتك تأمرك أن لا نتصرف في أموالنا كما نشاء فنترك الصدقة إن شئنا، وإن كانت واجبة ونوفى الكيل والوزن ولا ننقصهما إذا أخذنا وإذا أعطينا ننقصهما مع أنها أموالنا نتصرف فيها كيف نشاء، وهذا كلام الجاهلين الضالين، فإن المالك الحقيقي للأموال هو الله تعالى، والناس مستخلفون في تلك الأموال يجب عليهم أن يتصرفوا فيها كما أمرهم سيدهم وخالقهم ورازقهم ومالكهم ومالك أموالهم، ولا يجوز أن يتصرفوا فيها حسب أهوائهم، والحليم الرشيد، هو الذى يستحق أن يكون إماما لقومه لأنه يعفو عن مسيئهم وهو رشيد لا يأمر إلا بالخير فأنكروا عليه هذه الإمامة لجهلهم وسفاهتهم. ثم **قال (ك)**: يقول لهم: أرأيتم يا قوم ﴿ **إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي** ﴾ أى على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ **وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا** ﴾ قيل: أراد النبوة، وقيل: أراد الرزق الحلال، ويحتمل الأمرين، وقال الثورى ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ أى: لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم كما قال قتادة في قوله ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ** ﴾ يقول: لم أكن أنهاكم عن أمر وارتكبه، ﴿ **إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ** ﴾ أى: فيما آمركم وأنهاكم إنما أريد إصلاحكم جهدى وطاقتى، ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي** ﴾ أى في إصابة الحق فيما أريده ﴿ **إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ في جميع أمورى ﴿ **وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ أى: ارجع قاله مجاهد.

فصل

قال محمد تقى الدين الهلالي: – أول شرط في الداعى إلى الله أن يكون على بصيرة أى: على علم بما يدعو إليه بأدلته من الكتاب والسنة، ولا يجوز أن يكون مقلدا لغيره، لأن المقلد قد اجمع أهل العلم على أنه جاهل، أعمى لا بصيرة له، فإذا استفتى عالما واجتهد في الاستفتاء كما يجب عليه باختيار المفتى الأعلم الأورع، الأ تبع للسنة، وأفتاه بشيء جاز له العمل به في خاصة نفسه، ولا يجوز له أن يفتى بذلك لجهله بدليله. قال أبو حنيفة رحمه الله: لا يحل لأحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين قلناه، وهكذا قال الأئمة كلهم، متبعين

في ذلك لنصوص الكتاب والسنة. وقال الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر النمرى في كتابه «جامع بين العلم وفضله»، من قصيدة له مفيدة:

لا فــرق بــين مقلــد وبهيمــة تنقــاد بــين جنــادل ودعــاثر

الشرط الثاني في الداعى إلى الله أن يكون مخلصا في دعوته فلا يترك ما أمر به ولا يفعل ما نهى عنه وهذا هو الإصلاح الحقيقى، ويسأل التوفيق دائما من الله سبحانه، ويتوكل عليه وحده، ويرجع إليه في جميع أموره فيكون جديرا بالنجاح.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾ الآية: ١٠٩

قال (ك) يقول تعالى: ﴿ **فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَــؤُلاء** ﴾ المشركون أنه باطل وجهل وضلال، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد أباؤهم من قبل، أى: ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء، فيعذبهم عذابا لا يعذبه أحدا، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الأخرة، قال سفيان الثورى عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس: ﴿ **وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ** ﴾ قال: ما وعدوا من خير أو شر.

فصل

قال محمد تقى الدين: - أمرنا الله تعالى في هذه الآية اتباعا لنبينا محمد ﷺ أن لا نشك في ضلال المشركين وعذاب الله لهم في الدنيا والآخرة، وهناك طائفة في هذا الزمان ممن يدعون العلم أو يدعى لهم يداهنون المشركين ويحاولون التستر عليهم، فإذا رأوهم يدعو غير الله لجلب الخير أو دفع الشر ويذبحون على القبور ويستغيثون بأهلها، وينذرون لهم ويهتفون بأسمائهم في قيامهم وقعودهم عند فزعهم سكتوا عنهم، ولم ينبهوهم حتى إذا جاء داع من أهل الحق، ودعاهم وأخبرهم أن ما هم عليه من الشرك الأكبر الذى يخرج من الملة، أحب ذلك المتعالم أن يدافع عن المشركين ويظهر العطف عليهم ويقول للداعى أن التكفير

أمر عظيم، وهؤلاء جاهلون، ولا يقصدون بأعمالهم عبادة غير الله تعالى، فإذا قال له الداعي: أنا ما كفرتهم وإنما أخبرتهم أن هذا الذي يعملونه شرك وكفر، يجب عليهم أن يتوبوا منه فقال المتعالم: وهذا أيضا لا ينبغي، قل لهم هذا حرام، وتلطف معهم أن يتوبوا منه فقال المتعالم، وهذا أيضا لا ينبغي، قل لهم هذا حرام، وتلطف معهم في القول، وهذا المتعالم إنما يقول ذلك لجهل أو نفاق، فأما أن يكون جاهلا لا يعرف التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة، أو يكون عالما به ولكنه يتبع أهواء المشركين، وما أكثر هذا الصنف في هذا الزمان ! لا كثرهم الله، والواجب على من أكرمه الله بالعلم أن يصدع به كما قال تعالى في آخر سورة الحجر: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾. فكلما كفى الله رسوله الأمين المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلها آخر، فسيكفى كل من اتبعه شر المستهزئين، ويجعل كيدهم في نحورهم، وينصر عباده الموحدين عليهم.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ الآية: ١٢٣

قال (ك): يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، فله الحق والأمر، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه، وقوله: ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.

فصل

قال محمد تقى الدين: - هذه الآية جمعت بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وما أكثر الآيات التى تجمع بينهما، فقوله تعالى ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ**

كُلُّهُ ﴾ دليل على توحيد الربوبية، لأن المعنى أن كل غيب في السموات والأرض يعلمه الله وحده ولا يحيط عباده بشيء من علمه إلا بما شاء والأمور كلها راجعة إليه في مبدئها وفي مصيرها لأن رب كل شيء ومليكه، وقوله تعالى ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ دليل على توحيد العبادة لقوله تعالى ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ** ﴾ مع أنهم كانوا يعبدون الله بالصدقة والحج وغير ذلك ولكنهم كانوا يشركون بالله فأحبط الله أعمالهم، فإن من جعل عبادته تسعمائة وتسعة وتسعين جزءاً، لله سبحانه وجعل جزء واحداً من الألف لغير الله لم يقبل الله منه شيئا، قال تعالى في سورة الزمر: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ** ﴾ أي: لا تصرف من عبادتك شيئا لغير الله لأن تقديم المعمول يفيد الحصر.

سورة يوسف

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ الآيات: ٣٧- ٤٠

قال (ك) هذا إنما هو من تعليم الله إياى لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر فلا يرجون ثوابا ولا عقابا في المعاد ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ الآية، يقول: هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامة عليهم أجمعين، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين، وأعرض عن طريق الضالين، فإن الله يهدى قبله ويعلمه ما لم يكن يعلم، ويجعله إماما يقتدى به، في الخير وداعيا إلى سبيل الرشاد، ﴿ **مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ** ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿ **مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا** ﴾ أى: أوحاه إلينا وأمرنا به، ﴿ **وَعَلَى النَّاسِ** ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم دعاة إلى ذلك ﴿ **وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ** ﴾ أى: لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس: إنه كان يجعل الجد أبا، ويقول: والله من شاء لأعنته عند الحجر ما ذكر الله جدا ولا جدة، قال الله تعالى أخباراً عن يوسف ﴿ **وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ** ﴾ ﴿ **يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ الآية.

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعوة لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما، فقال: ﴿ **أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ** ﴾ أى: الذى ذل كل شئ لعز جلاله وعظمة سلطانه ثم بين لهما أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هى جعل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم من سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله، ولهذا قال: ﴿ **مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ** ﴾ أى زيادة حجة ولا برهان، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه، ثم قال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ** ﴾ أى هذا الذى أدعوكم إليه من توحيد الله وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم، الذى أمر الله به وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه، ﴿ **وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ فلهذا كان أكثرهم مشركين، ﴿ **وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ** ﴾

فصل

قال محمد تقى الدين: قول يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ هو قول جميع الأنبياء، وقول كل من اتبعهم وأسلم وجهه لله، وأخلص دينه له، وحقق اتباع الرسل، وهذا هو الأصل العظيم، والأساس المتين الذى لا يختلف فيه الرسل وأتباعهم، ومن لم يحققه كان سالكاً غير سبيلهم لا يستحق نصر الله، ولا ينجو من عذاب الله، وقوله: ﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ إلى آخره، حجة قائمة وحكمة بالغة، فإن من جعل في قلبه مكانا لغير الله تعالى، يتشتت قلبه ويتفرق شمله، ويختل دينه وعقله، لأنه يخاف الله ويخاف غير الله ويتمادى به الضلال إلى أن يخاف غير الله أكثر من خوفه لله، ويحب غير الله أكثر من حبه لله، ويعمل لغير الله أكثر من عمله لله، ودونك مثالا: - لما كنت في الطريقة التجانية كنت ذات ليلة أطالع كتابا شغفت به ومنعنى النوم فنظرت إلى الشمعة التى كنت أقرأ في ضوئها، وإذا بها تكاد تنتهى وليس لى غيرها ولو فنيت لتوقفت عن القراءة وضاق صدرى فلا أستطيع نوما ولا أستطيع صبرا إلى الصباح، فخرجت من البيت في منتصف الليل أبحث عن دكان أشترى منه شمعة، فمضيت أطوف الشوارع فوجدت الدكاكين كلها مغلقة، ولم أزل أتنقل من شارع إلى شارع، وكان ذلك في مدينة «وجدة» حوالى سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وألف، للهجرة، وبعد طواف طويل، ظفرت بدكان، واشتريت منه شمعة، ولم تكن الكهرباء في ذلك الزمان موجودة، في مدن المغرب، وفى ذهابى وإيابى كنت أمر بالسائلين، يسألون الناس، يقول أحدهم: «أعطونى شيئا لوجه الشيخ عبد القادر الجيلانى » ويقول آخر: «أعطونى صدقة لأجل أهل وزان، ويقول آخر: «إعطونى صدقة لوجه مولاى إدريس» ويقول غيره: «أعطونى صدقة لوجه الله» فلم أبال بأحد منهم فلما وصلت البيت وأنا شديد الشوق لقراءة الكتاب سمعت سائلا يقول: «أعطونى صدقة لوجه السيد أحمد التجاني، سمعته من بعيد فلم أستطع أن أحرمه، ورجعت إليه مسافة بعيدة، وأعطيته شيئا من الدراهم فحينئذ طابت نفسى، فأنت ترى أننى في ذلك الزمان، كنت أحب مخلوقاً إتخذته إلها، وأخافه وأرجوه أكثر من حبى وخوفى ورجائى لله الخالق سبحانه، ولو أنى سويت بين الخالق والمخلوق في الحب والخوف

والرجاء لكنت من شرار الكفار. كما قال تعالى في سورة الشعراء حكاية عن المشركين: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ (٩٩) فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ فكيف وقد كنت أحب وأخاف وأرجو ذلك الشيخ العاجز الفقير، الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، أكثر من الله، ولم يكن يسمعنى ولا يعرفنى ولا يعلم بحالى، فأى كفر أعظم من هذا، فالحمد لله الذى هدانا صراطه المستقيم.

الباب الثانى

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ الآيتان: ٦٧- ٦٨

قال (ك): يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام: أنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر، أن لا يدخلوا من باب واحد وليدخلوا من أبواب متفرقة، وإنه كما قال ابن عباس وجماعة من السلف: - أنه خشى عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوى جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء، فخشى عليهم أن يصيبهم الناس بعيونهم، فإن العين حق، تستنزل الفارس عن فرسه، وقوله: ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أى: إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ قالوا هى دفع إصابة

العين لهم، ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ قال قتادة والثورى: - لذو علم يعلمه وقال (ج) لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

فصل

قال محمد تقى الدين: - ثبت في الحديث أن بعض الناس إذا نظر إلى شيء واستحسنه ووقع في نفسه يصيب ذلك الشيء المستحسن ضرر، كأن ينظر إلى صبى جميل المنظر، أو إلى رجل، أو امرأة، فيصابون بمرض، أو غيره من المصائب، وثبت أن النبى ﷺ كان يقرأ على الحسن والحسين المعوذتين ويقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل عين لامة ومن كل شيطان وهامة» قال في النهاية: الهامة كل ذات سم يقتل، فنحن نقتدى بالنبى ﷺ، فنعوذ أنفسنا وكل عزيز لدينا بما تقدم، ولكن لا ينبغى للإنسان أن يبالغ في الخوف من العين، حتى يصير موسوسا فينسب كل ما أصابه للعين ويخاف على أولاده حتى يمنعهم من الخروج من البيت أو يلبسهم ثيابا بالية وسخة، ويمنعهم من غسل وجوههم، وما أشبه ذلك من الوسوسة، وقوله تعالى: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ يعنى جميع الأحكام الشرعية والقدرية كلها لله، لا يشاركه فيها أحد، لذلك لا ينبغى للعباد أن يتوكلوا على أحد سواه.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ الآيات: ١٠٦- ١٠٨

قال (ك): يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات، وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات

وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء، والصمدية للأسماء والصفات، وقوله: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ قال ابن عباس: - من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: - من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا: الله، وهم مشركون به، وكذا قال غيره من السلف: - وفي الصحيحين، أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: - «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك» وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك، لبيك، لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ «قد قد» أي حسب، حسب، لا تزيدوا على هذا، وقال الله تعالى ﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ وهذا هو الشرك الأعظم، يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود «قلت: يا رسول الله، أى الذنب أعظم؟ قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالبا فاعله كما روى حماد بن مسلمة عن عاصم عن أبى النجود عن عروة قال: دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ وفى الحديث « من حلف بغير الله فقد أشرك» رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر وفي الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرقي والتمائم والتولة شرك» وفي لفظ لهما «الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل» ورواه الإمام أحمد بسنده بأبسط من هذا عن زينب امرأة عبد الله ابن مسعود قالت: «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه قالت وأنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير قالت فدخل فجلس إلى جانبى، فرأى في عنقى خيطا فقال، ما هذا الخيط ؟ قالت قلت خيط رقى لى فيه، فأخذه فقطعه ثم قال أن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك » قالت: قلت له لم تقول هذا، وقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى يرقيها ؟ فكان إذا رقاها سكنت، فقال: إنما ذلك من الشيطان كان ينخسها بيده، فإذا رقاها كف عنها، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال النبى ﷺ «اذهب البأس، رب الناس، وأشف أنت الشافى،

لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما» وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد بسنده عن عيسى بن عبد الرحمن قال: دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده، فقيل له: لو تعلقت شيئا، فقال: أتعلق شيئا ـ وقد قال رسول الله ﷺ «من تعلق شيئا وكل إليه » رواه النسائى عن أبو هريرة، وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ « من علق تميمة فقد أشرك» وفي رواية « من علق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وعن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» رواه مسلم، وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي من كان أشرك في عمل عمله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» رواه الإمام أحمد ـ وقال أحمد بسنده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: « أن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا وما الشرك الأصغر ؟ يا رسول الله ؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم، اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟ » وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك، قالوا: يا رسول الله ما كفارة ذلك؟ قال: « أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك» وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه النسائى من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو ابن عاصم وسمعت أبا هريرة قال: قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله علمنى شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعى قال: قل «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيئ وملكيه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى، ومن شر الشيطان وشركه » وقوله: ﴿ أَفَأَمِنُواْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ ﴾ الآية أى أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُواْ السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ

رَّحِيمٌ ﴾ (١) ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ الآية، يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين، الجن والإنس، آمرا له أن يخبر الناس أن هـذه سـبيله أى طريقتـه ومسـلكه وسـنته، وهى الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله بهـا علـى بصـيرة من ذلك، ويقين وبرهان، هو وكل مـن اتبعـه يـدعو إلى مـا دعـا إليـه رسـول الله ﷺ علـى بصيرة، ويقين وبرهان عقلى، وشـرعى، وقولـه ﴿ وَسُـبْحَانَ اللَّـهِ ﴾ أى وأنـزه الله واجلـه وأعظمـه وأقدسـه عـن أن يكـون لـه شـريك أو نظـير أو عـديل أو نديـد أو ولـد أو والـد أو صاحبة أو وزير أو مشير تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علوا كبيرا، ﴿ تُسَـبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُـونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٢)

فصل

قال محمد تقى الدين: – الرقى جمع رقية بضم الراء في المفرد والجمع وهى ما يقـرأ علـى الإنسان من الأدعية والقرآن وغير ذلك للحفظ من العين أو المرض أو شـفاء المـرض، فـإذا كانت الرقية كلاما مفهوما ليس فيه شرك فهى جائزة، والتمائم: – جمع تميمة، وهى كـل مـا يفعله الإنسان في عنقه أى عضده للأغراض المتقدمـة الـذكر، ولا يجـوز شـيء منهـا فكلـها شرك، وإن كانت من القرآن، «والتولة » قال ابن الاثير: «التولة » بكسر التاء وفتح الواو: ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره جعله من الشرك لاعتقادهم أن ذلـك يـؤثر ويفعـل خلاف ما قدره الله تعالى، قوله: – ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ ﴾ الخ. هذا من كلام ابن مسعود أدرجـه في الحديث، ومعناه كل واحد منا يعرض له شيء من الطيرة فيدفعه الله عنه بالتوكل، فإذا خرج إنسان من بيته وسمع كلاما قبيحاً، نحو خاسر أو ضائع أو لا يفلح يقع في نفسـه شـيء مـن الكراهية لما سمع، ولكنه يتوكل على الله، ويمضـى إلى حاجتـه، ولا يرجـع ويقـول: «اللـهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إلـه غـيرك، فهـذا لا يضـره أمـا إذا رجـع خوفـا

(١) النحل.

(٢) الإسراء.

مما سمع، فذلك هو الشرك.

والحمرة: – قال صاحب اللسان، والحمرة داء يعترى الناس فيحمر موضعها وتغالب بالرقية قال الأزهرى، الحمرة من جنس الطواعين نعوذ بالله منها وقوله عليه الصلاة والسلام: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له » دعاء على من يتعلق التمائم أن لا يتم الله له مراده، وقوله: « من تعلق ودعة فلا ودع الله له». قال في القاموس: الودعة ويحرك ج ودعات خرز بيض تخرج من البحر بيضاء شقها كشق النواة تعلق لدفع العين، أ هـ.

ومعنى فلا ودع الله له، أى فلا ترك له شيئا يحبه، ودعاء من النبى ﷺ على من يتعلق ودعة، وودع فعل ماض بمعنى ترك، استعمال الفعل الماضى قليل، والأكثر استعمال الفعل المضارع والأمر.

فصل

قال محمد تقى الدين: – في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ** ﴾ الآية برهان قاطع على إبطال التقليد بالنسبة إلى المفتى والقاضى والداعى لأن هؤلاء إذا كانوا مقلدين، فهم على غير بصيرة في قضائهم وافتائهم ودعوتهم الناس إلى شيء ليس لهم عليه دليل، وهم غير متبعين للرسول ﷺ لأن الله أمره أن يقول: – ﴿ **أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ وقوله ﴿ **وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ أمر من الله تعالى لرسوله ومن اتبعه أن ينزهوه عن القول عليه بلا علم لأن ذلك يفضي إلى الشرك، لأن من جعل الحكم لغير الله ورسوله الذى لا ينطق عن الهوى فقد أشرك كما تقدم في آية التوبة ﴿ **اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ الآية.

سورة الرعد

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾ الآية: ١١

قال (ك) قال ابن أبى حاتم بسنده عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك أنه ليس من أهل القرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ «وفي تفسير الجلالين» ما نصه: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ** ﴾ لا يسلبهم نعمته ﴿ **حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ من الحالة الجميلة بالمعصية ﴿ **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا** ﴾ عذابا ﴿ **فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم** ﴾ لمن أراد الله بهم سوءاً ﴿ **مِّن دُونِهِ** ﴾ أى غير الله ﴿ **مِنْ** ﴾ زائدة ﴿ **وَالٍ** ﴾ يمنعه عنهم.

فصل

قال محمد تقى الدين: - هذه آية عظيمة، والمسلمون في هذا الزمان في أشد الحاجة إلى تدبرها، فإن التتار هجموا على بلاد الإسلام ولم يكن هجومهم في زمن دول الإسلام العظيمة الثلاث، وهى دولة الخلفاء الراشدين، ودولة بنى أمية، وصدر دولى بنى العباس، وكان هجومهم في زمان لا يخلو فيه المسلمون من ضعف وتفرق، ولكن كانت عندهم بقية من الإيمان وتحكيم شريعة الرحمن، فنصرهم الله على ذلك العدو القوى وبعد ذلك هجم عليهم عدو أقوى من الأول، وهم الصليبيون نصارى أوربا كلهم بملوكهم وجيوشهم، واستمرت الحرب بين هذا العدو القوى وبين المسلمين مائة وتسعين سنة، وكانت العاقبة للمؤمنين، فهزم النصارى شر هزيمة على يد الملك الصالح صلاح الدين الأيوبى، وكان يعظم حرمات الله، ويحكم بشرع الله فنصره الله، وفي هذا الزمان هجمت عليهم شرذمة قليلة من اليهود وعددهم يزيد على سبعمائة مليون فلم يستطيعوا الانتصار عليهم، لأنهم لا يريدون أن يغيروا ما بأنفسهم، وهو الحكم بغير ما أنزل الله، ونبذ كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم وتحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله، ولا يزالون على هذه الحال، ومع ذلك يطمعون في النصر فكأنهم لا يؤمنون بهذه الآية، ونحن منذ عشرات السنين نؤكد لهم أعظم تأكيد أنهم لن ينتصروا إلا إذا رجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله، وحكموا شرع الله.

الباب الثاني

قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾ الآيات ١٤- ١٦

قال (ك) قال على بن أبى طالب ﷺ ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ** ﴾ قال التوحيد رواه **«ج»** وقال ابن عباس وبعض من السلف: ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ** ﴾ لا إله إلا الله ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ من دُونه** ﴾ الآية ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ **كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ** ﴾ قال على بن أبى طالب كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده وهو لا يناله أبدا، فكيف يبلغ فاه، وقيل المراد، كقابض يده على الماء فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فـــأنى وإيـــاكم وســـوقا إلـــيكم ... كقـــابض مـــاء لم تســـقه أناملـــه

وقال الآخر:

فأصـــبحت ممـــا كـــان بينـــى وبينهـــا ... مـــن الـــود مثـــل القـــابض المـــاء باليـــد

ومعنى الكلام أن الذى يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له مـن بعـد، كمـا أنـه لا ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه الذى جعله محلا للشرب فكذلك هؤلاء المشركون الـذى يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون به أبداً في الدنيا ولا في الأخرة ولهذا قـال ﴿ **وَمَا دُعَـاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ** (١٤) **وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا** ﴾ الآية.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شيئ ودان له كل شيء ولهذا يسجد

له كل شيء طوعا من المؤمنين وكرها من الكافرين ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أى البكرات ﴿ وَالآصَالِ ﴾ وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار كقوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ ﴾ [1] الآية، ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم ﴾ الآية.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو، لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعباديها بطريق الأولى ﴿ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ أى لا تحمل لهم منفعة ولا ترفع عنهم مضرة، فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه، ولهذا قال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون مخلوقه من مخلوق غيره، أى ليس الأمر كذلك فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل له ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، «تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا» وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم، لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك، وكما أخبر تعالى عنهم في قوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [2] ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ [3] الآية، وقل ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [4] فإذا كان الجميع عبيدا له فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان،

---

(١) النحل

(٢) سبأ

(٣) النجم

(٤) مريم

بل لمجرد الرأى والاختراع والابتداع ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة ﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (١)

فصل

قال محمد تقى الدين: - ما أبلغ هذه الآية في أبطال الشرك والترغيب عنه، وبيان خسران المشركين لو كانوا يعقلون، وهذا المثل العظيم الذى ضربه الله لهم في غاية الوضوح قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴾ (٢) ومن دعا غير الله عابدا أو سائلا لا يستجيب له أبدا كما أن من أراد أن يتناول الماء من البئر بيده لا يحصل على طائل، ويبقى ظمآن إلى الأبد، وقلت في قصيدة في هجو سفيه يسمى نفسه فقيها:

حرمـت وصـولا للحقيقـة عنـد مـا	أضـعت أصـولا مـن يضـعها يلـدد
فكلمـة توحيـد بهـا أبـدا محققـا	فـإن تـدر معناهـا إلى الحـق تهتـد
فوحـد إلـه الحـق لا تـدع غـيره	لنفعـك أو رفـع المصـائب ترشـد
فمـن يـدع غـير الله يومـا لحاجـة	يـدنس بإشـراك ويـردى مـع الـردى
وذلـك توحيـد العبـادة فـأدره	فمـن يجهلنـه في الجحـيم يخلـد
سـواء أصـلى قابضـا في صـلاته	أم اختـار سـدلا نقلـه لم يؤيـد
ومـن رد قـول المصـطفى بعـد صـحة	فـذلك كفـار أثـيم ومعتـد
سـيحرم في يـوم القيـام شـفاعة	وإن يـأت للحـوض المبـارك يطـرد
ويسـود في يـوم القيامـة وجهـه	ويثـوى ثـواء في الجحـيم ويخلـد
ويـبرأ منـه ذلـك اليـوم مالـك	وكـل تقـى للإلـه موحـد
وذلـك في أصـل الشـهادة واضـح	لكـل صـحيح الفهـم لم يتبلـد

(١) الكهف

(٢) العنكبوت.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ الآية، من الآيات الجامعة بين توحيد الربوبية وتوحيد العبادة، وهى كثيرة، وتوحيد الربوبية دليل توحيد العبادة، فمن اعترف بأن الله وحده هو الخالق الرازق المحيى المميت والضار النافع كيف يعبد غيره أو يسأل حاجته من غيره

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآية: ٣٠

قال (ك) يقول تعالى وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِيَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [1] أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ ﴾ أى هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ وقالوا ما ندرى ما الرحمن الرحيم، قاله قتادة والحديث في صحيح البخاري، وقد قال الله تعالى ﴿ قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى ﴾ [2] وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ

---

(١) الأنعام.

(٢) الإسراء.

إن أحب الأسماء إلى الله تعالى، عبد الله، وعبد الرحمن، ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والألوهية، هو ربى لا إله إلا هو ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى في جميع أمورى ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) ﴾ الآية: ٣٦

قال (ك) يقول تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ ﴾ [1] إلى قوله – ﴿ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ أى إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة كائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ وقوله ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ ﴾ أى اليهود والنصارى ﴿ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى بعض ما جاءك من الحق، وكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهذا كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ [2] الآية، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له كما أرسل الأنبياء من قبلى ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى مرجعى ومصيرى أ هـ.

---

(١) الإسراء

(٢) آل عمران

فصل

قال محمد تقى الدين: أمر الله نبيه محمدا ﷺ أن يقول لجميع الناس ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ لم يأمرنى الله تعالى إلا بعبادته وحده لا شريك له ونهاني عن الشرك به، فمن لم يحقق التوحيد ويتجنب الشرك فالنبى ﷺ برئ منه، لا يمكن أن يكون من المتبعين له، وقوله ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى لا أدعو إلا إلى سبيله وهى اتباع كتابه ورسوله ﷺ ؛ فمن دعا إلى اتباع غير ذلك، فقد خاب وخسر.

سورة إبراهيم

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ الآيات: ٢٨- ٣٠

قال (ك) قال البخاري في قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ ألم تعلم كقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ ﴾ [(١)] ﴿ الْبَوَارِ ﴾ الهلاك، بار يبور بورا، وقوما بورا هالكين، وقال بسنده عن عطاء سمع ابن عباس ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ قال هم كفار أهل مكة، وقال العوفى عن ابن عباس في هذه الآية، هو جبلة ابن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم، والمشهور الصحيح عن ابن عباس، الأول، وقوله ﴿ وَجَعَلُواْ للّه أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِه ﴾ أى جعلوا له شركاء عبدوهم معه ودعوا الناس إلى ذلك، ثم قال تعالى مهددا لهم ومتوعدا على لسان نبيه ﷺ ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيئ ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مرجعكم وموئلكم إليها، كما قال تعالى ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ

---

(١) البقرة.

إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (١)

فصل

قال محمد تقى الدين: جبلة بن الايهم كان أميراً لنصارى بنى غسان في الشام، فلما جاء الإسلام أسلم وذهب يطوف بالبيت، فوطئ أعرابى على طرف إزاره فلطمه جبلة، فتخاصما إلى عمر بن الخطاب فحكم للأعرابى بالقصاص، فقال جبلة، يا أمير المؤمنين أنا ملك وهو من سوقة، فقال الإسلام سوى بينكما فقال أمهلنى يوما واحدا، فقال ليس الأمر لى، وإنما هو من خصمك، فاسأله ذلك، فسأل جبلة خصمه الإمهال، فقبل وهرب جبلة إلى قسطنطينية، وقصد ملك الروم وأعطاه قصرا وخدما وأكرمه غاية الإكرام، فتوجه أحد شعراء المدينة نسيت اسمه إلى قسطنطنية، وزار جبلة فرأى ما هو فيه من الأبهة والنعمة والترف، فلما رآه جبلة سأله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعن حال المسلمين فأخبر أنهم بخير وأخذ يتحدث معه فذكر ما كان فيه من الهدى والنور، وما رجع إليه من الضلال وظلمة الكفر فندم وبكى وأنشد:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفنى منها لجاج ونخوة ... فبعت بها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمى لم تلدنى وليتني ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

ويا ليتنى أرعى المخاض بقفرة ... وكنت أسيرا في ربيعة أو مضر

ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة ... أجالس قومى فاقد السمع والبصر

فصل

قال محمد تقى الدين: وكذلك رؤساء المشركين في هذا الزمان، جعلوا لله أنداداً ونصبوا قبابا على القبور التى يعتقدون أن المدفونين فيها صالحون، وأمروا أتباعهم إذا ماتوا أن يبنوا

---

(١) يونس.

على قبورهم قبابا ويعبدونها، فهم داخلون في معنى هذه الآية، فكم منكرات ترتكب عند هذه الأوثان من اختلاط الرجال والنساء كما تقدم وكتابة كتب الاستجداء وإلقائها في توابيت الأضرحة، يسألون المقبورين حاجاتهم فيجيبهم السدنة إن كانوا أغنياء، وإن كانوا فقراء أهملوا جوابهم، وكم بقر وغنم يهل بها لغير الله عند تلك الأوثان، وقلت في القصيدة التائية من قصيدة أدرجتها برمتها في كتاب الهدية الهادية إلى الطائفة التيجانية:

سفرت إلى مصر لأخبر خبرها	وانظر هل فيها شفاء لغلتي
ومن قبل قد أخبرت أن في ربوعها	رجالا لنصر الدين أصحاب شدة
وصلت فلم ألف سوى أهل بدعة	وشرك والحاد وشك وردة
سمعت بها الالحاد يدرس جهرة	بجامعة للشر مع كل فتنة
رأيت بها الأوثان تعبد جهرة	قبورا عظاما ناخرات أجنت
ويدعون دون الله من لا يجيبهم	وهم عن دعاء القوم في عظم غفلة
حشا ثلة مستضعفين رأيتهم	تسومهم الأعداء سوء الأذية
لها جعلوا قسما بمال وإلة	فلا عاش من قد ظنهم أهل ملة
وهم صبر مستمسكون بدينهم	ويدعون ما استطاعوا لبيضا نقية
وما صدهم إيذاؤهم عن جهادهم	لأنهم أهل النفوس الأبية،

ولو آمنوا بالله حق الإيمان وأيقنوا أنه المعطى المانع القابض الباسط ما قصدوا تلك الأوثان، ولا عبدوها بل يكفيهم الله، كما قال تعالى ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ [(١)] بلى يا رب إنك عزيز ذو انتقام، تنتقم من الظالمين بأيدى الموحدين المقسطين، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

---

(١) الزمر.

الباب الثانى

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ الآيات: ٣٥-٣٦

قال (ك) يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن، فقال ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾ وقد استجاب الله له، فقال تعالى ﴿ **أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا** ﴾ [(١)] الآية، وقال تعالى ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا** ﴾ [(٢)] وقال في هذه القصة، ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾ فعرفه لأنه دعا بعد بنائها، ولهذا قال ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ** ﴾ [(٣)] ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضا فقال ﴿ **رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا** ﴾ [(٤)] لما ذكرناه هنالك في سورة البقرة مستقصى مطولا، وقوله ﴿ **وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ** ﴾ ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، كقول عيسى عليه السلام ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ وليس فيها أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ولا يجوز وقوع ذلك.

---

(١) العنكبوت.

(٢) آل عمران.

(٣) إبراهيم.

(٤) البقرة.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قول (ك) إن إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة قرأت هذا في التوراة باللغة العبرانية، فلله در هذا الإمام ما أعظم تحقيقه، وأوسع إطلاعه، وقوله: ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته، يعنى بما دعا إبراهيم لنفسه ولبنيه ولو قلت لرجل اليوم من عامة المسلمين ـ وأكثر خاصتهم من الذين يزعمون أنهم علماء، أسأل الله أن يحفظك ووالديك وذريتك من عبادة الأصنام، لغضب غضبا شديداً وظن أنك تسبه فإذا حلم ولم يشتمك ولم يضربك، يقول: هل أنت شاك في إسلامى وإسلام والدى وذريتى ؟ ونحن نقرأ القرآن ونصلى ونحج ونؤدى الزكاة ونصوم رمضان ونشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ؟ فاتق الله ولا تكفر المسلمين، واترك عقيدة الوهابية، فيقال له: هل كان إبراهيم وهابيا حين دعا بهذا الدعاء ؟ وهل كان إبراهيم ويعقوب وهابيين إذا حكى الله عنهما وصيتهما لأبنائهما؟ قال تعالى ﴿ **وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (١) وهل كان يعقوب وهابيا حين سأل بنيه عند موته، وقال لهم ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** ﴾ (٢) وهل أيها المتعالم وأولادك أفضل من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وبنيه ﴿ **كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٣) فيا ايها الموحد المتبع المهتدى المقتدى اصبر أن وعد الله حق، ﴿ **وَلا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ** ﴾ (٤) اللهم احفظنا وذريتنا وإخواننا من عبادة الأصنام والأوثان وكل ما سواك، وقول إبراهيم عليه السلام ﴿ **وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ وكذلك قول عيسى ﴿ **وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (٥) ليس فيهما دليل على أن الله يغفر

---

(١) البقرة.

(٢) البقرة.

(٣) الروم.

(٤) سورة الروم.

(٥) المائدة.

للمشركين الذين ماتوا على الشرك، لقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [١] ولغير ذلك من أدلة السنة والإجماع.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ الآية: ٥٢

قال (ك) يقول تعالى هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: ﴿ **لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ** ﴾ أى هو بلاغ لجميع الخلق من أنس وجن كما قال في أول السورة ﴿ **الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ الآية، ﴿ **وَلِيُنذَرُواْ بِهِ** ﴾ أى ليتعظوا به ﴿ **وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو، ﴿ **وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ** ﴾ أى ذوى العقول.

فصل

قال محمد تقى الدين: والذين يفتون أو يقضون بالتقليد والتمذهب لا يعملون بمقتضى هذه الآية، فهم يقولون بلسان حالهم ومقالهم أيضا هذا القرآن ليس بلاغا لنا، وإنما هو بلاغ للإمام، وكذلك حديث النبي ﷺ، وإنما هو موجه للإمام، أما نحن فلا نتعدى قول الإمام أبدا، ولا نستدل على حكم بالقرآن ولا بالحديث إلا إذا وافق رأى إمامنا، هذا حال القضاة والمفتين بالتقليد، هذه الآية حجة عليهم، وما ذكره (ك) معها، وكذلك قوله تعالى ﴿ **فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ وستأتى هذه الآيات في سورة الزخرف، في قسم آيات العبادة، وفي قسم آيات الاتباع، إن يسر الله إتمام هذا الكتاب، وفي هذه الآية دليل واضح على أن من أشرك بالله ليس من أولى الألباب، وكذلك المفتى والقاضى بالتقليد ليس من أولى الألباب، وقد تقدم

---

(١) الأنعام.

الكلام على ذلك في آيات التوبة وغيرها.

سورة الحجر

الباب الأول

قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ الآيات: ٩٤- ٩٩

قال (ك) يقول تعالى آمرا رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به، وإنفاذه، والصدع به، وهو مواجهة المشركين، كما قال ابن عباس في قوله ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ أى امضه، وفي رواية افعل ما تؤمر، وقال مجاهد هو الجهر بالقرآن في الصلاة، وقال أبو عبيدة عن عبد الله بن مسعود « مازال النبى ﷺ مستخفيا حتى نزلت: ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ** ﴾ فخرج هو وأصحابه» وقوله ﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ** ﴾ أى: بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله، ﴿ **وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ** ﴾ [(١)] ولا تخفهم الله كافيك إياهم، وحافظك منهم، كقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ [(٢)] وقال الحافظ البزار بسنده عن يزيد ابن درهم قال سمعت أنساً رضي الله عنه يقول في هذه الآية ﴿ **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ** ﴾ قال مر رسول الله ﷺ فغمزه بعضهم فجاء جبريل قال أحسبه قال فغمزهم فوقع في أجسادهم كهيئة الطعنة فماتوا، وقال إبن إسحاق كان عظماء المستهزئين كما حدثنى يزيد بن رومان

---

(١) سورة القلم.

(٢) سورة المائدة.

عن عروة بن الزبير خمسة نفر وكانوا ذوى أسنان وشرف في قومهم الأول: الأسود بن زمعة الأسدى كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى قد دعا عليه لما كا يبلغه من أذاه، واستهزائه فقال: « اللهم اعم بصره وأثكله ولده» والثانى: الأسود بن عبد يغوث الزهرى، والثالث: أبو الوليد بن المغيرة المخزومي، ورابعهم: العاص بن وائل السهمي، وخامسهم: الحارث بن الطلاطلة الخزاعي، فلما تمادوا في الشر وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾، إلى قوله ﴿ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ﴾ تهديد شديد ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبودا آخر، وقوله ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى: وإنا لنعلم يا محمد إنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر، وانقباض، فلا يهيدنك ذلك، ولا يثنينك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه، وعبادته التى هى الصلاة، ولهذا قال ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ كما جاء في الحديث الذى رواه أحمد بسنده عن نعيم بن عمار « أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، قال تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» ورواه أبو داود والنسائي من طريق آخر بنحوه، ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزنه أمر صلى، وقوله ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ قال البخاري: بهذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتا، فيصلى بحسب حاله كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا فإن لم تستطع فعلى جنب» ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات، إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين ههنا الموت كما قدمناه أ هـ.

فصل

قال محمد تقى الدين: – يتبغى للداعى إلى التوحيد إذا جاء قوما مشركين في هذا الزمان، أن يتلطف في الدعوة فيقيم لهم الدليل تلو الدليل، على أن ما هم عليه شرك، فإن قالوا له، قد جعلتنا كفارا يقول لهم أنا أدعوكم إلى ترك هذا العمل الذى عرفتكم حقيقته، ولا أريد أن أسبكم، ولا أن انتقصكم فإن تركتم هذه الأعمال أطعتم الله ورسوله وحققتم التوحيد، وغفر الله لكم ما تقدم منها، فمن أصر على الشرك بعد بيان الدليل فلا حرج عليه أن يسميه مشركا إذا رأى المصلحة تقتضى ذلك، وقد جربت هذه الطريقة في بلدان مختلفة فنجحت، انظر كتابى الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة.

كما كفى الله رسوله ﷺ المستهزئين فإن الله يكفى كل من اتبعه بصدق، المستهزئين بالتوحيد في زمانه، وقد رأينا من ذلك العجب العجاب، نسأل الله أن يزيدنا من فضله، ويحفظنا من شرور أنفسنا.

وقوله: «**فغمزه**» بعضهم يعنى: «ﷺ» قال ابن الأثير في النهاية – الغمز العصر والكبس باليد، وبعضهم فسر الغمز في بعض الأحاديث بالإشارة كالرمز بالعين والحاجب أو اليد، أ هـ.

وفي تفسير الجلالين عند قوله تعالى ﴿ **وَإِذَا مَرُّواْ** ﴾ أى المؤمنون ﴿ **بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ** ﴾ [1] أى: يشير المجرمون إلى المؤمنين بالجفن والحاجب استهزاء.

قال محمد تقى الدين: – ذكرنى الخبر أن بعضهم غمز النبى ﷺ وهذا الغمز يحتمل أن يكون باليد بمعنى الكبس والدفع ويحتمل أن يكون بالحاجب والعين استهزاء والأول أظهر، لأن غمز جبريل لأولئك النفر كان فيما يظهر باليد، ولذلك أصابهم الوجع ثم الموت، والجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

وقوله: «وكانوا ذوى أسنان وشرف » أى كانوا شيوخا متقدمين في السن، وذوى منازل عالية في قومهم، وقوله تعالى ﴿ **الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلـــهًا آخَرَ** ﴾ أى معبودا آخر، فكل من استغاث بمخلوق لجلب خير أو دفع شر بطريق الهمة والحال لا بطريق الأسباب،

---

(١) سورة المطففين.

أو طلب منه قضاء حاجة، كذلك فقد جعله إلها، انظر ما تقدم في سورة الأعراف عند قوله تعالى ﴿ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ فقد بسطت القول هناك في هذا المعنى وبالله التوفيق.

قال محمد تقي الدين: - كل عالم بمعاني آيات التوحيد يرى المشركين في هذا الزمان يعبدون القبور، وشيوخ التصوف والمجانين الذين يسمونهم مجاذيب، ولم يضق صدره بما يفعلون ويقولون، فهو مداهن خائن للامانة، كاتم للعلم، يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، نعوذ بالله من ذلك، كيف وقد أمرنا الله تعالى بالتبرء من المشركين في سورة الممتحنة، بقوله ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ الآية.

سورة النحل

الباب الأول

قال تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾

الآيات: ١ - ٣

قال (ك) في تفسير هذه الآية يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة كقوله ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ ﴾ وقال ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وقوله ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ أي قرب ما تباعد ﴿ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على الله، ويحتمل أن يعود على العذاب وكلاهما متلازم كما قال تعالى ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (١)

---

(١) سورة العنكبوت.

ثم أنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد، تعالى وتقدس علوا كبيرا، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة، فقال ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يقول تعالى ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ ﴾ أى: الوحى كقوله ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [1] وقوله ﴿ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ ﴾ وهم الأنبياء كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [2] وقال ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وقال ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ وقوله ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ ﴾ أى لينذروا ﴿ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَاْ فَاتَّقُونِ ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت، وإن ذلك مخلوق بالبعث لا للبعث بل ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى، ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فلهذا يستحق أن يعبد وحده، لا شريك له، أ هـ.

فصل

قال محمد تقى الدين: – جميع الملائكة الذين أنزلهم الله على الرسل نزلوا قبل كل شيء بالتوحيد، والرسل كلهم بدؤوا الدعوة إلى الله بالتوحيد وأخبروا قومهم أنه لا إله إلا الله، أى لا معبود بحق سواه وكل من عبد غيره من المخلوقين فعبادته باطلة وسيعذبه الله عليها في الدنيا والآخرة عذابا سرمدا، فالغرض الأعظم من بعثة الرسل هو توحيد الله تعالى، وهو الأساس لكل عمل يحبه الله ويثيب عليه، والآيات التى بعد هذه دالة على توحيد الربوبية.

---

(١) سورة الشورى.

(٢) سورة الأنعام.

الباب الثانى

قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝١٩ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٢١ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٢٢ ﴾ الآيات: ١٩-٢٢

قال (ك) يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر وسيجزى كل عامل بعمله يوم القيامة إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، ثم أخبر أن الأصنام التى يدعونها من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، كما قال الخليل ﴿ **أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [(١)] وقوله ﴿ **أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء** ﴾ أى: هى جمادات لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ﴿ **وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ** ﴾ أى لا يدرون متى تكون الساعة، فكيف يرتجي عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء، إنما يرجى ذلك من الذى يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء ﴿ **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ الآية، يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبرنا عنهم متعجبين من ذلك، ﴿ **أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ** ﴾ [(٢)] وقال تعالى ﴿ **وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ** ﴾ [(٣)] وقوله ﴿ **وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ** ﴾ أى: من عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده، كما قال ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ [(٤)]

---

(١) الصافات.

(٢) ص.

(٣) الزمر.

(٤) غافر.

فصل

قال محمد تقى الدين: أخبر الله سبحانه وتعالى أنه يعلم كل شيء سرا كان أو جهرا، وهذه صفة خاصة به، فمن لم تكن فيه هذه الصفة لا يستحق العبادة، وأخبر أن المشركين يعبدون من لا يستحق العبادة من المخلوقين، فيعبدون تماثيل الأنبياء والصالحين وقبابهم وقبورهم والأماكن التى جلسوا فيها، وهذه من الجماد الذى لا يحس، فكيف يسمع أو يبصر، فكيف يعلم السر والجهر، ويعبدون أرواح الصالحين، وهى لا تسمعهم ولا تبصرهم، ولو سمعتهم ما قدرت أن تنفهم بشيء، كما قال تعالى في سورة فاطر ﴿ **إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ** ﴾ معناه معبودكم الذى يستحق العبادة وينفع ويضر ويحيى ويميت، هو الله وحده.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الآيات: ٢٦- ٢٩

قال (ك) قالت جماعة هو من باب المثل لإبطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا في عبادته غيره، كما قال نوح عليه السلام ﴿ **وَمَكَرُوا مَكْرًا**

﴿ كُبَّارًا ﴾ [١] أى احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة، وأمالوهم إلى شركهم بكل وسيلة، كما يقول لهم أتباعهم يوم القيامة ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ [٢] الآية وقوله ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أى: اجتثه من أصله وأبطل عملهم كقوله تعالى ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [٣] وقوله ﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [٤] وقال الله ههنا ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى يظهر فضائحهم، وما كانت تجنيه ضمائرهم فيجعله علانية، كقوله تعالى ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [٥] أى تظهر وتشتهر ما في الصحيحين عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند أسته بقدر غدرته فيقال هذه غدرة فلان بن فلان» وهكذا هؤلاء يظهر الناس ما كانوا يسرونه من المكر ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق، ويقول لهم الرب تبارك وتعالى مقرعا لهم وموبخا ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة وقامت عليهم الدلالة، وحقت عليهم الكلمة وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة، والمخبرون عن الحق والآخرة فيقولون حينئذ ﴿ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى الفضيحة والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وأشرك به ما لا ينفعه، ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجئ الملائكة إليهم لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ أى: اظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ ﴾

---

(١) سورة نوح.

(٢) سبأ.

(٣) المائدة.

(٤) الحشر.

(٥) الطارق.

كما يقولون يـوم المعـاد ﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَـهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [١] قال الله مكذبا لهم في قيلـهم ذلـك، ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا كُنـتُمْ تَعْمَلُونَ فَادْخُلُواْ أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي بـئس المقيـل والمقـام والمكان من دار هوان لمن كان متكبرا عن آيات الله وإتباع رسله وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرهـا وسمومهـا، فـإذا كـان يـوم القيامـة سلكت أرواحهم في أجسادهم، وخلدت في نار جهنم، ﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [٢] كما قال تعالى ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّـاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [٣].

فصل

قال محمد تقى الدين: - فيه فوائد، الأولى أن المشركين يمكرون ليوقعوا الموحدين في المهالك فيعود عليهم مكرهم، كما قال تعالى ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ وقال تعالى في سورة النمل ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

قال محمد تقى الدين: ولما علم الله ضعف الموحدين وغربتهم وتألب المشركين عليهم نصرهم وأبطل كيد المشركين ومكرهم، فكل داع إلى توحيد الله وإتباع سنة رسوله الكريم مخلص في دعوته يرى العجب العجاب من نصر الله، وإبطال كيد المشركين له، هذا في الدنيا، فكيف بالآخرة، الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ جاء مثله في مواضع من القرآن كقوله تعالى في سورة القصص ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقد تكررت وسيأتى الكلام عليها إن شاء الله، وقال تعالى في سورة فصلت

---

(١) المجادلة.

(٢) سورة فاطر.

(٣) غافر.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

الثالثة: إن الذين أوتوا العلم في لغة القرآن والسنة وهم علماء الكتاب والسنة، المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لسنة نبيه، ومن لم يكن كذلك لا يعد من الذين أوتوا العلم، إلا مقيلا، كقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ وكقوله تعالى في سورة غافر ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾ فعلمهم ذلك ليس فيه إيمان بالله فلذلك لم ينفعهم بل ضرهم، ولذلك قال النبي ﷺ وأعوذ بك من علم لا ينفع، ومثال العلم الذى لا ينفع علم الكلام إذا كان صاحبه، يعتقد أنه حق وقول بعض المتكلمين شعرا:

أيهـــا المغتـــدى ليطلـــب علمـــا كـــل علـــم عبـــد لعلـــم الكـــلام
تطلـــب العلـــم كـــى تصـــحح حكمـــا ثـــم أغفلـــت منـــزل الأحكـــام

وجوابه أن يقال كذبت علم الكلام ليس سيدا للعلوم، وإنما هو عبد لهو من المتفلسفين، وسخافاتهم وهو بدعة ملعونة، إلا في حق من اضطر إليه ليدافع به عن الحق، ويلجم أهله، ويرميهم بأحجارهم، ويأخذهم بإقراراهم، ثم يقال له نحن ما أغفلنا منزل الأحكام ولكنا وصفناه بما وصف به نفسه سبحانه وبما وصفه به رسوله الكريم متبعين في ذلك لنبيه ﷺ وللصحابة والتابعين.

وأقول في ذلك شعراً معارضاً له:

أيهـــا المغتـــدى لتطلـــب علمـــا اجتنـــب جاهـــدا ظـــلام الكـــلام
إن علـــم الكـــلام لـــيس بعلـــم إنمـــا العلـــم شـــرعة العـــلام

وكذلك علمّ الفروع إذا لم يكن معه علم الكتاب والسنة كعلم الغزالى والبيضاوي والزمخشري، فهؤلاء كلهم جاهلون بالحديث، ومن جهل الحديث لم يستطع أن يفهم القرآن، فيكون محروما من علم الكتاب والسنة كهؤلاء الثلاثة الذين حشوا كتبهم بالموضوعات والمتروكات والغرائب التى لا تخفى على المبتدئين في علم السلف، مع أن الغزالى كان عالما

بالفلسفة وبدع المتصوفة، وعلم الفروع وأصول الفقه المبنية على شفا جرف.

الرابعة: - إن المشركين جاهلون جهلا مركبا من جهلين، الأول: إنهم يجهلون توحيد الله وإتباع رسوله الكريم، الثانى: إنهم يجهلون جهلهم كحمار الطبيب توما النصراني الذى قال فيه بعض الشعراء:

قال حمار الحكيم توما لو أنصفوني ما كنت أركب

لأن جهلي غدا بسيطا وراكبي جهله مركب،

ومن جهل هذا الطبيب أنه قرأ في كتاب «الحبة السوداء» شفاء من كل داء، فرأى تحت الباء نقطتين خطأ، فقرأها الحية السوداء، فاصطاد حية سوداء وأحرقها وأخذ يعالج بها الناس، فكل عين عولجت بها عميت وكل بطن عولج بها ازداد صاحبه مرضا، فضرب به المثل في الجهل، ولجهل المشركين المركب يظنون أن ما هم عليه من الشرك هو الحق، ولذلك إذا جاءتهم الملائكة لتتوفاهم ﴿ **أَلْقَوُاْ السَّلَمَ** ﴾ أى أظهروا السمع والطاعة والانقياد، وقالوا ﴿ **مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ** ﴾ فالاستمداد من أرواح الشيوخ والاستغاثة بهم والهتاف بأسمائهم عند القيام والقعود وعند حدوث حادث مروع يا سيدى فلان يا سيدى فلان، يا أولياء الله، والذبح لهم والنذر لهم والخوف منهم بالغيب ورجاؤهم والتوكل عليهم سواء عندهم حتى في وقت الغرغرة، فيكذبهم الله تعالى وتقول لهم الملائكة بلى، كنتم تعملون السوء إن الله عليم بما كنتم تعملون، فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها، أ هـ.

الباب الرابع

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الآية: ٣٦

قال (ك) أخبر الله تعالى أنه بعث في كل أمة أى في كل طائفة من الناس رسلا وكلهم يدعون إلى عبادة الله وينهون عن عبادة ما سواه، ﴿ **أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ** ﴾

فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بنى آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوحا وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد رسول الله ﷺ الذى طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ **وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا من دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ** ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ** ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا من دُونِهِ من شَيْءٍ** ﴾ فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منتفية، لأنهم نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله، وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدرا فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، له في ذلك حجة قاطعة، وحكمة بالغة، ثم أنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال ﴿ **فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾ أى: اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها، فقال: ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ** ﴾

فصل

قال محمد تقى الدين: - فيه فوائد الأولى: أن كل أمة من أمم الأرض بعث الله إليها رسولا يدعوها إلى توحيد الله وإتباع شرعه فبعض هذه الأمم استجابت لداعى الله بالسمع والطاعة ولم تمنعهم أغراض الدنيا الفانية كالجاه والمال أن يستجيبوا لرسل الله فأدركوا بذلك سعادة الدنيا والآخرة، وبعضهم منعتهم أهواؤهم وأغراضهم الفاسدة، فأبوا أن يستجيبوا لداعيهم، فأضلهم الله، والله حكم عدل، ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ** ﴾. ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ فإن قلت: فلماذا عذب الله

---

(١) الأنبياء.

عمرو بن لحى الذى أخبر النبى ﷺ أنه رآه يجر قصبه في النار كما في الصحيح ؟ ولماذا عذب الله عبد المطلب جد النبى ﷺ ؟ بدليل أن أبا طالب لما كان آخر كلامه هو على دين عبد المطلب، مات كافرا كما في الصحيح أيضاً فالجواب: إن هذين الرجلين اللذين كانا في زمانين مختلفين يعلمان يقينا أن ملة إبراهيم تتنافى مع عبادة الأصنام، بدليل قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ وقد تكرر هذا في القرآن في مواضع كثيرة أن المشركين من العرب كانوا يوحدون الله تعالى في الشدة ويشركون في الرخاء، ولا سبيل لهم إلى معرفة التوحيد إلا ما بلغهم من شريعة إبراهيم وإسماعيل وهو حجة عليهم.

الثانية: قول (ك) فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منتفية، المشيئة الشرعية معناها كل ما شرعه الله تعالى لعباده بواسطة رسله فقد أراده وأحبه ورضيه وأما الإرادة الكونية القدرية فإنها تشمل الكفر والإيمان والمعصية والطاعة، فإن الله شاء للكفار والعصاة ما اختاروه لأنفسهم، ولم يشأ أن يجبرهم على الإيمان والطاعة، بل استدرجهم بإبقاء نعمه من الجاه والمال والصحة والعافية وسائر ما أعطاهم الله من النعم، فلم يشكروها، بل زادتهم طغيانا ولم يرض الكفر والمعصية، قال تعالى ﴿ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ وقد اقتضت حكمته البالغة أن يجزى المؤمنين المطيعين جزاء حسنا في الدنيا والآخرة وأن يجزى الكافرين والعصاة عذابا في الدنيا والآخرة.

الثالثة: قول (ك) أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، معناه أن الله تعالى أنكر عليهم الكفر والمعاصى، بطريقين، الطريق الأول: بواسطة رسله وما جاؤوا به من الشرائع، والثاني: أنه جعل عاقبتهم الهلاك في الدنيا بعد الإمهال، كما فعل بعاد، وثمود، وقوم موسى، وقوم نوح، وأصحاب مدين، وأهل مكة في غزوة بدر، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [1] فكيف كان إنكارى عليهم بما أصبتهم به من العذاب ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾.

---

(١) سورة الملك.

الباب الخامس

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ۝ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ۝ ﴾ الآيات ٥١-٥٦

قال **(ك)** يخبر تعالى، أنه لا إله إلا هو وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه ﴿ **وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا** ﴾ قال ابن عباس وغيره أى دائما، وعن ابن عباس أيضا أى واجبا، وقال مجاهد أى خالصا، أى له العبادة وحده ممن في السموات والأرض كقوله ﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ [1] هذا على قول ابن عباس وعكرمة، فيكون من باب الخبر، وأما على قول مجاهد فإنه يكون من باب الطلب أى ارهبوا أن تشركوا بى شيئا، وأخلصوا لى الطاعة، كقوله تعالى ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ [2] ثم أخبر أنه مالك النفع والضر وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ **ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ أى لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجؤون إليه وتسألونه وتلحون في الرغبة مستغيثين به، كقوله تعالى ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾ [3] وقال ههنا ﴿ **ثُمَّ إِذَا**

---

(١) سورة آل عمران.

(٢) الزمر.

(٣) الإسراء.

كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قيل اللام ههنا لام العاقبة، وقيل لام التعليل، معنى قضينا لهم ذلك ليكفروا أى يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، وأنه المسدي إليهم النعم، الكاشف عنهم النقم ثم توعدهم قائلاً: ﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أى اعملوا ما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلا ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى عاقبة ذلك ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم، وجعلوا للأوثان نصيبا مما رزقهم الله، فقالوا ﴿ هَـذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللّهِ وَمَا كَانَ لِلّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [1] أى جعلوا لآلهتهم نصيبا مع الله، وفضلوها على جانبه، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة، ليسألنهم عن ذلك الذى افتروه وائتفكوه وليقابلنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم، فقال: ﴿ تَاللّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

فصل

قال محمد تقى الدين: - أنا أختار تفسير مجاهد لقوله تعالى: ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ أى خالصا فلا يجوز أن يعبد غيره بأى نوع من أنواع العبادة.

وقوله تعالى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ﴾ علة لما تقدمه أى وحدوا الله لأنه هو الذي يمن عليكم بالنعم، وغيره لا ينفع ولا يضر فلم تعبدونه؟ وقوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ هذه عادة المشركين يجعلون أموالهم لآلهتهم التى يسمونها بالأولياء، وقد زين لهم الشيطان أن يتخذوا أولياء من دون الله، ولو اتخذوا الله وليا لكفاهم، ولكنهم قوم لا يعقلون.

الباب السادس

قوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا

(١) الأنعام.

تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ الآيات: ٧٣-٧٦

قال (ك) يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئاً، أي لا يقدر على إنزال مطر، ولا إنبات زرع، ولا شجر، ولا يملكون ذلك لأنفسهم، أي ليس لهم ذلك، ولا يقدرون عليه لو أرادوه، ولهذا قال تعالى ﴿ **فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ** ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباها وأمثالا ﴿ **إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ** ﴾ أي أنه يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو وأنتم بجهلكم تشركون به غيره، ﴿ **ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا** ﴾ الخ – قال ابن أبي نجيح عن مجاهد وهو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى، فهل يستوي هذا وهذا، ولما كان الفرق بينهما ظاهرا واضحا بينا لا يجهله إلا كل غبي، قال الله تعالى: ﴿ **الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ** ﴾ [١] الآية، قال وهذا أيضا المراد به الوثن والحق تعالى، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشر ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كل أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ **أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ** ﴾ أي يبعثه ﴿ **لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ** ﴾ ولا نجح مسعاه ﴿ **هَلْ يَسْتَوِي** ﴾ من هذه صفاته ﴿ **وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ** ﴾ أي بالقسط، فمقاله حق وفعاله مستقيمة، ﴿ **وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾.

---

(١) سورة النحل.

فصل

قال محمد تقى الدين: - فائدة: من عادة الحافظ ابن كثير رحمه الله أن يفسر القرآن بالقرآن ويجمع النظائر ولم يفعل ذلك في هذه الآية والكمال لله فإن تفسيرها ظاهر في آية الروم، يقول تعالى ﴿ **ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاء فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاء تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾.

ففي الآيتين كلتيهما بيان من الله تعالى أن من عبد مخلوقا وجعله لله ندا بأن استغاث به بغير طريق الأسباب، واستعان به كذلك، أو خافه بالغيب، أو توكل عليه في قضاء حاجة إلى غير ذلك من أنواع العبادة، فإنه لم ينتفع بعقله فلا عقل ولا علم، لأنه لا يرضى أبدا أن يكون عبده شريكا له في ماله يتصرف كتصرفه، فإذا قال المشرك لوثنه أو لروح شيخه، إن ولد لى ولد ذبحت لك شاة، فقد جعل شيخه شريكا مع الله، يعطى ويمنع ويقبل النذر ويعبد من دون الله لأن شيخه عبد مملوك لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعاً، فكيف يشارك الله تعالى ويتصرف في ملكه.

فائدة ثانية: - في معنى قوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ** ﴾ قال مجاهد أى عيال عليه ومعنى العيال المحتاجون إلى نفقة من يعولهم، فشيخ الطريقة وكل الصالحين محتاجون إلى الله تعالى، في إيجادهم وإمدادهم وفقراء إليه تعالى، فمن نسب لهم التصرف يكون في الجهل والحماقة كالذى ينسب الملك والتصرف إلى العبد المملوك الذى لو تركه سيده بلا عشاء لبات يتضور ويتألم من الجوع، فأحمق الناس وأجهلهم هو الذى يأتى إلى مثل هذا العبد ويلتمس منه عشاء، والآن حضرتنى نادرة مضحكة، وهى مناسبة للمقام، يحكى أن راعى غنم من أهل البادية في الجزائر، جاءه رجل وهو راجع بغنمه إلى الخيمة قبل غروب الشمس فقال له باللغة الجزائرية «أضياف ربى» ومعنى ذلك، أنا ضيف الله عندك، فلم يجد بدا من قبوله وكانت أمه من أبخل الناس، فلما أقبل بالغنم على الخيمة رأت أمه معه رجلا آخر، فقالت له، من هذا الرجل الذى معك، فقال ضيف، فغضبت غضبا شديداً، وقالت له «يا خاليها يا طويها» ومعنى ذلك يا أيها المبذر المتلاف الذى سيخلى هذه الخيمة حتى تطوى

ولا تنصب، أخوك جائنى بضيف في السنة الماضية، ورأيت ما صنعت به من التنكيل، وإذا بك تأتينى أنت في هذه السنة بضيف آخر، والله لا تأكله لا أنت ولا هو، فتحير الراعى في أمره كيف يطرد هذا الضيف بعد ما وصل إلى الخيمة، فقال الراعى للضيف كيف تطأ على برنسى بنعليك فقال ما وطئت عليه، قال أتكذبنى؟ والله لا أكلت طعامى، فهذا الضيف عاجز لا يملك شيئا، والراعى مثله، ضعف الطالب والمطلوب، فهذا مثل يضرب لمن ينزل حاجته بالمخلوق العاجز الفقير، قال شيخنا محمد بن العربى العلوى رحمه الله يا عجبا لهؤلاء الجهال يطعمون شيخهم من جوع، ويسقونه من ظمأ، ويكسونه من عرى، ويركبونه على دوابهم أو سياراتهم، ويقونه الحر والقر، ويؤوونه في بيوتهم فهو عيال عليهم ومع ذلك يسألونه رزقا خياليا لا وجود له، ولا يكفهم ذلك حتى يسألوه تنوير قلوبهم وهدايتها، وهذا كفر بالله إذ لا يهدى القلوب إلا الله.

والمثل الأوربى يقول: فاقد الشيء لا يعطيه.

الباب السابع

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾ الآيتان: ٨٦-٨٧

قال (ك) أخبر تعالى عن تبرئ آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال ﴿ وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَاءهُمْ ﴾ أى الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا هَـؤُلاء شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوْ من دُونِكَ فَألْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى قالت لهم الآلهة كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [(١)] وقال تعالى ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ

---

(١) سورة الأحقاف.

بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًا ﴾ [1] وقال الخليل عليه الصلاة والسلام ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ﴾ [2] الآية، وقال تعالى ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ [3] الآية، والآيات في هذا كثيرة، وقوله ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ قال قتادة وعكرمة ذلوا واستسلموا يومئذ أى استسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، وقوله ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله فلا ناصر لهم ولا معين ولا مجير.

فصل

قال محمد تقى الدين: - قد أجاد الحافظ (ك) في تفسير هذه الآيات، وصدق ورحمه الله، ففي القرآن آيات كثيرة تدل على أن المعبودين من الملائكة والأنبياء والصالحين يتبرؤون من عابديهم، كما قال تعالى: وقد تقدم ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾.

الباب الثامن

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ الآيات: ١٢٠-١٢٣

(١) مريم.
(٢) يونس.
(٣) القصص.

قال (ك) يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ووالد الأنبياء ويبرئه من المشركين ومن اليهودية والنصرانية، فقال ﴿ **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا** ﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذى يقتدى به، والقانت، هو الخاشع المطيع، والحنيف، المنحرف قصدا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿ **وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ قال سفيان الثورى بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه سئل عن الأمة القانت، فقال الأمة معلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله ﴿ **شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ** ﴾ أى قائما بشكر نعم الله عليه، كقوله تعالى ﴿ **وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى** ﴾ أى قام بجميع ما أمر الله تعالى، به، وقوله ﴿ **اجْتَبَاهُ** ﴾ أى اختاره واصطفاه كقوله ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ** ﴾ [1] ثم قال ﴿ **وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ وهو عبادة الله وحده لا شريك له على شرع مرضى، وقوله ﴿ **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ أى جمعنا له خيرا من جميع ما يحتاج المرسل إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ **وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ وقال مجاهد في قوله ﴿ **وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً** ﴾ أى لسان صدق وقوله ﴿ **ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا** ﴾ أى ومن كماله وعظمته وصحة توحيده، أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل وسيد الأنبياء ﴿ **أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ كقوله في الأنعام ﴿ **قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾

قال محمد تقى الدين: - إبراهيم الخليل، صلاة الله عليه إمام الموحدين الحنفاء وحسبه شرفا أن الله أمر خير خلقه محمدا، أن يتبعه وأن يكون على ملته ولذلك يجب على كل مسلم أن يكون حنيفا موحدا لله وسيأتى قوله تعالى في سورة الممتحنة ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ** ﴾ إن شاء الله.

---

(١) سورة الأنبياء.

سورة الإسراء

الباب الأول

قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ ﴾

الآيتان: ٢٢-٢٣

وهناذكر الله تعالى ثماني عشرة وصية جمعت الخير كله، وسماها الحكمة ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [1] قدم قبلها النهى عن جعل إله مع الله، وأخبر أن من فعل ذلك يكون مذموما عند الله والناس المؤمنين، ومخذولا ليس له ولى ولا نصير، وقال آخرها ﴿ **وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا** ﴾ [2] والملوم، الذى يلومه الله تعالى، ويلومه عباده الصالحون، والمدحور، المطرود من رحمة الله، وهذا يدلنا على عظمة التوحيد عند الله، وأن من لم يأت به فهو شقى خاسر لا يقبل الله منه عملا ولا يرحمه، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء** ﴾ [3] والوصايا التى سماها الله الحكمة، أولها: توحيد الله تعالى، وثانيها: بر الوالدين، وثالثها: الإحسان إلى الأقارب، ورابعها: الإحسان إلى المساكين، وخامسها: الإحسان إلى ابن السبيل وهو المسافر المنقطع عن أهله، وسادسها: ترك التبذير، وسابعها: القول الميسور للسائلين إذا لم يجد الإنسان ما يعطيهم، وثامنها: التوسط في الإنفاق، وتاسعها: ترك قتل الأولاد خوف الفقر، ويقرب من ذلك ما سماه النبى ﷺ بالوأد الخفى، وهو عزل المنى عن رحم المرأة حتى لا تحمل ومثله كل ما يمنع الحمل إلا إذا كان لمصلحة، كحفظ الحياة وحفظ الصحة، وعاشرها: ترك الزنى،

---

(١) البقرة.

(٢) الإسراء

(٣) النساء

والحادى عشر: ترك قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والقتل بالحق يكون مشروعا، كالقصاص ورجم الزانى، وقتل من ارتد عن الإسلام، وقتل قطاع الطريق وما أشبه ذلك، والثانى عشر: أن لا يقرب مال اليتيم إلا بقصد الإصلاح، الثالث عشر: الإيفاء بالعهد، الرابع عشر: إيفاء الكيل، الخامس عشر: إيفاء الوزن، السادس عشر: أن لا يتكلم الإنسان في الدين إلا بعلم، ومن ذلك يظهر تحريم الإفتاء بالتقليد والتمذهب، السابع عشر: ترك الخيلاء والكبر، والثامن عشر: ترك الشرك بالله.

الباب الثانى

قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ الآيتان ٥٦-٥٧

قال محمد تقى الدين: اختلف السلف في المراد بقوله تعالى: ﴿ **أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ** ﴾ [1] الآية.

فقال ابن مسعود وجماعة كان المشركون يعبدون جماعة من الجن فأسلمت الجن ووحدوا الله وصاروا يبتغون إليه الوسيلة بالعمل الصالح، ولم يشعر بإسلامهم الذين كانوا يعبدونهم من الإنس، واستمروا على عبادتهم، فعاب الله عليهم ذلك، وقال ابن عباس وجماعة، المراد الملائكة وعيسى، فإن الملائكة وعيسى يعبدون الله ويوحدونه ويتقربون إليه، والجهال من بنى آدم يعبدونهم، حاصله أن المعبودين من دون الله إما أن يكونوا أبراراً أو فجاراً، فالأبرار كالملائكة والأنبياء والصالحين والفجار، كل من عبد ورضى بذلك من الجن والإنس، ومن عبد غير الله فهو خاسر سواء كان المعبود من الأبرار أم من الفجار.

---

(١) الإسراء.

الباب الثالث

قوله تعالى: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ الآيتان: ٦٦-٦٧

قال (ك): يخبر تعالى عن تسخيره لعباده الفلك في البحر، وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم، ولهذا قال ﴿ **إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا** ﴾ أى إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾

يخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين، ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ** ﴾ أى ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فارا من رسول الله ﷺ حيث فتح مكة، فذهب هاربا فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض، إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره اللهم لك على عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدى في يد محمد، فلأجدنه رؤوفا رحيما، فخرجوا من البحر فرجع إلى رسول الله ﷺ فحسن إسلامه ؓ وأرضاه، وقوله تعالى ﴿ **فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ** ﴾ أى نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له، ﴿ **وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا** ﴾ أى سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله.

فصل

قال محمد تقي الدين: ومن ذلك تعلم أن جاهلية زماننا أعظم بكثير من الجاهلية الأولى، الذين دعاهم رسول الله ﷺ وقاتلهم، والدليل على ذلك أن المشركين في ذلك الزمان

يوحدون الله في الشدة، ويشركون في الرخاء، أما مشركوا هذا الزمان، فإنهم يشركون في الشدة أكثر مما يشركون في الرخاء أ هـ.

الفهرس



فهرس الكتاب